

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ

في شهود النعمة والرضا في السراء والضراء

جهدٌ مشتركٌ،
نسألُ اللهَ فيه الإخلاصَ والقبولَ

هذا الكتاب وقف لله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد

في شهود النعمة والرضا
في السراء والضراء

جهدٌ مشتركٌ،
نسألُ اللهَ فيه الإخلاصَ والقبولَ

== مدارج

هذا الكتاب وقف لله تعالى

إهداء

إليك، يا من تقول «الحمد لله» وترجو أن يصدق بها قلبك كما ينطق بها لسانك.

إليك، وأنت تحمل همًّا لا يعرفه من حولك، أو تنتظر عافية أو فرجاً، أو تعيش في سعة وتحشى أن تنسى فضل الله عليك. نهديك هذه الصفحات بحبة، ونرجو أن تجد فيها ما يذكرك بنعمة قريبة، ويعينك على شكرها، ويرفق بقلبك حين يتعب.

نحن وإياك نحتاج إلى عون الله. نقصر ونغفل، ثم نرجو أن يردنا إلى طاعته، وأن يجعل ما علمنا سبباً لصلاح أعمالنا. وحين تدعو لنفسك، اذكركنا بدعوة، ولوالدينا، ولكل من أعان على وصول هذا الكتاب إليك.

نسأل الله أن يرزقنا وإياك قلوباً شاكرة، وألسنة صادقة، وأن يجعل نعمه عوناً لنا على محبته وحسن عبادته.

هذا الكتاب وقف لله تعالى

المحتويات

٦	مقدمة
٨	فاتحة الكتاب
١٤	الباب الأول: معرفة النعمة
١٥	١ هذه ليست حياتك كلها
٢٢	٢ اليوم الذي ظننته عادياً
٣٠	٣ في قطرة ماء عالم كامل
٣٩	٤ ما حماك ولم تعرفه
٤٦	٥ قلها هذه المرة بقلبك
٥٤	الباب الثاني: الحمد لله بأسمائه وصفاته
٥٥	٦ قبل أن تطلب شيئاً
٦٥	٧ سعة رحمة الله
٧٧	٨ إن ربي لطيف لما يشاء
٨٧	٩ يسمع ارتجاف صوتك
٩٦	١٠ الحمد أوسع من رغباتك
١٠٤	الباب الثالث: نعم البدن والمعاش
١٠٥	١١ هذا الجسد الذي يملكك
١١١	١٢ نوافذك إلى العالم
١١٨	١٣ من الحبة إلى المائدة

المحتويات — تمة

١٢٦	١٤ حين تضع رأسك بأمان
١٣٢	١٥ يوم من عمرك
١٣٩	١٦ أيدٍ لا تعرف أسماءها
١٤٦	١٧ الذين جعلهم الله سكتاً
١٥٥	١٨ سماء تسبح وأنت تنسى
١٦٣	الباب الرابع: ما يحمل روحك
١٦٤	١٩ أن تعرف لمن تسجد
١٧٢	٢٠ كتاب يحدك كل مرة
١٨١	٢١ أقرب ما تكون
١٨٩	٢٢ باب لا يغلقه ماضيك
١٩٨	٢٣ نور تعرف به الطريق
٢٠٥	٢٤ أن تقول: يا رب
٢١٤	الباب الخامس: حين يؤمك الطريق
٢١٥	٢٥ وجعك ليس وهماً
٢٢٠	٢٦ الساعة الأولى
٢٢٤	٢٧ الحزن الذي يطول
٢٢٩	٢٨ لا تدفن الباقي مع المفقود
٢٣٣	٢٩ ثقب أنقذ السفينة

المحتويات — تمة

٢٣٩	٣٠ سنوات خلف الباب
٢٤٣	٣١ حين تنغلق الجهات
٢٤٨	٣٢ شوكة لا تضيع
٢٥٢	٣٣ ورحمة للمكسورين
٢٥٧	الباب السادس: حين يصير الحمد عملاً
٢٥٨	٣٤ أن تعرفها بقلبك
٢٦٥	٣٥ سمّها بلسانك
٢٧٢	٣٦ اعملوا شكراً
٢٨١	٣٧ العين التي خرجت من بيتها
٢٨٩	٣٨ الرضا الذي يحركك
٢٩٦	الباب السابع: حياة تقول الحمد لله
٢٩٧	٣٩ حين تعود إليك روحك
٣٠١	٤٠ بين لقمة وخطوة
٣٠٦	٤١ إذا جاء ما تحب وما تكره
٣١٠	رفيق ثلاثين يوماً: من الملاحظة إلى الحياة
٣١٦	٤٢ وآخر دعواهم
٣٢٠	مراجع الأدعية والنصوص

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم لك الحمد، أنت ربنا لا إله إلا أنت. لك الحمد على أسمائك الحسنى وصفاتك العلى، وعلى ما خلقت ورزقت، وما أعطيت وهديت. أنت الغني ونحن الفقراء إليك. لك الحمد في الأولى والآخرة، وإليك يرجع الأمر كله.

اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض. ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق. [١٥]

ربنا لك الحمد، ملء السماوات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. [٢٥]

لك الحمد على نعمة الإسلام، وعلى القرآن، وعلى رسولك محمد ﷺ.
 لك الحمد على ما علمنا من نعمك وما لم نعلم؛ على الماء والطعام،
 والمأوى والأمن والعافية، وعلى من أحسن إلينا وأعاننا. اللهم اغفر
 لنا ولوالدينا وللمسلمين، واجز أهل المعروف خيراً.

اللهم لك الحمد حين تيسر ما نحب، ولك الحمد حين يخفى علينا
 وجه الحكمة فيما جرى. نسألك العافية، ونرجو رحمتك، ونعوذ بك
 من السخط والقنوط. اشف مرضانا، وارحم موتانا، وأعن المبتلين
 على الصبر، وارزقنا الرفق بهم والإحسان إليهم.

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. [٣د] ارزقنا قلوباً
 شاكراً واللسنة صادقة. لا تجعل اعتيادنا للبقاء ينسينا المنعم،
 وأعنا على استعمال نعمك في طاعتك. اغفر تقصيرنا، وأصلح
 أعمالنا، وثبتنا على دينك حتى نلقاك.

سبحانك وبحمدك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على
 نفسك. [٤د] وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه
 أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

فاتحة الكتاب

قد تمر ساعات يومك وأنت مشغول بما ينقصك، ثم تشرب ماءً، أو تسمع صوت من تحب، أو تعود إلى بيتك، فتتذكر أن ما بين يديك كثير. الهم لم ينته، لكنك رأيت معه نعمة كانت قريبة منك ولم تلتفت إليها.

نألف العافية حتى يغيب عنا قدرها. ننسئ إلى السن إذا آمتنا، وننسى أننا أكلنا بها طويلاً من غير ألم. ونشتاق إلى النوم حين يطول الأرق، مع أن ليالي كثيرة مضت علينا في راحة. وحين نتنظر خبراً عن مسافر، نعرف شيئاً من قيمة عودته سالماً كل مرة.

هذا الاعتياد يحتاج إلى تذكير، لا إلى تخويف دائم من فقد النعم. نستطيع أن نحب أهلنا وهم معنا، وأن نشكر على الماء وهو متاح، وأن نحسن استعمال صحتنا قبل المرض. معرفة النعمة في وقت وجودها أدعى إلى حفظ حقها والإحسان بها.

ولعل في قلبك الآن ما يشغلك عن هذا كله: ديناً، أو مرضاً، أو فقد عزيز. لا يحتاج قلبك إلى من يلومه على الحزن. يحتاج إلى الرفق، وإلى كلمة صحيحة تعينه على أن يجمع بين الصبر والحمد.

فقد حزن الأنبياء، وبكت العيون الطاهرة، وتألمت القلوب المؤمنة. ولما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ دمعت عيناه، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا»؛ رواه البخاري (١٣٠٣). لم ينف الحزن، ولم يعتذر عن الدمع، لكنه جعل للألم حداً لا يتجاوزه إلى ما لا يرضي الله.

يتسع قلب المؤمن لحزن صادق وحمد صادق. يحزن على مصابه، ويسأل الله كشف ضره، ويشكره على ما أبقى له من خير. لا يلزمه أن يصف المرض بالعافية، أو أن يكتم حاجته؛ وإنما يحفظ نفسه من الاعتراض على ربه، ويطلب عونه على ما نزل به.

وإذا خفيت عليك حكمة ما جرى، فحسبك أن الله عليم حكيم، وأنه لا يظلم أحداً. سل عما ينفعك، وابحث عن السبب الذي تستطيع إصلاحه، واجعل علم ما غاب عنك لله.

حين افتتح الله كتابه الذي أنزله هدى للعالمين، علمنا أن نقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

لم يبدأ بنا من ضيق حياتنا، بل من سعة ربوبيته. ولم يعلق استحقاقه للحمد على يوم هادئ، أو جسد معافى، أو جيب ممتلئ؛ فهو المحمود لأنه الله، ولأنه رب العالمين: خالقهم ورازقهم ومدير أمرهم.

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ تَعْرِفُهَا أَوْ لَا تَعْرِفُهَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ الْإِلَهِ﴾ [النحل: ٥٣].

كل ما بنا من نعمة فمن الله؛ ما أدركناه منها وما لم ندركه. فوجود الماء نعمة، وسلامته وقربه والقدرة على الانتفاع به نعم أخرى. وقد نحسب أننا شكرنا على شيء واحد، وفيه من أوجه الإحسان ما لا نحيط به.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].
نعترف بعجزنا عن الإحصاء، ونجتهد في الشكر الذي نستطيعه: معرفة بالفضل، وثناء على الله، وعمل بما يرضيه.
لكننا كثيراً ما نختصر حياتنا في الشيء الناقص.

تنقصنا زيادة في الراتب، فننظر إلى يوم كامل كأنه فقر. يتأخر علينا أمر، فنرى أعوام العطايا كلها من نافذة الانتظار. نختلف مع شخص نحبه، فتختفي من شعورنا وجوه كثيرة تحبنا. يؤلمنا عضو، فيستولي ألمه على الجسد كله، كأن سائر الأعضاء لم تؤد إلينا حق الصحة.

والمطلوب ليس أن نتجاهل الناقص، ولا أن نترك السعي في إصلاحه. المؤمن يسأل، ويتداوى، ويعمل، ويصلح، ويدفع عن نفسه الظلم بما يشرع ويستطيع. لكنه لا يسمح لما ينقصه أن يزور

صورة ما أُعطي. يعيش الحقيقة كاملة: هنا ألم يحتاج إلى صبر وعمل، وهنا نعم تحتاج إلى شهود وحمد. والنعمة ليست دائماً شيئاً يلمع.

من نعم الله العافية والستر، وتيسير التوبة، والسلامة من شر علمناه أو لم نعلمه. نحمده على ذلك كله، ونقف عند حدود علمنا؛ فلا نجزم أن حادثة معينة وقعت لتحقيق غرض غيبي لم يخبرنا الله به. بل إن أعظم النعم قد تمر بلا صورة تلتقط ولا ثمن يكتب: أن تعرف ربك. أن تسمع القرآن فيتحرك شيء في صدرك. أن يفتح الله لك باب التوبة بعد الذنب. أن يسترك فلا تصبح خطيئتك حديث الناس. أن يمهلك ولا يعاجلك. أن يردك إليه كلما أبعدتك الدنيا.

كم من إنسان يملك بيتاً أوسع من بيتك، لكنه لا يعرف أين يضع خوفه إذا نزل. وكم من إنسان تفتح له أبواب اللذة، ولا يفتح له باب سجدة. ليست كل النعم مما تراه العيون؛ قال الله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

هناك نعم ظاهرة تملأ اليد، ونعم باطنة تبني القلب. وهناك عطايا تأتي في هيئة عطاء، وألطف لا نعرفها إلا بعد زمن، وقد لا نعرفها في الدنيا. لا نحمل المصيبة معنى لم يخبرنا الله به، لكننا نبحث

عن العبودية الممكنة داخلها: دعاء نتعلمه، وانكسار يردنا، ورحمة بالموجوعين لم نعرفها قبل أن نذوق الألم.

وسيمضي هذا الكتاب معك في الأشياء القريبة: في الماء والخبز، وفي السمع والبصر، وفي البيت والطريق، وفي الليل حين يترك، وفي الصباح حين يعيدك إلى الحياة. وسيمضي إلى نعم الإيمان التي قد ننسى أنها أعظم من الدنيا وما فيها. ثم يدخل - برفق - إلى غرف الابتلاء، لتتعلم كيف يبقى الرجاء مضيئاً هناك من غير أن يسيء إلى دمة أحد.

لن تكون غاية الصفحات أن تحفظها.

غايته أن تتحول كلمة «الحمد لله» من عادة إلى جواب معرفة. أن تعيش في العالم نفسه بعين أعدل: تنزل بك المصيبة فتعرف اسمها، وتأتيك النعمة فتعرف صاحبها. لا تستعير فرحاً زائفاً، ولا تترك الحزن يبتلع كل شيء.

ربما كانت أعظم خساراتنا ليست ذهاب بعض النعم، بل مرور النعم الباقية دون أن تصل إلى أرواحنا. نملكها ولا نفرح بها، ونستعملها ولا نشهد واهبها، ونقضي العمر في انتظار حياة أخرى بينما الحياة التي بأيدينا تمضي.

لهذا، قبل أن تكمل، اترك قلبك يهدأ قليلاً.

لا تبحث عن نعمة نادرة. ابدأ بأقرب شيء: هذا النفس الذي اكتمل، وهذه الدقيقة التي منحتها، وهذا الباب المفتوح بينك وبين الله.

قلها بلا تكلف، وبلا محاولة لصناعة شعور لا تجده. قلها كما أنت، بتعبك وأسئلتك وما فيك من نقص:
اللهم لك الحمد.

لك الحمد على ما رأينا وما لم نر. لك الحمد في أيام السعة، ولك الحمد الذي نستعين به في أيام الضيق. لك الحمد حتى يفيق القلب من عادته ويعرف أنه لم يعيش لحظة واحدة خارج ملكك وفضلك.
ومن هنا نبدأ.

الباب الأول معرفة النعمة

يبدأ الشكر حين ننتبه لما أنعم الله به علينا. قد نحتاج إلى أن ننظر إلى يوم مألوف، أو حاجة قُضيت، أو سلامة استمرت، لنعرف أن أسباب الحمد لم تنقطع. وفي هذا الباب نتأمل ما قرب منا حتى اعتدناهُ، ونطلب أن يزداد شعورنا بفضل الله مع بقائنا صادقين في وصف ما يؤمننا.

الفصل الأول

هذه ليست حياتك كلها

قد تسمع خبراً مؤلماً، فيغلب على تفكيرك بقية اليوم. وربما كان همك قديماً: مرضاً نتابع علاجه، أو ديناً تبحث عن سداذه، أو خلافاً تخشى أثره في بيتك. هذا التعب حقيقي، ولا يصح أن يستهين به أحد لمجرد أن غيرك أشد بلاء.

لكن الحزن قد يحملنا على حكم أوسع من الواقع. نقول: لم يبق في حياتي خير، مع أن في حياتنا خيراً لم يذهب. ونقول: لن تتحسن الأمور، ونحن لا نعلم ما يأتي به الغد. من الرفق بأنفسنا أن نصف ما نعلم، فنقول: أنا متعب، وأحتاج إلى عون، وأسأل الله الفرج؛ ثم ننظر إلى ما بقي لنا من أسباب الصبر والعمل.

طال حزن يعقوب عليه السلام على يوسف. قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]. وقد قص الله علينا حزنه ورجاءه ودعاءه؛ فنجد في خبره أن الحزن قد يشتد على عبد صالح، ويبقى مع ذلك متعلقاً بربه.

ثم نسمعه يقول: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

لم يقل: لا حزن في قلبي. ولم يسمِّ الفقد نعمة في ذاته. قال «بشيء» و«حزني»، ووضعهما حيث ينبغي أن يوضعا: بين يدي الله.

هذه واحدة من أرحم حقائق الإيمان: أنك لا تحتاج إلى تمنيق جرحك قبل أن تدعو. تستطيع أن تأتي إلى ربك بالعبارة الناقصة، وبالصوت المتعب، وبالدمعة التي تقطع الكلام. الشكوى إليه ليست خروجاً من العبودية؛ إنها رجوع إلى بابها. أنت لا تخبره بما يجهل، بل تعلن أنك عرفت إلى من تحمل ما عجزت عن حمله.

ومع هذا الحزن الطويل، لم يجعل يعقوب المفقود نهاية القصة. حين أراد أبناءه أن يعودوا للبحث قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

اجتمع في الموقف حزن يعقوب ورجاؤه، ثم أمره أبناءه بالبحث. وهذا ما نتعلمه منه: الشكوى إلى الله، وعدم اليأس، وبذل السبب الممكن.

ربما لا تشبه قصتك قصة يعقوب، ولا يجوز لأحد أن يعدك بأن مفقودك سيعود في الدنيا كما عاد يوسف. القرآن لا يُقرأ على أنه وعد بأن تتكرر التفاصيل لكل قارئ، لكنه يعلم القلب طريقه وهو داخل التفاصيل الخاصة به: اشكُ إلى الله، لا تيأس من رحمته، وافعل ما تستطيع اليوم. لا تطلب من نفسك أن تعرف نهاية الطريق كي تمشي خطواته التالية.

اسأل نفسك برفق: ما الذي أصابه البلاء، وما الذي بقي أستعين به؟ قد تكون خسارتك في عملك، لكن علمك وخبرتك باقيان. وقد يضعف بدنك، وتبقى لك عبادة على قدر استطاعتك وأهل يعينونك. النعم الباقية لا تحو ألم المفقود؛ لكنها تستحق أن تعرفها وتشكر الله عليها، وأن تنتفع بها في إصلاح حالك.

قد يبقى لك، في يوم المرض، عقل يفهم وصف الطبيب، ويد تناول الدواء، وشخص يوصلك، ولسان يدعو. وقد يبقى لك، في ضيق المال، علم تعمل به، وسمعة طيبة، وقوت يومك، وبيت يسترک، وقدرة على السعي. وقد يبقى لك، بعد الفقد، إيمان يفتح لك رجاء أن يجمعك الله بمن تحب من أهل الإيمان في الآخرة، وناس يتألمون لألمك، وذاكرة تحفظ الجميل بدل أن تحوه.

ابدأ بما تستطيع معرفته الآن، ولو كان قليلاً في نظرك: شخصاً أحسن إليك، أو صلاة استطعت أداءها، أو دواء تيسر لك. لا تتكلف شعوراً كبيراً؛ يكفي أن تصدق في الاعتراف بالنعمة.

قال الله تعالى بعد أن ذكر قلب الإنسان في النعمة والضر: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ اللَّهَ ثُمَّ إِذَا مَسَّ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ﴾ [النحل:

٥٣].

انظر كيف اجتمعت النعمة والضر في آية واحدة. لم يقل وجود الضر إن النعم انقطعت، ولم يمنع وجود النعم أن يمس الإنسان

ضر فيرفع صوته بالدعاء. «ما بكم من نعمة» من الله، و«إذا مسكم الضر» فإليه تفزعون. العبد بين إحسان يراه فيحمد، وحاجة يجدها فيسأل. لا تناقض بين الحالتين؛ كلتاهما تردانه إلى ربه.

أحياناً لا تكون المشكلة في أننا لا نملك نعماً، بل في أننا نطالب النعمة أن تؤدي عملاً لم تُخلق له. نطلب من بيت آمن أن يلغي ألم المرض، ومن صحة جيدة أن تلغي وحشة الفقر، ومن أسرة محبة أن تضمن نجاح كل مشروع. فإذا عجزت النعم الموجودة عن سد موضع النقص المحدد، حكمنا عليها جميعاً بأنها لا شيء.

لكن الماء لا يصير قليل القيمة لأنه لا يسد الدين. وصوت الأُم لا يصير هيناً لأنه لا يغيّر نتيجة التحليل. والإيمان لا يعني أن البدن لن يتعب، لكنه يهب التعب جهة يقصدها، وكلمة يقولها، وأجراً يرجوه. كل نعمة تؤدي رسالتها؛ والعدل أن نراها حيث تعمل، لا أن نلغيها لأنها لم تتحول إلى النعمة التي نفتقدها.

وقد تعرف هذه المعاني ولا تجد أثرها في قلبك سريعاً. لا تقس على نفسك، ولا تجعل بطء شعورك بالشكر حجة على فساد إيمانك. جاهد الغفلة برفق، واطلب العون ممن تثق بدينه ورحمته. وإذا كنت أنت من يرافق حزيناً، فابدأ بحاجته: ماء، ودواء، وإنصات، وقضاء شأن؛ ثم ذكره بالخير في الوقت الذي يحتمل فيه التذكير.

وليس هو كذلك عذراً لترك ما يمكن تغييره. إذا كان موضع الألم مرضاً، فالتداوي من الأخذ بالأسباب. وإذا كان ظهماً، فطلب الحق مشروع. وإذا كان خطأ منك، فالاعتذار والإصلاح شكر لنعمة البصيرة. وإذا كان باب رزق أغلق، فطرق الأبواب الأخرى عبادة. رؤية ما بقي لا تعني الإقامة راضياً داخل الضرر؛ بل قد تكون النعمة الباقية هي القدرة التي تنهض بها لتدفعه.

الحقيقة الكاملة تسع الأمرين: هذا يؤلمني، والله قد أبقى لي خيراً. أحتاج إلى الفرج، ولست خالياً من الفضل قبل مجيئه. أسأل ربي أن يغير حالي، ولا أوجل كل حمد حتى يتغير.

ربما كنت منذ مدة تقول في داخلك: سأبدأ حياتي حين تنتهي هذه المشكلة. ستصل الرغبة القديمة، ويهدأ القلق، ويصفو البيت، ثم أعيش. لكن الأيام التي تسبق الفرج — إن جاء الفرج بالصورة التي تريدها — ليست صفحات زائدة. هي عمرك أيضاً. فيها صلاة يمكن أن تحسنها، وقلب يمكن أن ترحمه، ووجه يمكن أن تبسم له، ونعمة يمكن أن تردّها إلى واهبها.

وقد تؤجل خيراً تقدر عليه حتى تنتهي المشكلة كلها. اتصل بمن قطعت زيارته، أو اعتذر عن كلمة، أو اجلس مع أهلِكَ قليلاً. ما تفعله الآن جزء من عمرك، وله قيمته وإن بقيت الحاجة التي ترجوها.

إن أخذت منك مالا، فلا تدعها تأخذ صدقك. وإن أخذت قوة بدنك، فلا تعطها بقايا مودتك. وإن أخذت وقتاً طويلاً للعلاج، فابحث داخل الوقت نفسه عن عبادة تناسب قدرتك. ليس هذا كلاماً عن بطولة مستمرة؛ ستأتي أيام لا تستطيع فيها إلا النجاة من اليوم. ونجاتك عندئذ ليست قليلة. غير أن السؤال الرحيم يبقى: هل بقي شيء صغير أستطيع أن أعيشه بدل أن أعلقه حتى إشعار آخر؟

ربما يكون هذا الشيء كوب شاي مع إنسان لم يعد يطلب منك تفسيراً، أو نافذة تفتحها ليدخل الضوء، أو رسالة تقول فيها: أنا متعب، لكنني أحبك. تلك التفاصيل لا تهزم المصيبة، ولا ينبغي أن نحملها ما لا تطيق. لكنها تمنع المصيبة من مصادرة كل لحظة لم تُكتب باسمها.

والنعمة الباقية ليست دائماً مريحة. قد تكون مسؤولية تجاه طفل وأنت حزين، أو صلاة تؤديها وأنت متعب، أو عملاً تقوم به لأن الناس ينتظرون حقهم. ثقل المسؤولية لا ينفي أنها دليل على أن فيك قدرة بقيت. وقد يكون من الحمد أن تطلب من يعينك عليها، فلا تستهلك نفسك باسم القوة.

من حقك كذلك أن تتغير سرعتك. من رأى بقية حياته لا يلزمه أن يركض فيها. قد يمشي ببطء، ويتوقف، ويستند. المهم ألا يعلن أن الطريق انتهى بينما ما زالت أمامه خطوة مأذوناً بها.

وقد تكتشف أن أصعب ما فقدته ليس الشيء نفسه، بل الصورة التي بنيتها حوله. وظيفة ظننت أنها ستثبت قيمتك، وزواج تخيلت أنه سيغلق باب الوحدة إلى الأبد، وصحة حسبت أنها ستبقى على الهيئة نفسها. حين تنهار الصورة، يحتاج القلب إلى زمن ليفصل بين رجائه المشروع وبين المعنى الذي حمله لمخلوق لا يملكه. ليست كل الحياة معلقة على تحقيق دور واحد منها.

أنت أكثر من منصبك، لأنك عبد قبل كل لقب. وأكثر من قدرتك الجسدية، لأن كرامتك لا تزول حين تحتاج إلى من يعينك. وأكثر من قبول شخص لك، لأن الذي خلقك لم يجعل قيمتك رهينة مزاج إنسان. هذه المعاني لا تدفع فاتورة ولا تزيل وجعاً بدنياً، لكنها تمنع الخسارة من أن تعيد تعريفك تعريفاً ظالماً.

إذا ضاق عليك يومك، فاذاكر نعمة حقيقية بقيت لك، واستعن بها على واجب تستطيع أدائه. ثم قل: يا رب، أعني على ما نزل بي، ولا تحرمني شكر ما أنعمت به علي. قد يبقى الحزن، ويبدأ معه رجاء يخفف وحدتك ويعينك على الخطوة التالية.

اليوم الذي ظننته عادياً

حين يسألك أحد عن يومك فتقول «عادي»، فربما تعني أنه لم تقع فيه مفاجأة. مضيت إلى عملي ثم عدت، وأكلت ونمت، ولم تجد ما يستحق رواية طويلة. ولكن كم من نعمة اجتمعت حتى مضى يومك بهذه السلامة؟

فتحت عينيك حين أردت أن تستيقظ. عرفت أين أنت. تعرفت إلى السقف فوقك، وإلى الأصوات القريبة، وإلى اسمك، وإلى اليوم الذي أمامك. نهضت أو أعانك أحد على النهوض. وجدت ما يستر جسدك، وماءً تغسل به وجهك، ومكاناً تقضي فيه حاجتك بخصوصية. عبر الطعام إلى فمك، ثم مضى في جسدك إلى عمل لا تراه. خرجت من باب، أو بقيت وراءه آمناً، ولم يسقط السقف، ولم تضل الطريق إلى غرفتك.

لا نلتفت إلى استمرار الأشياء كما نلتفت إلى تعطلها. يعرف أهل البيت انقطاع الماء في لحظة، وقد يمضي وقت طويل وهم ينتفعون به دون أن يذكروه. لذلك تستحق الأيام الهادئة شكراً، فسلامتها خير، وإن لم تحمل خبراً جديداً.

لا يعني هذا أن كل يوم هادئ عندك؛ فهناك من يقرأ وهو يعيش تحت خوف مستمر، أو يعتني بمريض، أو يفتقد الماء المأمون، أو يقوم على عمل شاق لا يجد بعده كفايته. ولا يجوز أن نحول كلمة «العادي» إلى صورة واحدة مفروضة على الناس. لكل إنسان ما تيسر له وما فاته. لكن حتى اليوم الثقيل لا يخلو غالباً من أشياء استمرت فيه، ومن عون وصل، ومن شر لم يكتمل، ومن قدرة بقيت بقدرها.

المطلوب أن ترى يومك كما هو، لا كما ينبغي أن يكون في صورة مثالية.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

تخبرنا الآية أننا عاجزون عن إحصاء نعم الله. ومنها ما نذكره جملة واحدة، فإذا تأملناه رأينا فيه أوجهاً كثيرة للإحسان، نتعلق بأبداننا ومعاشنا وصلتنا بالناس.

خذ مثلاً لحظة خروجك من البيت. الباب الذي يفتح، والمفتاح الذي تعرف كيف تستعمله، والقدم أو الوسيلة التي تنقلك، والعقل الذي يتذكر الوجهة، والطريق الذي صنعه آخرون، والأمن الذي يتيح لك المرور، والشخص الذي ينتظرك، والوقت الذي ما زال متاحاً. أنت تسميها «ذهبت إلى عملي»، ولكن

العبرة القصيرة تطوي تحتها شبكة من الخلق والتسخير وجهود البشر وحفظ الله.

أو خذ مكلمة قصيرة. جهاز يعمل، وشبكة تحمل الصوت، وأذن تسمع أو وسيلة تتيح التواصل، ولغة تعلمتها، وذاكرة تعرف صاحب الصوت، وقلب يجد في حضوره معنى. وربما كان أقصر ما قيل في المكلمة: «هل أنت بخير؟». تمر الجملة في ثوان، لكنها قد تكون إحدى الدعائم التي أبقت روحك واقفة في يوم صعب.

وسبقت هذه الآية في سورة النحل أمثلة من النعم: الأنعام، والماء، والزرع، والليل والنهار، وتسخير البحر. ثم ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]. نتذكر بها سعة فضله، ونرجو مغفرته لتقصيرنا، ونجتهد فيما نستطيع من الشكر.

ثم قال سبحانه في موضع آخر من السورة: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ اللَّه﴾ [النحل: ٥٣].

«ما بكم»؛ أي ما لابس حياتكم وصار عندكم. لا يقتصر الأمر على الهدية التي تصل في علبة، أو الزيادة التي تظهر في الحساب. ما بك من قدرة على الفهم، وما بك من سكينه، وما بك من صديق، وما بك من حرفة، وما بك من ستر، وما بك من فرصة لم تنته بعد: أصله من الله.

قد تقول: لكنني عملت لهذا. نعم، عملت. وقد تعب غيرك معك. والأسباب حقيقية، والاعتراف بها عدل. غير أن السؤال يمتد خطوة: من أعطاك القدرة على العمل؟ من خلق العقل الذي خطط، واليد التي نفذت، والفرصة التي ظهرت، ومن أبقى ألف مانع بعيداً حتى اكتملت النتيجة؟ قولك «من الله» لا يحو جهدك؛ يضعه داخل الفضل الذي حمله.

حدثت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عن تعبها في أول زواجها من الزبير: كانت تعلق فرسه، وتسقي، وتعجن، وتحمل النوى على رأسها. ثم أرسل إليها أبوها خادماً كفهاها سياسة الفرس، فقالت: «فكأنما أعتقني». رواه البخاري (٥٢٢٤)، ومسلم (٢١٨٢). عرفت قدر العون لأنه خفف عنها عملاً كانت تعرف مشقته. وكم نحتاج إلى مثل هذا الانتباه لمن يخففون عنا أعباء يومنا.

كم من نعمة في يومك جاءت في صورة شخص يؤدي عنك عملاً لو غاب لعرفت ثقله؟ من أعد الطعام، أو نظف المكان، أو حمل النفايات بعيداً، أو أصلح الطريق، أو حفظ النظام، أو راجع دواءك، أو أجاب سؤالك، أو بقي قرب طفل حتى استطعت أن تنام؟ ربما لا تعرف اسمه. وربما تعرفه جيداً لكنك اعتدت فعله حتى صار جزءاً من خلفية البيت.

رؤية النعمة تصنع عدلاً مع الناس أيضاً. حين تعرف أن «يومك العادي» قائم على أيدٍ كثيرة، تخف كلمة الأمر، وتزداد كلمة الشكر، ولا تنسب كل نجاح إلى نفسك. ترد الفضل الأعلى إلى الله، ثم تحفظ لمن أحسن حقه. فالمنعم هو الذي سخر الأسباب، وشكر السبب من شكر تديره.

وقد يكون الذي حمل عنك اليوم نسخة سابقة منك. أنت الذي تعلمت مهارة حتى صار العمل الآن أيسر، أو ادخرت مالاً في وقت سعة فوجدته عند الحاجة، أو اعتنيت بصحتك فاستطعت أن تقوم، أو أصلحت علاقة فوجدت بابها مفتوحاً حين ضاقت بك الأيام. حتى هذا لا يقود إلى العجب، بل إلى حمد الله الذي أعانك يوم العمل وأبقى ثمرة العمل إلى يوم الحاجة.

لكن لماذا لا نشعر بكل ذلك؟

لأن العقل لا يستطيع أن يقف مدهوشاً عند كل تفصيل في كل لحظة. لو تأملت آلية الباب عشر دقائق كلها خرجت، لتعطلت مصالحك. الاعتياد جزء من قدرتنا على الحياة، وليس ذنباً محضاً. المشكلة تبدأ حين يتحول التخفف من الانتباه إلى اعتقاد بالاستحقاق؛ حين نظن أن ما يستمر لنا لا يمكن أن يتغير، وأن كل خير وصل إلينا صار ملكاً ذاتياً لا صلة له بواهب.

الحل ليس أن تعيش خائفاً من زوال كل شيء. الخوف المرضي لا يصنع شكراً؛ قد يسرق لذة النعمة نفسها. لا يلزم أن تنظر إلى طفلك فتتخيل فقداه حتى تحبه، ولا أن تشرب فتتصور الهلاك عطشاً. يكفي أن تعرف أن الحضور هبة، وأن تعامل الموجود بما يليق به وهو موجود.

انظر إلى وجه من تحب لأنه هنا، لا لأنك تعاقب نفسك بصورة غيابه. اشرب الماء بطمأنينة، لا بدعراً. نم على فراشك شاكراً، لا مترقباً كارثة. الامتنان السليم يردك إلى الحاضر؛ لا يطردك منه.

وهناك حجاب آخر: المقارنة. تفتح نافذة ترى منها أجمل دقيقة في يوم شخص آخر، ثم تضعها إلى جوار أثقل ساعة في يومك. ترى رحلته ولا ترى قلقه، بيته ولا ترى ما يجري خلف بابه، نجاحه ولا ترى ثمنه، ثم تقول عن يومك: لا شيء فيه.

نقارن عندئذ شيئاً نعرف تفاصيله بشيء لم نر منه إلا جانباً مختاراً. لو جمعت يومك كله، لوجدت أن فيه ما لا يظهر في الصور: سترًا، ومساحة خاصة، وإنساناً أمينك، وخطأً لم يُفصح، وتوبة ما زالت ممكنة، ومهلة لم تنته. وربما وجدت فيه ألماً لا يراه الآخرون أيضاً. العدل لا يعني أن يومك أفضل من أيام الناس، بل أن نتوقف عن وزن باطنك بظاهريهم.

وقد يكون يومك بالفعل أشق من أيام كثيرين. الإيمان لا يطلب منك أن تنكر تفاوت الأرزاق والأحوال. لكنه يحركك من سؤال مستحيل: لماذا لم تُكتب لي حياة فلان؟ ويعيدك إلى سؤال يمكن أن تعبد الله به: ماذا أعطاني ربي في هذه الحياة التي هي لي، وكيف أحفظه وأستعمله؟

وحين تعيد مشاهدة اليوم، ستكتشف أن الزمن نفسه نعمة لا تُمسك باليد. الدقيقة لا تأتي في صندوق، ولا تبقى في الحساب إن لم تستعملها. تمر على الغني والفقير، والمسرور والحزين، وكل دقيقة منها موضع ممكن لنية أو كلمة أو عودة. لا يعني هذا أن نحول الوقت كله إلى إنتاج محوم؛ الراحة المباحة استعمال، والنوم الذي يصلح البدن استعمال، والجلوس مع من تحب قد يكون من أوفى ما تضع فيه عمرك.

المشكلة ليست أن يومك خلا من الإنجاز الذي يصفق له الناس. ربما كان إنجازك أن حفظت لسانك في غضب، أو واصلت علاجاً شاقاً، أو أطعمت من تعول، أو قاومت فكرة سوداء وطلبت المساعدة. هذه أعمال لا تظهر في جداول النجاح، لكنها تمنع حياة كاملة من الانهيار.

انظر أيضاً إلى الأشياء التي تعلمتها حتى صارت سهلة. قراءة هذه السطور كانت يوماً حروفاً متفرقة تعثرت فيها. الطريق الذي تقطعه

بلا تفكير كان أول مرة يحتاج إلى انتباه كامل. الدعاء الذي يجري على لسانك علمك إياه أحد، وحفظته بتكرار. سهولة اليوم قد تكون حصاد نعم قديمة: معلم، وصبر، وذاكرة، ومهلة.

وقد يبقى نفع إحسان قديم سنوات: معلم صبر عليك، أو والد شجعك، أو صاحب علمك صنعة. احمد الله على أثرهم، وكن صبوراً مع من يتعلم اليوم ما تيسر لك تعلمه من قبل.

تذكر أن كلمة «عادي» لا تعني قليل القيمة. ضربات القلب العادية هي التي تبقيك. نتائج الفحوص العادية قد تكون أعز خبر يسمعه خائف. وصول المسافر وصولاً عادياً هو الدعاء الذي كانت تنتظره أسرته. نوم ليلة كاملة أمر عادي حتى يزورك الأرق. كثير مما نسميه عادياً هو الاسم اليومي للعافية.

وليست النعم كلها راحة. قد يكون في يومك عمل ثقيل، لكنه يشهد أنك قادر وأن باب الكسب مفتوح. وقد يكون فيه طفل يوقظك، ومع التعب حياة تناديك وتحتاجك. وقد يكون فيه موعد علاج مرهق، لكنه باب متاح للأخذ بالسبب. لا نجمل المشقة، ولا نزع أن كل حمل نعمة من كل وجه؛ إنما نتعلم أن الشيء الواحد قد يحمل تعباً وعطاءً معاً.

تذكر قبل نومك نعمة اعتدتها؛ احمد الله عليها، واشكر من أحسن إليك، واجعل الشكر ظاهراً في معاملتك.

الفصل الثالث

في قطرة ماء عالم كامل

كم تبدو شربة الماء مألوفة حتى تعطش. عندئذ تعرف حاجتك إليها، وتفرح بما يذهب العطش، ولو كان الإناء بسيطاً. وفي هذا المشهد القريب يذكرنا القرآن بأصل النعمة ومن أنزلها.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمَزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۚ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

السؤال يبدأ من آخر الرحلة: «الماء الذي تشربون». ليس ماءً بعيداً في بحر، ولا وصفاً لظاهرة لا تمسك بحياتك؛ إنه الماء الذي يصل إلى فمك. الذي تعرف برودته، وتحس مروره، ويقوم به بدنك.

ثم يردك القرآن إلى فوق: من أنزله من السحاب؟

قد تعرف اليوم شيئاً عن دورة الماء، وقد ترى محطات التنقية والخزانات والأنابيب. وهذه معرفة تزيد مسؤوليتك ولا تنقص معنى الآية. البشر يجمعون ويعالجون وينقلون، ويبدلون علماً وعملاً ينبغي شكره، لكنهم لم ينشئوا أصل الماء، ولم يخلقوا السحاب، ولم يكتبوا للقطرات قانونها، ولم يجعلوا الأرض قابلة للحياة. نحن

نتعامل مع عطية سبقتنا، ونتعلم كيف نحفظها ونوصلها، ثم يقف أصلها أمام قدرتنا شاهداً على افتقارنا.

حتى وجود الماء ليس وحده تمام النعمة. تلفت الآية إلى صفته: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]. قد يكون الماء أمامك ولا تستطيع شربه. تكون النعمة في العذوبة، وفي السلامة، وفي القرب، وفي أن يستجيب الجسد له.

لهذا لا تكون الكأس شيئاً واحداً إذا تأملتْها. وراءها سماء حملت، وأرض تلقت، ومصدر حفظ، وعلم اهتدى إلى التنقية، وعامل قام على الجهاز، وأنبوب لم ينكسر، وطاقة شغلته، وبيت وصل إليه، ومال استطعت به أداء الحق، ويد قبضت على الإناء. ثم وراء كل ذلك فم يفتح، وحلق يبتلع، وبدن ينتفع من غير أن تأمر كل خلية بما تفعل.

إذا شربت ماءً طيباً متاحاً، فاحمد الله على وصوله وسلامته وانتفاع بدنك به. لقد أمدنا الله بأسباب الحياة قبل أن نحسن طلبها، وبقي إحسانه إلينا مع غفلتنا عن كثير منه.

قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. كلمة «بقدر» تمنع العين من رؤية المطر حادثاً منفصلاً عن الحكمة والتدبير. نزول،

وإسكان، وقدرة على الإذهاب. ما نظنه مخزوناً مضموناً قائم في كل لحظة بملك الله.

معرفة حاجتنا إلى الله تدعونا إلى الشكر وحسن التوكل. نحفظ موارد الماء، ونأخذ بأسباب سلامته، ونسأل الله دوام النعمة من غير استرسال في مخاوف لا نعلم وقوعها.

وحين تعرف الماء نعمة، نغير طريقتك في استعماله. الشكر لا يبقى إحساساً جميلاً في أثناء الشرب ثم ينتهي. تغلق الصنبور الذي يجري بلا حاجة. لا تلوث ما يحتاج إليه غيرك. تعين على سقاية من لا يصل إليه الماء المأمون. وتحترم من يعملون كي تبلغ الخدمة بيتك. كلمة الحمد الصادقة تريد أن يظهر أثرها في يدك.

وللماء في حياة المؤمن صحة أخرى. به يتوضأ، فيغسل وجهاً أتعبته ساعات اليوم، ويدين باشرتا أشياء كثيرة، وقدمين حملته في طريقه. لا يطهر الماء القلب وحده ولا يغني عن التوبة، لكنه يدخل في عبادة تكرر، فيصير المورد الذي تقوم به الحياة مورداً تقف به بين يدي الله أيضاً.

كم مرة جرى الماء على أعضاء وضوئك وأنت تفكر في شيء آخر؟ لا يلزم أن يتحول كل وضوء إلى مشهد عاطفي كبير. يكفي أحياناً أن يمر في قلبك معنى واحد: هذا ماء أذن الله أن يصل، وبدن

أذن أن يستعمله، وصلاة أذن أن أدخلها. في لحظة واحدة تجتمع
نعمة الخلق ونعمة الرزق ونعمة الهداية.

وفي حديث صحيح مشهد يجعل الماء البارد واللينة والظل تعود إلى
مكانها الحقيقي. خرج النبي ﷺ ذات يوم، فلقي أبا بكر وعمر رضي
الله عنهما. كان الذي أخرجهم من بيوتهم الجوع. ليس جوعاً
مجازياً ولا ضيقاً عابراً، خرجوا يبحثون عما يدفع الحاجة.

جاؤوا إلى بيت رجل من الأنصار فأحسن ضيافتهم، وقدم لهم
تمرّاً وذبّح لهم، فأكلوا وشربوا. ثم أخبرهم النبي ﷺ أنهم سيُسألون
عن نعيم يومهم ذلك. رواه مسلم (٢٠٣٨). لم يمنع شدة جوعهم
أن يعرفوا نعمة الشبع، ولم تجعلهم ألفة الطعام ينسون شكره.

ربما لو قدّمت لك تلك المائدة في يوم من أيام السعة لقلت: تمر
وماء ولحم، ومضيت. لكن الجوع كشف وزنها. ليست الغاية أن
نجوع حتى نتعلم، ولا أن نطلب المشقة؛ كان النبي ﷺ يسأل ربه
العافية. الغاية أن نستعير من القصة عيناً لا تحتاج إلى الفقد كي
ترى.

الماء البارد الذي شربوه لم يعد مجرد تفصيل جانبي في نهاية رحلة.
صار شاهداً على انتقال كامل من الحاجة إلى الكفاية. وهذا
الانتقال يحدث عندك مرات، وإن كان أصغر: تعطش فتشرب،
تجوع فتأكل، تتعب فتجلس، يشتد حرّك فتدخل الظل. تتكرر

الاستجابة حتى تنسى أن كل حاجة وجدت ما يسدها هي نعمة مستقلة.

هناك من يفتح الصنبور فلا يجد ماء، ومن يحمل حاجته مسافة، ومن لا يأمن ما يشرب. تذكرهم لا ينبغي أن يصنع فيك شعوراً بالتفوق: «أنا أفضل حالاً». يصنع رحمة ومسؤولية. إن رأيت عطشك القديم في عطش غيرك، لم تعد سقايتك تفضلاً من غني على فقير؛ صارت شكراً للماء الذي جرى إليك.

إذا تيسر لك ماء مأمون فاحفظه، وانظر إلى من يحتاج إليه. قد تسهم في سقاية موثوقة، أو تسقي عاملاً، أو تمنع هدرًا. تختلف القدرة، ويجمع هذه الأعمال أن تنتفع بالنعمة في نفع غيرك.

وقد تكون ممن لا يستطيعون شرب الماء بسهولة بسبب مرض أو علاج، أو ممن يقيد الطبيب مقدار ما يشربون. لا نضع الكأس في وجهك كأن التجربة واحدة للجميع. إذا فاتك وجه من النعمة، لم يجز لأحد أن يلومك على ألم الحرمان. وربما كان حمدك في اتباع العلاج، وفي الصبر، وفي الاعتراف بنعمة طبية أو يد تعينك. الكتاب لا يختار لك ما يجب أن تشعر به؛ يفتح أبواب النظر، وأنت أدري بما بقي لك منها.

تأمل كيف تجمع الشربة بين الضعف والكرامة. أنت تحتاج إلى شيء خارجك كي تبقى. لا يصنع جسدك ماءه مستقلاً، ولا يغنيه

كبرياؤه عن قطرة. وفي الوقت نفسه، أكرمك الله بأن سخر لك ما في الأرض، وأعطاك عقلاً يدير الموارد، وشرع لك أن تحمده فيرضى عنك. الحاجة لا تهين العبد حين توصله إلى ربه؛ إنها تعرفه بحقيقته، ثم تعرفه بسعة الكرم الذي يقيمه.

وفي صحيح مسلم (٢٧٣٤) أن الله يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها. فعل صغير يمر في ثوان، ورضا من الله يرجى به. لا يحتاج الأمر إلى سفر بعيد ولا مال كثير. مائدة اليوم، والكأس الذي أمامك، يستطيعان أن يصيرا موضع عبادة.

قول «الحمد لله» ذكر عظيم، وحضور القلب يزيد العبد انتفاعاً به. داوم عليه، واجتهد أن تعرف ما تقول، وأن يصاحبه حفظ النعمة وأداء حقها.

وقد لا تجد ماءً بارداً، وقد لا يكون الكأس كما تحب. الشكر لا يشترط كمال الصورة. إن وجد ماء مأمون يدفع العطش، فهذه نعمة. وإن زاد برده ولذته ويسر وصوله، فهذه وجوه أخرى. وتسمية الموجود لا تمنعك من السعي لتحسين الخدمة أو المطالبة بحقك في مورد آمن؛ الحمد ليس قبولا للإهمال البشري.

حين ترى الشبكة كلها، نتواضع أيضاً أمام كلمة «مالي». دفعت ثمن الماء، نعم، لكن ثمنك لم يخلق السحاب. فاتورتك تسدد عملاً

وخدمة، لا تشتري ملكية الأصل من الله. وما تملكه من الوسائل لا يجعلك مستغنياً عن المطر، وعن الأرض، وعن الناس، وعن السلامة في جسدك.

في الماء تذكير قريب بافتقارنا إلى الله. نحتاجه كل يوم، ولا نملك خلقه، ولا نستغني عن الأسباب التي ييسرها الله لوصوله إلينا.

والماء يعلمك معنى الكفاية أيضاً. لا يحتاج الجسد عند العطش إلى أن تملك النهر كله؛ تكفيه شربة بقدر. ونحن نتعب أحياناً لأننا لا نرى النعمة إلا إذا كانت وفرة لا نهاية لها. نريد ضمان الغد كله قبل أن نحمد قوت اليوم، ونريد أن تمتلئ الخزانة قبل أن نرى الكأس.

ليس في هذا دعوة إلى ترك التخطيط أو الادخار. يوسف عليه السلام خطط لسنوات القحط، وحفظ الأقوات. لكن التخطيط شيء، واشتراط امتلاك المستقبل كي يطمئن القلب شيء آخر. تعمل للغد بما تستطيع، وتشرب رزق الساعة شاكراً. فلا يفسد خوف الجفاف طعم الماء الموجود، ولا تهدر الماء الموجود لأنك نسيت إمكان الجفاف.

وفي القطرة درس عن المساواة في أصل الحاجة. صاحب القصر والعامل الذي يبنيه يحتاجان إلى الماء نفسه. لا تعفي المنزلة أحداً من العطش، ولا يغني النفوذ جسداً عن سنن الله فيه. فإذا

عرفت ضعفك المشترك مع الناس، رق قلبك. لم تعد حاجتهم
خبيراً بعيداً؛ إنها صورتك لو حجب عنك ما وصل.

وقد يقودك هذا إلى دعاء أصدق عند نزول المطر. بدل أن يكون
المطر خلفية لصوت أو صورة، تذكر أرضاً تنتظر، وزرعاً يقوم عليه
رزق أسر، وخزانات تمتلئ، ومخلوقات تشرب. لا تدع أن كل
مطر خير في كل موضع؛ قد يكون في شدته ضرر، ونسأل الله
الغيث النافع. لكنك ترى أن القطرة الواحدة تدخل في قصص
حياة أكثر مما تعرف.

يبقى الماء كما هو، ويزداد انتفاعك بمعرفته نعمة. تشرب فتحمد
الله، وترى عطش غيرك فترحمه؛ فتجتمع لك منفعة البدن وعبادة
القلب والعمل.

وعندما تشكر من أوصل الماء إليك، لا تجعلهم ظلالاً في نهاية
السلسلة. خلف الخدمة مهندسون وفنيون وعمال ونقلة ومن يراقب
السلامة ومن يصلح العطل في ساعة لا تراها. لهم أجور وحقوق
وكرامة. من السهل أن نحمد الله بكلمة ثم نسيء إلى عبد سخره الله
لنا؛ لكن المعرفة الصادقة تصلح الاتجاهين: ترد أصل الفضل إلى
الخالق، وتحفظ حق المخلوق.

وقد ترى عاملاً يقف في حر شديد قرب أبواب مكسور، بينما لا
تعرف أنت بالعطل إلا من رسالة قصيرة. هنا تصبح النعمة مرآة

للأمانة الاجتماعية. ليس العدل أن يتمتع الأقوى بالماء ويترك الأضعف في آخر الشبكة، ولا أن تُهدر موارد عامة لأن الفاتورة لا تصل إلى المسرف وحده. العبادة التي تبدأ عند الكأس تتسع إلى سياسة قلب: لا أرضى أن أحفظ راحتي على حساب عطش غيري.

ولا يلزم أن تملك مشروعاً كبيراً. الإصلاح يبدأ من مقدارك: تسدد ما عليك، تبلغ عن تسرب، تعلم طفلاً ألا يترك الماء يجري عبثاً، وتدعو لمن سقى. الأعمال الصغيرة لا تحل وحدها كل مشكلات الماء، لكنها تمنعك من أن تكون واعظاً بالنعمة وغافلاً عن حقها.

في شربتك القادمة، سمّ الله قبلها، واحمده بعدها. ثم احفظ ما بين يديك من الإسراف، وتذكر من لا يجد مثل ما وجدت. هكذا يصحب الشكر الحاجة اليومية التي تتكرر، من غير تكلف ولا انتظار لمناسبة كبيرة.

الفصل الرابع

ما حماك ولم تعرفه

نعرف النعمة حين تصل في صورة مال أو دواء أو عون. أما السلامة التي تستمر فقد لا نلتفت إليها؛ لأنها لم تغير شيئاً اعتدناهُ. وعودتك سالماً، وبقاء السر عليك، والعافية التي تمتعت بها، كلها مما تحمد الله عليه وإن لم يكن لها خبر تحكيه.

ربما عدت إلى البيت مئة مرة ولم يقع حادث. لا نتذكر الرحلات المئة؛ نتذكر ازدحامها. وربما أكلت أعواماً ولم تؤذك لقمة، واستيقظت صباحات متتابعة ولم تجد خبراً يفجعك، وتكلمت في مجالس كثيرة ثم سترك الله من زلة كانت تفضحك. ليست كل هذه التفاصيل دليلاً على منزلة خاصة عند الله، ولا نعرف خفاياها واحدة واحدة، لكنها تدخل في المعنى العام للسلامة والعافية والحفظ الذي لا نستقل به.

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ظاهرة تصل إلى الحس، وباطنة لا تقع عليها العين على الوجه نفسه. وقد تنوع كلام المفسرين في أمثلتها، ويبقى اللفظ واسعاً يذكرنا أن حدود إدراكنا ليست حدود العطاء.

نؤمن بسعة علم الله وحكمته، ونعلم أن من نعمه ما لا نحيط به. لكننا لا نجزم بالحكمة الخاصة لكل واقعة. قد تُرْفَض في وظيفة لتقصير يحتاج إلى إصلاح، أو لظلم يحتاج إلى دفع، أو لأمر لا تعرفه. لا تقل عن غير علم إن الرفض كان حتماً لحماية من شر معين.

تستطيع أن تحسن الظن بالله مع قولك: لا أعلم. راجع السبب، واستشر، وابذل ما تستطيع، ولا تجعل جهل الحكمة مدخلاً للاعتراض على ربك. ما خفي عليك لم يخف على العليم الحكيم.

هذا المعنى يلمع في قصة موسى مع العبد الصالح: رأى خرقاً يهدد سفينة مساكين، ثم كشف الله في آخر الصبح أن وراءهم ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً، وأن العيب أبقى لهم أصل رزقهم. موسى رأى جزءاً صحيحاً من المشهد، لكنه لم ير المشهد كله.

لا تمنحنا القصة حق تفسير كل كسر، ولا تقول إن كل أذى حماية نعرف نوعها. إنها تعلمنا تواضعاً أهدأ: ما تراه حقيقي، لكنه ليس بالضرورة كل الحقيقة. وقد يكون ما أصابك ظلماً يجب دفعه، أو خطأ يجب إصلاحه، أو أمراً لا تعرف عاقبته. سنعود إلى السفينة في موضع الألم عودة أوسع؛ أما الذي يكفيننا هنا فهو أن حدود رؤيتنا ليست حدود علم الله.

بينك وبين ما يضرّك حجب كثيرة لا تفكر فيها. في جسدك أنظمة دفاع تعمل بغير إذنك. في مجتمعك أناس يسهرون على علاج وماء وطريق وأمن. في بيتك قفل يبدو صغيراً، وفي هاتفك تنبيه منعك من إرسال كلمة قبل مراجعتها، وفي قلب شخص مودة حملته على أن ينصحك قبل أن تتأدى. كل ذلك أسباب، والله هو الذي خلق الأسباب وأقدر أصحابها.

وشكر الحماية الظاهرة أن تحفظ هذه الحجب. تراجع طبيبك عند الحاجة، وتلتزم قواعد السلامة، وتحسن اختيار من تثق به، وتغلق الباب، وتصون خصوصيتك، ولا تلقي بنفسك في الضرر ثم تسمي التهور توكلاً. الذي يؤمن بحفظ الله لا يحتقر الوسائل التي جعلها الله سبباً للحفظ.

أما الحماية التي لم تعرفها، فشكرها تواضع عام. تقول: يا رب، لك الحمد على ما علمت من عافيتك وما لم أعلم. لا تدعي عددها ولا تفاصيلها. يكفي أن تعترف أن إحسانه لم يبدأ حين انتبهت إليه.

وقد نخسر هذا المعنى بسبب وهم بسيط: نظن أن النعمة لا بد أن تجعل حياتنا سهلة تماماً. فإذا وقع مكروه قلنا: أين الحفظ؟ كأن الحفظ لا يكون إلا بمنع كل ألم، وكأن الدنيا دار لا يدخلها نقص.

لكن أصحاب السفينة لم يُعطوا مَرَجًا بلا خدش؛ حُفظ لهم المركب عبر خدش. ويعقوب لم يُحفظ من الحزن كله؛ حُفظ له رجاؤه داخل الحزن. والنبي ﷺ لم يعيش بلا جوع؛ جاءت الضيافة بعده. صور الحفظ متعددة، ولا نملك أن نطالب الدنيا بصورة واحدة منها.

ثم إن أعظم ما ينبغي أن نسأل حفظه ليس ممتلكاتنا وحدها. قد يُحفظ المال ويضيع القلب، وتستقيم السمعة ويضيع الصدق، ويبقى البدن قوياً ويستعمل قوته في المعصية. لذلك كان من دعاء المؤمن أن يسأل الثبات والهداية والعافية في الدين والدنيا. نعمة أن يصرف الله عنك ذنباً كنت قادراً عليه، أو يوقظ فيك ندماً قبل أن يقسو القلب، أو يرسل إليك كلمة حق في اللحظة التي كنت تبرر فيها لنفسك.

لا يعني ذلك أن كل مرة لم تقع فيها المعصية علامة على مقامك. قد يكون عجزاً أو خوفاً أو صرفاً، وفي كل حال أنت محتاج إلى الله. إن عصمت فلا تعجب، وإن زلت فلا تيأس؛ تب، واستدرك، واعرف أن باب الرجوع نفسه لون من الحفظ.

تأمل ستر الله. كم من فكرة سيئة لم تتحول إلى قول، وكم من قول تاب صاحبه منه ولم ينتشر، وكم من خطأ أصلحه قبل أن يصير هوية يطارد به الناس. الستر ليس إذناً للاستمرار؛ من شكره أن

نتوب في الخفاء الذي سترك الله فيه، لا أن تتخذ الستر دليل رضا عن الذنب.

وهناك حفظ يصل إليك على هيئة حدود لم تحبها: نصيحة أوقفك، ونظام منعك، ورفض واضح من شخص حكيم، ووقت لم يسع خطتك المتعجلة. نستطيع أن نرى أثر بعض هذه الحدود بالتجربة، من غير أن ننسب إلى الله تفسيراً خاصاً بلا دليل. حين يظهر لك بعد زمن أن نصيحة جنبتك خطأ، احمد الله واشكر الناصح. وحين لا يظهر شيء، فلا تركب حكاية مريحة ثم تسميها يقيناً.

وقد لا يظهر لك وجه الحكمة في الدنيا. قصة موسى والخضر انتهت ببيان ما خفي عن موسى، ولا يلزم أن يقع لنا مثل ذلك البيان في كل حادثة. تؤمن بما أخبر الله به، ونعمل بما كلفنا، وندع ما لا نعلمه. ومن ذلك ألا نترك أسباب السلامة المعلومة انتظاراً لتفسير غيبي لما وقع.

وقد تحتاج في بعض الأيام إلى أن تتأمل الحفظ المعلوم بدل الغيب البعيد. لا تقل: ماذا منع الله عني ولا أعرف؟ ثم ترهق نفسك بالاحتمالات. انظر إلى شيء واضح: مرض عوفيت منه، ومشكلة انتهت، وطريق وصلت منه، وموقف كاد يتفاقم ثم هدأ، ومعصية تاب الله عليك منها. ذاكرة النجاة تربي القلب على الحمد، بشرط ألا تتحول إلى ضمان ألا يصيبه شيء بعد ذلك.

وفي الدعاء الذي لم تر إجابته بالصورة التي أردت مساحة لهذا الأدب أيضاً. ربما دعوت بأمر ثم لم يقع. لا تقل جازماً: لا بد أن الله منعني منه لأنه شر، فأنت لا تعلم حكمه الخاص. ولا تقل: إذن لم يسمع دعائي. قد أمر الله بالدعاء ووعد بالإجابة، لكنك لا تملك أن تفرض للإجابة صورة وموعداً من عندك. يبقى عليك أن تسأل، وأن تتحرى الحلال، وأن تحسن الظن، وأن تقبل أنك لا تملك سجل الغيب.

ليس مطلوباً منك أن تجد جواباً لكل خسارة. حسبك أن الله لا يظلم أحداً، وأن علمه محيط، وأن حكمته لا تتوقف على فهمنا لها. قد تبقى أسئلة لا تعرف جوابها، وتستطيع مع ذلك أن تقوم بعبادتك وتأخذ بأسباب صلاح يومك.

لكن احذر أن يستعمل أحد هذا الغيب لإسكاتك عن حق ظاهر. إذا أخطأ طبيب، أو ظلم مسؤول، أو اعتدى قريب، فلا يصح أن يقال لك: ربما هذا خير خفي فاسكت. قصة السفينة لم تبرئ الملك الغاصب، بل سمته بما هو عليه. الإيمان بالحكمة يرافق العدل، ولا يلغيه.

ومن شكر العافية أن تعين على سلامة غيرك: بإتقان عملك، أو نصيحة صادقة، أو إزالة أذى. لا يشترط أن تعرف كل ثمرة

لعمرك حتى تحسن؛ يكفي أن تفعل الخير المشروع وترجو ثواب الله.

نحن نحمد على العافية، ونسأل دوامها، ونعلم أننا مبتلون. لا يعقد الحمد صفقة مع القدر تقول: سأشكر كيلا أفقد. الشكر عبادة في الحضور، لا وسيلة للسيطرة على المستقبل. والله وعد بالزيادة في قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، لكننا لا نحصر الزيادة في الصورة التي نختارها، ولا نلغي سنن الابتلاء.

إذا أردت أن تفتح باب هذه النعم الخفية، فابدأ بدعاء لا بادعاء. قل: اللهم لك الحمد على ما حفظت مما أعلم، وما صرفت مما لا أعلم، واحفظ علي ديني وقلبي ومن أحب، وألهمني الأخذ بالأسباب التي ترضيك.

ثم اختر سبباً واحداً للحفظ كنت تؤجله: موعداً طيباً، أو إصلاحاً في البيت، أو مصارحة أمانة، أو توبة من باب يعود بك إلى الضرر. اجعل حمدك حركة نحو السلامة، لا مجرد دهشة بما لا ترى.

وحين لا تعرف وجه ما جرى، فقل: الله أعلم، وأسأله أن يهديني لما ينفعني. لا تشغل نفسك بتأليف جواب لم يدل عليه دليل.

الفصل الخامس

قلها هذه المرة بقلبك

نقول «الحمد لله» كثيراً: في الصلاة، وبعد الطعام، وعند السؤال عن حالنا. ومن رحمة الله بنا أن يَسِّرَ لنا هذا الذكر الجامع. والمطلوب أن نتعلم معناه، ونجتهد في حضور القلب حين نقوله.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الفاتحة: ٢]

تأتي في مطلع السورة التي لا تستقيم الصلاة من غير قراءتها. قبل الطلب، وقبل قولك ﴿اهْدِنَا﴾ [الفاتحة: ٦]، وقبل أن تسمي الطريق الذي ترجوه، نتعلم أين تقف: أمام رب يستحق الحمد.

تخيل أنك تدخل الصلاة وفي رأسك قائمة كاملة. مال تحتاجه، وقرار تخافه، وشخص تريد له الشفاء، وذنب تريد أن يغفر، وطريق لا تعرف أي جانبيه تختار. كل هذه الحاجات حقيقية، وليس في حملها إلى الصلاة حرج. لكن الفاتحة لا تبدأ بقائمتك؛ تبدأ بالله.

وهذه البداية لا تهمل حاجتك، بل تضعها في مكان آمن. الذي ستسأله ليس قوة مبهمة، ولا باباً قد يضيق بك. هو الله، رب

العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. حين تعرف من تسأل،
تغير هيئة السؤال، حتى إن بقيت الكلمات هي الكلمات.

الحمد ثناء. ليس مجرد خبر بأنك حصلت على شيء تحبه، بل
اعتراف بكمال الله وإحسانه مع محبة وتعظيم. أنت تحمده لأنه
الرحمن، ولأنه الحكيم، ولأنه الخالق الرازق الهادي؛ وتحمده على ما
أفاض عليك من نعم. لذلك يبقى الحمد أوسع من مزاجك في هذه
الساعة. قد تضيق بك الدنيا، ولا ينقص من كمال الله شيء. وقد
تأخر نعمة تطلبها، وتظل نعمه الأخرى قائمة، ويظل هو المستحق
للثناء.

ليس معنى ذلك أن تقول عن الألم إنه جميل إن لم يكن كذلك،
أو أن تحمد الظلم من جهة كونه ظلمًا. تقول: الحمد لله على كماله،
وعلى هدايته، وعلى ما بقي من إحسانه، وعلى ما وعد به الصابرين؛
وتسأله أن يرفع الضر وينصر المظلوم. الحمد لا يغير أسماء الأشياء
كي يحمي إيماننا. إنه يمنع الأشياء المؤلمة من أن تغير معرفتنا بالله بلا
علم.

في قولنا «لله» إقرار بأنه المستحق للحماد. نشكر الطبيب على
إحسانه، والمعلم على تعليمه، والصاحب على وفائه، ونعلم أن الله
خالقهم ورازقهم وميسر أسباب الخير على أيديهم. فلا نبخس
الناس حقوقهم، ولا نغفل عن المنعم سبحانه.

ويحرك كذلك من العجب. حين تنجح بعد عمل طويل، تستطيع أن تعترف بتعبك من غير أن تجعل نفسك خالق النتيجة. تقول: اجتهدت، وأخطأت وتعلبت، وساعدني أناس، ثم فتح الله. الحمد لا يحو كسبك؛ يحو وهم استقلالك.

كم مرة كان بينك وبين النتيجة أمر لم تملكه؟ لقاء جاء في وقته، وصحة استمرت، وفكرة حضرت، وخطأ لم يفسد المشروع، وقلب إنسان قبل. إذا قلت «الحمد لله»، لم تعد واقفاً وحدك أمام مرآة الإنجاز. ترى يدك، ثم ترى من أقدر اليد.

وفي الوقت نفسه، تمنعك الكلمة من التحقير الكاذب لنفسك. لا يلزم أن تقول: لم أفعل شيئاً، إذا فعلت. التواضع ليس كذباً. قل: فعلت بما أعطاني الله، وعليّ مسؤولية ما فعلت، والفضل المحيط لله. هكذا يبقى الجهد، ويسقط الكبر.

ثم تقول: «رب العالمين».

الله رب العالمين: خالقهم ومالكهم ومدير أمرهم. يعلم حاجتك، ويسمع دعائك، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. حين تقرأ هذه الآية، استحضر افتقارك إليه وثقتك بعلمه ورحمته.

والربوبية تذكر أن العطاء ليس لحظة الوصول وحدها. ربّاك الله عبر مراحل لم تخترها: في رحم أمك، ثم في ضعف طفولتك، ثم

علمك حرفاً بعد حرف، وأطعمك قبل أن تعرف اسم الطعام، وهياً لك أناساً يحملونك قبل أن تحمل نفسك. كثير من فضل الله وقع لك حين لم تكن تملك حتى أن تقول الحمد لله.

رب العالمين هو ربك قبل أن تعي، وفي نومك حين ينقطع تدبيرك الواعي، وفي مرضك حين يقل ما تستطيع، وفي شيخوختك إن امتد بك العمر. لا تقوم صلتك به على مقدار إنتاجك. أنت عبده في القوة والضعف، وهو ربك في الحالين.

ثم تأتي بعدها: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]. كأن الحمد يفتح نافذة الرجاء قبل أن يصل بك إلى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. رحمة وعدل، رجاء ومسؤولية. لا يتركك القرآن لوحشة الخوف وحده، ولا لأماني الأمن بلا عمل. تعرف رحمته فتعود، وتعرف يوم الدين فتستقيم.

وفي حديث الفاتحة القدسي خبر عظيم عن فضل قراءتها وحمد الله بها؛ رواه مسلم (٣٩٥). حين تقرأ، تذكر أن ربك يسمعك ويعلم حالك. وإذا وجدت من نفسك شروداً، فعد إلى تدبر ما تقول، واستعن بالله على حضور قلبك.

لهذا قد تكون أقرب طريقة إلى إحياء «الحمد لله» ألا تكثر شرحها في لحظة الصلاة، بل أن تمهلها زمناً يكفي لحضورك. لا تمد الكلمة تكلفاً، ولا تصنع خشوعاً يراك به الناس. فقط لا تسبق نفسك.

حين تقول «الحمد»، دع في قلبك شيئاً واحداً تحمد عليه، أو صفة واحدة تعرفها من ربك. وحين تقول «الله»، رد الفضل. وحين تقول «رب العالمين»، اخرج من ضيق تدبيرك إلى سعة ملكه.

قد لا تشعر بشيء استثنائي. حضور القلب لا يقاس بقشعيرة ولا دمعة. ربما يكون أصدق ما حدث أنك عرفت معنى الآية ثانية واحدة، ثم شردت. عد في الركعة التالية. الله الذي شرع لك تكرار الفاتحة يعلم أنك نتعلم بالعودة.

وهناك فرق بين الحمد والشكر يفيد القلب من غير أن يحول الصفحة إلى درس مصطلحات. تحمد الله على كماله وعلى إحسانه، ويكون الشكر جواباً للنعمة بالقلب واللسان والعمل. قد تقول «الحمد لله» عند الماء، فيجتمع في الكلمة ثناء وشكر؛ ثم يصدقها عملك حين لا تسرف وتسقي محتاجاً. وقد تحمد الله لأنه الحكيم، وإن لم تفهم الآن حكمة ما وقع لك.

يبقى الله مستحقاً للحمد في كل حال. تحمده على كماله، وعلى نعمه التي عرقها، وتؤمن بحكمته فيما لم تعرف. ثم تسأله حاجتك، وترجو فضله، وتأخذ بما شرع لك من الأسباب.

رفع النبي ﷺ رأسه من الركوع فقال: «سمع الله لمن حمده»، فقال رجل خلفه: «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه». وبعد الصلاة أخبر النبي ﷺ أنه رأى بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم

يكتبها أول. رواه البخاري (٧٩٩). هذا فضل عظيم لصيغة ثبت إقرارها في الصلاة. نتعلّمها ونحفظها، ونعلم أن الذكر الذي لا يلتفت إليه الناس قد يكون عظيماً عند الله.

غير أن حضور القلب لا يعني أن تبحث كل مرة عن عبارة طويلة. قد تكون «الحمد لله» وحدها أصدق وأجمع. الثناء ليس مسابقة بلاغة. الله يعلم ما في القلب قبل أن يكتمل اللفظ. تعلّم المأثور، وقل ما صح معناه، ولا تجعل رغبتك في الجمال اللفظي تدفعك إلى مبالغات أو ألفاظ لا تعرف معناها.

قلها عند النعمة المحددة. لا تكتفِ أحياناً بالحمد العام إذا كان التحديد يوقظك. بعد مكالمة أسعدتك قل: الحمد لله الذي أبقي المودة. بعد نوم مريح قل: الحمد لله الذي أراح جسدي. بعد فهم آية قل: الحمد لله الذي فتح لي منها معنى. لا تجعل الصياغة ورداً جديداً تنسبه إلى السنة؛ هي حديث قلب مباح يربط العطية بالواهب.

وقلها كذلك حين تنكشف لك نعمة قديمة. ربما نتذكر بعد سنوات معلماً صبر عليك، أو ترى اليوم كم حماك قرار والدك، أو تفهم فضل شخص كنت تأخذه كأمر مضمون. الحمد لا يفوته الموعد؛ تستطيع أن ترد الفضل إلى الله الآن، ثم تصل إلى الإنسان بكلمة وفاء إن أمكن.

وماذا لو قتلها ولسانك حاضر وقلبك غائب؟

لا تترك الذكر إذا وجدت من نفسك غفلة، بل داوم واجتهد في فهمه. استحضر نعمة عند الطعام أو الشرب، واقرأ الفاتحة بطمأنينة في صلاتك، وسل الله أن يعينك على ذكره وشكره.

وإذا قتلها وأنت متألم، فلا تُكره نفسك على الفرح. قلها من باب آخر: يا رب، لك الحمد لأنك تسمعي، ولك الحمد على نعمة أستطيع رؤيتها، ولك الحمد على كمالك الذي لا تنقصه حيرتي. ثم أسأله ما تريد. الفاتحة نفسها تنتقل من الحمد إلى الاستعانة ثم إلى الطلب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥٦ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥٧﴾ [الفاتحة: ٥-٦].

لم تعلمنا أن الثناء يغلق الفم عن السؤال. علمتنا أن الثناء يهيئ السؤال.

أنت تحمد، ثم تستعين. تعرف نعمته، ثم تعترف بحاجتك. تسمي رحمته، ثم تطلب الهداية. ليست العبودية أن تختار بين الامتنان والافتقار، أنت شاكر وفقير في اللحظة نفسها.

ومن أعظم ما تشكر الله عليه أنه هداك لمعرفة هذه الكلمة ومعناها، وعلمك كيف تعبد. فإذا قلت «الحمد لله رب العالمين» فاجمع بين الثناء والافتقار، ثم أكل صلاتك مطمئناً، واسأل الله ما ينفعك.

دعاء الباب الأول

اللهم إن ألسنتنا تكرر الحمد وقلوبنا تقصر عن مداه، فعرّفنا من نعمك ما يوقظ محبتنا، ومن أسمائك ما يملأ تعظيمنا، وأعنا أن نقولها بصدق:

لك الحمد، لأنك أنت الله. ولك الحمد على ما أعطيت. ولك الحمد الذي نهدي به إليك حين لا نفهم الطريق.

الباب الثاني الحمد لله بأسمائه وصفاته

قبل أن تطلب شيئاً

من آداب الدعاء أن تبدأ بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على نبيه ﷺ، ثم تسأل حاجتك. وليس ذلك شرطاً يمنع المضطر من أن يدعو ربه فوراً، فقد يأتي الدعاء قصيراً في شدة الخوف، والله يعلم حال صاحبه ويسمعه.

والثناء يعين القلب على استحضار عظمة من يسأله. قد تنتظر نتيجة فحس أو تخشى على ولدك، فتقول: الحمد لله، ربي عليم رحيم، وهو القادر على كشف ضري. تبقى الحاجة حاضرة، ويصحبها افتقار إلى الله ورجاء لفضله. وفي الفاتحة تعلمنا أن نبدأ بالحمد والثناء، ثم نقر بالعبادة والاستعانة، ثم نسأل الهداية.

أنت لا تسأل قوة غامضة، ولا ترفع حاجتك إلى جهة لا تعرفك. أنت تسأل الله: الحي الذي لا يموت، القيوم الذي تقوم به السماوات والأرض، السميع الذي لم يغب عنه اضطراب صوتك، العليم الذي عرف حاجتك قبل أن تعرف كيف تصوغها، الرحيم الذي لم تبدأ رحمته عند أول دمعة منك، والحكيم الذي لا يضع شيئاً عبثاً.

لهذا علمنا الله في الفاتحة ترتيباً يربّي القلب كلما صلى. تبدأ السورة:

قبل أن تطلب شيئاً

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿مَالِكِ يَوْمِ
الدِّينِ﴾

[الفاتحة: ٢-٤]

ثم تقول:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
[الفاتحة: ٥]

ثم يأتي السؤال:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
[الفاتحة: ٦]

حمد، وثناء، وإقرار بالعبودية والاستعانة، ثم دعاء. لم يبدأ العبد بقائمة ما ينقصه؛ بدأ بمن لا نقص فيه. ولم يدخل من ضيق يومه؛ دخل من سعة ربوبية الله ورحمته وملكه. وحين وصل إلى حاجته الكبرى — الهداية — كان قلبه قد عرف جهة الطلب، وعرف نفسه: عبد يعبد ويستعين، لا صاحب حق يطالب رب العالمين بشئ عمله.

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سألت». وفي الحديث أن العبد إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله تعالى: «حمدني

عبدى»، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الله تعالى: «أثنى علي عبدى»، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال: «مجدني عبدى». رواه مسلم (٣٩٥).

نؤمن بهذا الخبر كما جاء عن رسول الله ﷺ. وحين تقرأ الفاتحة، تذكر فضل هذه المناجاة، واجتهد في فهم ما تقول. توفيقك للصلاة والدعاء نعمة تشكر الله عليها قبل أن ترى ما سألت من أمور الدنيا.

أحياناً ندعو كأن الإجابة وحدها هي الرحمة، وننسى أن الدعاء نفسه رحمة.

علمنا الله في الفاتحة أن نسأله الهداية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. نحتاج إليها في الغنى والفقر، وفي المرض والعافية، وفي الفرح والحزن. نسأله أن يهدينا لما يرضيه في كل حال، وأن يعيننا على شكر النعمة والصبر على البلاء.

ربما ألححت سنوات في باب ثم تغيرت أنت، فعرفت أن سؤالك القديم كان أصغر من حاجتك. وربما جاءك ما طلبت فاكتشفت أن امتلاكه لا يعفيك من الخوف، وأن القلب يستطيع أن يكون فقيراً وهو محاط بما كان يتمناه. لذلك لا يزاحم طلب الهداية سائر حاجاتك؛ يحملها ويقومها. قل: يا رب، ارزقني، واهدني في رزقي. اشفني، واهدني في مرضي وعافيتي. أصلح علاقتي، واهدني إلى

الحق والعدل فيها. افتح لي، ولا تجعل الباب المفتوح يبعدني عنك.

ما أرحم الله إذ يعلمك أن تطلب ما لا تدرك بعد مقدار افتقارك إليه.

أن تعرف إلى من ترفع خوفك رحمة. أن يكون لك رب لا تختلط عليه الأصوات رحمة. أن تستطيع أن تقول ما عجزت عن قوله للناس رحمة. أن تضع جبهتك على الأرض، فلا تحتاج إلى موعد ولا واسطة ولا شرح طويل، رحمة. قد يأتي المطلوب في الوقت والصورة اللذين ترجوهما، وقد يأتي على غير ذلك، لكن باب العبودية الذي فتح لك ليس أمراً صغيراً ينتظر قيمةً من نتيجة الدنيا.

الحمد قبل السؤال يطهر السؤال من وهمين.

يطهره أولاً من وهم الاستحقاق. فربما يدخل المرء دعاءه وفي نفسه — من حيث لا يشعر — أنه فعل أشياء كثيرة، وأنه يستحق لذلك صورة بعينها من العطاء. فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] تذكر أن الطاعة نفسها توفيق، وأن اللسان الذي دعا نعمة، والقلب الذي اهتدى إلى الله نعمة، والوقت الذي بقي له ليعود نعمة. لا يعني هذا أن يترك حسن ظنه أو أن

يستكثر حاجته على الكريم، بل أن يسأل سؤال المفتقر الواثق، لا سؤال من يظن أنه ألزم الله بشيء لم يلزم به نفسه.

والحمد عبادة لله، فلا نعلقه بشرط أن يعطينا ما اخترنا في وقت اخترناه. نحمده ونسأله، ونرجو فضله مع علمنا أنه الغني عنا. والطاعة نفسها من توفيقه؛ فلا نمن بها عليه ولا نستحق بها عطاء خارج ما وعد.

وليس معنى هذا أن تستوي عندك العافية والمرض، أو اللقاء والفقد، أو السعة والضيق من جهة شعورك. لقد خلق الله فينا محبة العافية والنفور من الألم، وشرع لنا الدعاء والتداوي والسعي ودفع الظلم. يجوز لك أن تلج، وأن تبكي، وأن تكرر الحاجة، وأن تقول: يا رب، طال علي الأمر. العبودية لا تطلب منك قلباً من حجر. لكنها تعلمك أن ألمك، مهما اشتد، لا ينزع عن ربك كماله، وأن جهلك بما وراء اللحظة لا يجعلك حكماً على الحكيم العليم.

دعا إبراهيم عليه السلام لذريته بالأمن والرزق وإقامة الصلاة. وفي دعائه الذي قصه الله في سورة إبراهيم جمع بين ذكر نعمة سبقت وسؤال خير يرجوه. قال تعالى حكاية عن إبراهيم:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

[إبراهيم: ٣٩]

ذكر إبراهيم هبة إسماعيل وإسحاق في الكبر، وحمد الله عليها، وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء. وفي الآية التالية دعا بإقامة الصلاة له ولذريته وقبول الدعاء. فمن شكر نعمة الأهل أن نسأل لهم صلاح الدين، وأن نقوم بحقهم.

الحمد هنا بين عطاء مضى ودعاء يتجدد. وفي ترتيب الآيات تنتقل من ذكر الهبة إلى سؤال إقامة الصلاة وقبول الدعاء والمغفرة. فالعطية لا تنهي افتقار العبد؛ بل تفتح له باباً إلى شكرها وطلب العون على عبادة الله بها.

ليست قصة إبراهيم وعداً لكل من تأخر عنه ولد أن يعطى الصورة نفسها، ولا قانوناً يحدد زمن الإجابة. هي خبر صادق عن نبي كريم، يعلمنا أدباً لا يتغير: أن نسمي النعمة حين تأتي، وأن نردها إلى واهبها، وأن نعرف أن أعظم ما نطلبه بعد العطاء أن يعيننا الله على عبادته به.

وفي دعائه صورة للقلب الذي لا يحصر نعمته في نفسه. سأل لبلد، ولذرية، ولأفئدة من الناس، ولرزق يعين على الشكر، ثم وسّع الدعاء حتى قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. يبدأ الإنسان غالباً من وجعه الخاص، وهذا طبيعي، لكن معرفته بالله توسّع دعاءه. يتذكر في غرفة الانتظار مرضى لا يعرف أسماءهم. وإذا خاف على ولده دعا

لأولاد المسلمين. وإذا طلب رزقاً تذكر مديناً آخر. لا لأن أمله ذاب، بل لأن العبودية أخرجه لحظة من سجن الذات.

الدعاء الذي يبدأ بحمد الله يستطيع أن يبقى شخصياً من غير أن يكون أناً. تقول حاجتك بكل صدق، ثم تترك في قلبك موضعاً لعباد آخرين يتقبلون في الفقر نفسه. ولعل من ثمرات هذا الاتساع أن يلين قلبك: لا تعود ترى نعمة غيرك خصماً من نصيبك، ولا إجابة دعائه إهمالاً لك. خزائن الله لا يزاحم فيها عبد عبداً، وفضله لا ينقص إذا وصل إلى بيت قبل بيتك.

كم يضيق القلب حين يقيس رحمة الله بطابور من صنع خياله: أعطي فلان قبلي، إذن أنا منسي. تزوجت فلانة، إذن بابي أغلق. شفي غيري، إذن دعائي لم يسمع. الحمد يردك إلى رب العالمين، لا رب قصتك وحدها. يعطي بحكمة، ويبتلي بحكمة، ولا ينفد ما عنده، ولا تكون نعمة أخيك حجة على منزلتك عنده.

قد تسأل مآلاً، فإذا جاءك صار السؤال: كيف تكسبه وتنفقه في رضاه؟ وقد تسأل ولداً، فإذا جاء صار الدعاء أن يصلحه الله وأن يعينك على أماته. وقد تسأل علماً، فإذا فُتح لك باب خفت من الكبر والقول بغير علم وسألت القبول. العطية لا تنهي الافتقار؛ إنها تكشف طبقة جديدة منه.

ومن هنا يتغير معنى «قبل أن تطلب شيئاً». ليس المطلوب أن تؤجل السؤال حتى تصنع حالة وجدانية مثالية. ربما لا تملك إلا كلمات متقطعة. وربما يسبق بكأوك حمدك. المقصود أن تفتح في قلبك نافذة، ولو صغيرة، ترى منها مَنْ تسأل. قل من الشاء ما تعرف معناه، لا ما يطول لفظه ويغيب قلبك عنه.

قل: الحمد لله رب العالمين. أنت ربي وأنا عبدك. أنت السميع وأنا الذي ضاقت عبارته. أنت العليم وأنا الذي لا يرى إلا بعض الطريق. أنت الرحيم وأنا الذي يرجو رحمتك. أنت الحكيم وأنا الذي يسأل ولا يحيط.

ثم اطلب.

وإن باغتك الخوف فلم تجد هذه المقدمة، فلا تظن أن باب الله يحتاج ترتيباً لا تملكه. الغريق لا يؤجل «يا رب» حتى يحسن الشاء، والمفجوع قد لا يخرج منه أولاً إلا الاسترجاع أو البكاء. الحمد أدب يوسع الدعاء، وليس حاجزاً بين المضطر وربه. الله يسمع النداء القصير كما يسمع المناجاة الطويلة، ويعلم صدق القلب حين تتبعثر الكلمات.

وقد جمع دعاء يونس عليه السلام في الظلمات معاني عظيمة في كلمات قليلة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. توحيد، وتنزيه، واعتراف. لم يشرح

تفاصيل الكرب، ومن يسمعه يعلمها. وحين يشتد بك الأمر تستطيع أن تتعلم من هذا الصدق: تعظم ربك، وتبرئه من الظلم والنقص، وتنتظر في تقصيرك من غير أن تنسب كل بلاء إلى ذنب بعينه بلا دليل.

بعض الناس يظن أن جودة الدعاء في كثرة ألفاظه، فينشغل أثناء المناجاة بمراقبة عبارته. لكن المقصود ليس أن تسمع نفسك كلاماً جميلاً؛ المقصود أن تعبد الله بقلب حاضر ولسان صادق. دعاء واحد تفهمه وتلح به قد يكون أنفع لقلبك من صفحات تمر على فمك وأنت غائب. تعلم المأثور، واحفظ منه ما تستطيع، ثم لا تحتقر قولك البسيط: يا رب، أعني.

اطلب حاجتك باسمها. لا تتصنع الزهد فيها إن كانت مشروعة. قل: يا رب، اشفني؛ فالمرض موجه. يا رب، أصلح ولدي؛ فإن خوفي عليه يطيل ليلي. يا رب، اقض ديني؛ فقد ضاق صدري به. يا رب، اكشف الظلم وأعني على دفعه بالحق. يا رب، ارزقني من فضلك. الدعاء الصادق لا يحتاج أن يخفي فقره كي يكون مؤدباً؛ أدبه أن يعترف بالفقر ولا يسيء الظن بمن يسأله.

ثم اترك لله اختيار الإجابة، ولا تترك أنت العبادة والعمل. راجع الطبيب، وابحث عن العمل، واطلب حقك، واستشر من تثق بدينه وعلمه، واعتذر إن كان في المشكلة خطأك. الحمد لا يعطل

يدك؛ يعطيها وجهة. والتوكل لا يلغي السبب؛ ينقذ قلبك من عبوديته.

وقد تمر أيام تقول فيها الحمد وقلبك ثقیل. لا تتم عبادتك بالزيف؛ فالقلوب ثقیل. جاهد أن تفهم ما تقول، واستعن بالله على حضور قلبك، ولا تنتظر انفعالاً قوياً لتبدأ.

الحمد ليس انفعالاً فقط. هو معرفة ثابتة يحملها القلب حين ترتفع المشاعر وحين تهدأ.

ولو لم تجد قبل سؤال طويل إلا جملة واحدة، فالفاتحة قد علمتك الجملة الجامعة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. فيها أن المحامد له، وأنت لست وحدك، وأن من تدعوه ربك ورب كل عالم، وأن حاجتك واقعة في ملكه، لا خارجة عن علمه وقدرته.

قبل أن تسأل حاجتك، اثن على الله بما تعرف من محامده، وصل على نبيه ﷺ، ثم ادع بما ينفعك. وإن اشتدت بك ضرورة فادعه في حينها، ولا تؤخر سؤاله لتكلف عبارة طويلة.

يا رب، لك الحمد قبل حاجتي، ولك الحمد وأنا أرفعها، ولك الحمد بعد كل ما تختاره بعلمك وحكمتك. أسألك من فضلك، وأستعين بك على فقري، ولا غنى لي عنك طرفة عين.

الفصل السابع

سعة رحمة الله

قد يشتد خوف الإنسان من ذنبه حتى يظن أنه لا يستطيع العودة. وقد يقوده طول البلاء إلى سوء الظن. يحتاج القلب عندئذ إلى ما أخبر الله به عن رحمته ومغفرته، كما يحتاج إلى التذكر والعمل. نعبد الله بالخوف والرجاء، فلا نأمن العقوبة ولا نقنط من رحمته.

عرّفهم بجلاله كي يهابوه، وبعقابه كي لا يأمنوا مكره، وعرّفهم في الوقت نفسه برحمته ومغفرته وقربه وقبوله للتوبة؛ ليعبدوه بين الخوف والرجاء. قلب لا يخاف قد يجرؤ على المعصية، وقلب لا يرجو قد يترك الطريق بعد أول عثرة. والهداية أن يخاف العبد ذنبه، ويرجو ربه؛ يرى قبح ما فعل، ويرى أن رحمة الله أوسع من أن يحصرها ذنبه إذا صدق في الرجوع.

سأل موسى عليه السلام ربه أن يكتب له ولقومه في الدنيا حسنة وفي الآخرة، فأخبر الله في سياق ذلك:

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

[الأعراف: ١٥٦]

لم يحذف القرآن ذكر العذاب؛ فالدين ليس طمأنة رخيصة تنزع من العمل معناه. لكنه جعل أمام القلب حقيقة لا يستطيع أن يبلغ أطرافها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

أنت داخل عالم قامت أجزاؤه على آثار من الرحمة. وجودك، ورزقك، وإمهالك، وتعليمك، وستر عيوب كثيرة عن الناس، وإيقاظ الندم فيك بعد الخطأ، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وفتح باب التوبة ما دامت مهلة العبد باقية؛ كل ذلك من رحمته. وللمؤمنين المتقين رحمة خاصة يهديهم بها ويثبتهم ويغفر لهم ويدخلهم جنته. الرحمة ليست أمنية نصنعها لنرتاح؛ إنها صفة أثبتها الله لنفسه، وخبر صدق لا يتغير مع اضطراب شعورنا.

قد تستيقظ ولا يخطر ببالك أن بقاء باب الرجوع مفتوحاً نعمة. تنظر إلى ما أفسدته، فتتمنى لو عاد الزمن، ولا يعود. لكن الله لم يجعل طريقك إليه مشروطاً بقدرتك على إعادة الأمل. جعل لك في هذه اللحظة استغفاراً، وندماً، وعزماً، ورداً للمظالم بحسب الاستطاعة، وحسنات تحو السيئات بإذنه. لا تملك محو الواقعة من التاريخ، لكنك لا تزال تملك أن تغير الجهة التي تمضي إليها.

إذا عرفت خطأك فتب، وإن عرفك بعض الناس بما مضى. لا يجوز أن يجعل أحد كلامه حاجزاً بين التائب ورجاء المغفرة.

اجتهد في الصدق وإصلاح العمل ورد الحقوق، ودع الحكم على السرائر لله.

أخبر النبي ﷺ أن الله كتب: «إن رحمتي سبقت غضبي». رواه البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١). نثبت لله الرحمة والغضب كما ثبتا في النص، على الوجه اللائق بجلاله، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل. ونؤمن بالوعد والوعيد، فيحملنا الرجاء على التوبة، ويحملنا الخوف على ترك المعصية.

وربما لم يكن شيء يفتح معنى الرحمة في قلب المذنب مثل قصة الرجل الذي قتل مئة نفس.

لم يكن ذنبه هفوة عابرة يمكن تجميلها. قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم سأل عابداً: هل له من توبة؟ فأجابه بغير علم أن لا توبة له، فقتله فأكل به المئة. كل شيء في ماضيه كان ثقيلاً: دماء، وظلم، وقلب طال عليه الإجرام. ومع ذلك بقي فيه سؤال واحد لم يمت: هل لي من توبة؟

دله الناس بعد ذلك على عالم. والعلم هنا كان رحمة؛ لأنه لم يصغر الجريمة، ولم يغلق الباب الذي فتحه الله. قال له بمعنى الحديث: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم لم يتركه عند عاطفة عابرة، بل أمره أن يخرج من أرض السوء إلى أرض فيها أناس يعبدون الله، فيعبد الله معهم، وألا يرجع إلى بيئته الأولى.

كان جواب العالم دليلاً إلى العمل: التوبة ممكنة، ومن أسباب الثبات مفارقة البيئة التي تعين على المعصية. وفي الموقف تحذير من الفتوى بغير علم، وبيان لأثر العلم الصحيح في إنقاذ من يريد الرجوع.

لهذا لا تأخذ حكم الله فيك من أشد الناس لهجة، ولا تجعل ارتفاع الصوت علامة على صحة الفتوى. اذهب إلى من يعرف النصوص، ويفقه شروط التوبة وحقوق العباد، ولا يبيع لك طمأنينة كاذبة ولا قنوطاً متديناً. قد تحتاج في ذنب يتعلق بحقوق الناس إلى تفصيل لا تحسنه وحدك؛ فالسؤال حينها عبادة وحماية لك ولصاحب الحق.

وفي الأمر بمفارقة أرض السوء واقعية رحيمة. بعض البيئات تحفظ النسخة القديمة منك: هاتف يعيدك، وصحبة تزين لك، ومكان تسقط فيه مقاومتك، وفراغ له طريق معروف إلى المعصية. قد يكون قلبك صادقاً، لكن الصدق نفسه يأمرك ألا تختبره كل ليلة عند الباب ذاته. أغلق منفذاً، بدّل مجلساً، اطلب رفقة، سلّم مალًا أو جهازاً لمن يعينك مؤقتاً، واطلب علاجاً متخصصاً إذا صار الأمر إدماناً. الاستعانة ليست فضيحة؛ قد تكون صورة الهجرة الممكنة لك.

قد تحتاج إلى تغيير صحة أو عادة أو مكان يعيدك إلى الذنب. والاعتراف بالحاجة إلى العون من الصدق؛ فاستعن بمن تثق بدينه وخبرته، وأغلق الأسباب التي تعرف من نفسك الضعف أمامها.

خرج الرجل نحو الأرض التي دُل عليها، فمات في الطريق. واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ثم كان أقرب إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة. أصل القصة في البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦). نروي ما ثبت من خبره، ونتعلم منه سعة باب التوبة والعمل بأسبابها.

قوة القصة ليست في أن الذنب قليل؛ بل في أنه عظيم، ومع ذلك لم يكن أعظم من باب فتحه الله. وليست رسالتها أن الحقوق تزول أو أن التائب يستمر في أسباب الجريمة ثم يطلب طمأنينة؛ بل أن صدق الرجوع له علامات: سؤال أهل العلم، ومفارقة طريق الشر، والتحرك نحو بيئة الطاعة، والموت والقلب متجه إلى الله.

لا تهوّن جريمتك، ولا تيأس من رحمة الله. توقف عن المعصية، واندم، واعزم على ألا تعود، وأد حقوق الناس على الوجه المشروع. بقاء آثار الذنب في الدنيا لا يسوغ الإصرار عليه، ولا يمنعك من التوبة والإحسان فيما بقي من عمرك.

قال الله لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[الزمر: ٥٣]

تأمل النداء: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [الزمر: ٥٣]. مع الإسراف لم يسقط عنهم باب الانتساب إلى العبودية والدعوة إلى الرجوع. ثم جاء النهي: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر: ٥٣]. القنوط ليس تواضعا؛ هو ظن فاسد بحدود الرحمة. والآية دعوة إلى التوبة، كما يبين سياق ما بعدها: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]. فالرجاء الذي لا يعيدك إلى الله أمانة، والرجاء الذي يحركك إليه عبادة.

وقد قرب النبي ﷺ إلى أصحابه معنى من سعة الرحمة بمشهد بشري لا ينسى. رأوا امرأة في السبي تبحث، حتى إذا وجدت صبيا أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. سألهم: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قالوا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»؛ رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

لا يعني الحديث أن رحمة الله من جنس رحمة الأم أو أنها تُقاس بها؛ فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. لكنه ينقل القلب من أظهر صورة بشرية للرحمة يراها إلى رحمة أعظم لا يحيط بها. الأم في المشهد مخلوقة، ورحمتها هبة من الله، وقد يعتريها ضعف

وعجز؛ أما الله فله الرحمة الكاملة التي تليق بجلاله، مع كمال علمه وحكمته وقدرته.

وهنا يقع سؤال المبتلى: إذا كانت رحمته واسعة، فلماذا يؤلمني ما وقع؟

قد يخرج هذا السؤال في ممر مستشفى بارد، بعد أن يغلق الطبيب ملفاً ويقول إن الطريق سيطول. وقد يخرج في بيت عاد أهله من دفن حبيب، فبدت الأكواب والأثاث في أماكنها بينما غاب الوجه الذي كان يمنحها معنى. وقد يخرج من مظلوم قرأ عن الرحمة ثم رأى من ظلمه يمضي بلا اعتذار. لا يجوز أن نقف على باب هذه المشاهد ونلقي جواباً محفوظاً كأنا نغلق مسألة نظرية.

أول الرحمة مع المتألم أن نصدق ألمه، وأن نعيه فيما نستطيع، وألا نطالبه بابتسامة تثبت إيمانه. قد يكون البكاء نفسه رحمة بالجسد، وقد يكون الصمت أصدق من كلام كثير. وإذا استطعنا دواءً أو حقاً أو حضوراً بذلناه. معرفة الله لا تحولنا إلى متفرجين يشرحون القدر للمنكسرين؛ تجعلنا عباداً يرحمون لأن ربهم رحيم.

ثم، حين يجد الكلام موضعه، نفرق بين الرحمة والراحة. الراحة صورة من صور النعمة، نسألها الله ونحمده عليها. لكنها ليست الصورة الوحيدة للرحمة، ولا الدنيا دار راحة كاملة. قد يكون الإنسان مرتاح البدن وقلبه بعيد، وقد يكون متعباً يحمل في صدره

من الإيمان والرجاء ما ينجيهِ. الميزان لا يظهر كله في لقطة من الدنيا؛ ففي الآخرة تمام العدل وتمام الجزاء، وهناك يعرف المؤمن أن ما عند الله أبقي.

لا يعني هذا أن نَسارع إلى تسمية الوجع رحمة من كل وجه. المرض يوجع، والظلم شر من فاعله، والفقد فقد. إنما نقول: لا يستطيع الوجع أن يطرد رحمة الله من الوجود، ولا نعلم كل الطرق التي تبلغ بها عبده. قد تحيط به الرحمة وهو يبكي: في إيمان لم يُسلب، أو لسان لا يزال يدعو، أو إنسان أرسله الله يعين، أو تكفير وأجر أخبر بهما الوحي، أو حفظ لا يراه. وقد يؤخر الله عنه ما يحب لحكمة لا ندركها. نقف حيث يقف العلم، ونحسن الظن بربنا، ونحسن الفعل مع عبده.

السؤال لا يجعلك خارج الإيمان، ولا ينبغي أن يجيبك أحد بجملّة قاسية. بعض الألم نتيجة ظلم بشري أمر الله بمقاومته، وبعضه مرض يُشرع علاجه، وبعضه فقد لا يملك الإنسان رده. نعرف من الوحي أن الله لا يظلم مثقال ذرة، وأنه حكيم رحيم، وأنه يكتب للمؤمن أجر الصبر ويكفر عنه بالبلاء، لكننا لا نملك أن نعين لكل حادثة حكمة خاصة من عندنا.

رحمة الله لا تعني أن كل يوم سيكون مريحاً، ولا أن كل دعاء سيأتي بالصورة التي رسمتها، ولا أن المؤمن لن يبتلى. الأنبياء، وهم

أحب الخلق إلى الله، مرضوا وخافوا وفقدوا وأوذوا. الرحمة قد تظهر في كشف الضر، وقد تظهر في قوة تحمل بها، أو هداية تحفظ دينك في قلب المحنة، أو ذنب يغفر، أو درجة ترفع، أو عاقبة تدخر لك حيث لا موت ولا فراق. وقد تبقى وجوه كثيرة منها غائبة عنك في الدنيا.

إيمانك بالرحمة ليس ادعاء أنك فهمت كل شيء. هو أن تعرف ربك فيما لم تفهمه.

وكما أن الرجاء لا يلغي العمل، فالخوف الصحيح لا يلغي الأنس. إذا رأيت تقصيرك فاستغفر، وإذا خشيت العاقبة فأصلح، وإذا عرفت رحمة الله فلا تتجراً بها عليه؛ استج من الإحسان أن تقابله بالإصرار. المؤمن لا يقول: سيغفر لي ثم يمضي في ظلمه مطمئناً، ولا يقول: لن يغفر لي فيلقي بنفسه في مزيد من الظلمة. يقول: ربي شديد العقاب، وربّي غفور رحيم؛ لذلك أهرب من معصيته إليه.

وقد تحتاج، مع التوبة، إلى مساعدة حقيقية. بيئة جديدة، وصحبة صالحة، وعالم ثقة، وعلاج من إدمان، وإعادة حقوق، واعتذار، وقطع طريق يعيدك كل مرة إلى الخطأ. قصة قاتل المئة لم تجعل التوبة خاطراً داخلياً؛ جعلتها هجرة. ليس كل تائب مطالباً بتغيير بلده، لكن كل توبة صادقة تحتاج إلى أن تغير شيئاً يحرسها.

ومن علامات أن معنى الرحمة بدأ يسكنك أن يتغير حكمك على المتعثرين. لا تعود تتلذذ بفضيحة مذنب، ولا تتمنى أن يُغلق الباب الذي دخلت أنت منه. تكره المعصية، وتحجي من أذاه صاحبها، وتحذر منها، لكنك لا تنصب نفسك مالكا لمفاتيح التوبة. تذكر أن الإنسان قد يقف أمامك في فصل قديم من قصته، بينما يكون بينه وبين الله من الندم والعمل ما لا تعلم.

والرحمة لا تعني السذاجة. إذا كرر شخص أذاه، فضع الحدود، ولا تسلمه نفسك أو مالك بحجة أنك رحيم. قد تغفر من جهة قلبك وتبقى المسافة لازمة، وقد تثوب أنت ويبقى على الناس حق في التثبت منك حتى يروا أثر التغيير. الثقة البشرية تبني مع الوقت، أما قبول التوبة عند الله فله حكمه الذي لا نملكه نحن. لا تطالب من جرحتهم أن يزيلوا خوفهم فوراً كي تشعر أنك غفرت لك.

ولا تجعل لوم النفس بدلاً من الإصلاح. قد تكرر أنك أخطأت، ويبقى مال في ذمتك لم ترده، أو أذى تستطيع إيقافه. صدق التوبة يدعوك إلى أداء الممكن من الحقوق، مع سؤال أهل العلم فيما يشكل عليك.

وحين ترى تائباً يمشي خطواته الأولى، كن له أرضاً صالحة ما استطعت. لا تذكّره في كل مجلس بما كان، ولا تجعل ماضيه

مادة ظريفة، ولا تختبره بما يضعفه. قد لا تستطيع محو أرض
السوء من العالم، لكنك تستطيع ألا تكون جزءاً منها.
لا تقل: حين أشعر أنني نقي سأعود. عد كي يطهرك الله.

ولا تجعل الندم سوطاً تضرب به نفسك بلا نهاية. الندم قلب
التوبة، لكنه يدفع إلى الرجوع والإصلاح، لا إلى كراهية النفس
حتى العجز. قد يطالبك الشيطان بعد الذنب بعقوبة لم يشرعها الله:
أن تحرم نفسك من كل رجاء، وأن ترفض كل خير لأنك «لا
تستحق»، وأن تبقى تفتح الجرح بعد أن صدقت في التوبة. هذا
ليس وفاءً لحق الله، بل قد يصير باباً جديداً لليأس.

إذا كان لآدمي حق، فلا تستعمل شعورك الداخلي بدل أدائه. رد
المال، واطلب المسامحة حيث يكون ذلك مشروعاً ولا يترتب عليه
ضرر أكبر، واسأل أهل العلم فيما يلتبس. وإذا كان الذنب بينك
وبين الله، فاستر نفسك بستره، وتب إليه، وأكثر من الحسنات. لا
يلزم أن تحكي للناس تفاصيل معصية سترها الله كي تثبت أنك
نادم.

وقد يتداخل الإحساس بالذنب مع وسواس أو اكتئاب يجعل
الإنسان يعيد الاتهام مهما تاب. عندها لا يكفي أن يقال له: لا
تفكر. يحتاج علماً صحيحاً، وربما علاجاً من مختص أمين، ورفقاً

يعينه على التمييز بين محاسبة النفس والمرض الذي يستهلكها. طلب العلاج لا يناقض التوبة؛ قد يكون من أسباب تمامها وحفظها.

ولا تقل: حين يزول خوفي سأدعوه. ادعه بخوفك، واطلب منه أن يحول الخوف إلى خشية تدفعك، لا إلى قيد يشلك.

ابدأ من أمر تعرف أنك تحتاج إلى إصلاحه، وخذ خطوة صادقة: رد حق، أو ترك سبب معصية، أو سؤال من يعلم. اللهم تب علينا، واغفر تقصيرنا، واجعل رجاءنا فيك معيناً لنا على طاعتك، واحفظنا من اليأس والإصرار.

الفصل الثامن

إن ربي لطيف لما يشاء

قد تمر بك أحداث لا تعرف عاقبتها. تبذل السبب ثم يتأخر ما ترجوه، أو يتغير طريق ألفته. وربما عرفت بعد زمن خيراً جاءك من طريق لم تتوقعه، وربما بقي وجه الحكمة خافياً. نحن لا نحيط بالغيب، لكننا نؤمن بأن الله هو اللطيف الخبير. ومن خير ما نتأمل في هذا الباب خبر يوسف عليه السلام كما قصه القرآن.

بدأ خبر يوسف برؤيا، ثم أصابه كيد إخوته، وأوحى الله إليه وهم يجعلونه في الحب: ﴿لَتَبْنِيَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وقص الله مراحل من حياته، ومنها لبثه في السجن بضع سنين. نقرأ ذلك في وقت قصير، لكنه خبر عن ابتلاء امتد زمناً وفيه ما يدعونا إلى الرفق بمن يطول عليهم الانتظار.

قد تكون أنت الآن في المسافة التي يختصرها غيرك بجملة. يقولون: مرّ بمرض ثم عوفي، وأنت ما زلت تعد المواعيد والليالي والآثار الجانبية. أو يقولون: فقد عمله ثم فتح الله له، وأنت في يومك السبعين من البحث والاعتذار عن المصروف. لا تقس صدق إيمانك بسرعة الانتقال. عبودية المنتصف لها وزنها: صلاة تؤديها

مثقلاً، وحرام ترفضه وأنت محتاج، وسبب تعاوده بعد إخفاق،
ولسان تحرسه من الاعتراض وإن شكا إلى الله.

ليست كل الأيام أحداثاً كبرى. كثير من الثبات يقع في صباح
عادي لا يراه أحد، وحين تسجل الملائكة اختياراً صغيراً للحق لا
تصنع له الدنيا عنواناً.

بدأت القصة برؤيا قصها الصبي على أبيه. رأى أحد عشر كوباً
والشمس والقمر له ساجدين. عرف يعقوب أن للرؤيا شأنًا،
وحذّره أن يقصها على إخوته. ثم تحرك الحسد في بيت النبوة،
وأخذ الإخوة أخاهم، وجعلوه في غيابة الجب، وعادوا إلى أبيهم
ليلاً ليكون بقصة اختلقوها.

مرت سيارة، فأرسلوا واردهم، فأدلى دلوّه، ثم خرج يوسف إلى
عالم لا يعرفه. بيع بثمان بخس، ودخل بيت العزيز. وقال الذي
اشتراه لامرأته أن تكرم مثواه، ثم يعقب القرآن على المشهد كله
بقوله:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٢١]

كان الإخوة يدبرون أمراً، وكانت السيارة تريد بضاعة، وكان
العزيز يشتري غلاماً. لكل إنسان قصده المحدود، وفوق المقاصد

كلها تدبير لا يخرج عنه شيء. لا يعني ذلك أن ظلم الإخوة صار عدلاً، أو أن بيع الحر صار فعلاً محموداً؛ الخطأ يبقى خطأ، وصاحبه مسؤول عنه. لكنه لا يستطيع أن يهزم مشيئة الله أو يحاصر فضله. قد يجري قدر الله عبر أفعال يحبها، وقد يقع ما يبغضه شرعاً من معاصي العباد، وكل ذلك لا يخرج عن ملكه ومشيئته، مع كمال حكمته وعدله ومسؤولية العباد عن اختيارهم.

كبر يوسف في البيت، وآتاه الله حكماً وعلماً. ثم جاء امتحان آخر من داخل المكان الذي بدا مأوى. راودته امرأة العزيز عن نفسه، وغلقت الأبواب. قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]. لم ير الباب المغلق عذراً، ولا جعل الخفاء إذناً. اختار عفة قد يكون ثمنها في ظاهر الدنيا ثقيلاً. ثم ظهرت براءته بأماراتها، ومع ذلك بدا لأصحاب القرار أن يسجنوه حيناً.

لو كنا نقرأ القصة لأول مرة وتوقفت السورة عند دخوله السجن، لربما قلنا: أيكون جزاء العفة حبساً؟

وفي السجن سأله فتیان عن رؤياهما، وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]. فدعاهما إلى توحيد الله، وبين لهما تعبير الرؤيا. بقي في موضع ابتلائه داعياً إلى ربه محسناً بما آتاه الله من علم.

طلب يوسف ممن ظن أنه ناج أن يذكره عند سيده، فلبث في السجن بضع سنين. أخذ بسببٍ مباح، ثم تأخر أثر السبب. لم يقل لنا القرآن إن كل سبب يؤخذ به يثمر في الموعد الذي نريده. علمنا أن نأخذ، وأن يبقى القلب مع الله، وأن التأخير لا يعني أن علمه غاب.

ثم رأى الملك رؤياه. لم تستطع الوجوه القريبة من السلطة أن تمنحه تعبيراً يطمئن إليه. عندها تذكر الناجي يوسف. جاءت الحاجة العامة إلى باب السجن، وصار العلم الذي آتاه الله للسجين سبباً في إنقاذ الناس من مجاعة مقبلة.

ومع أن باب الخروج فُتح، لم يندفع يوسف إلى الحرية قبل أن تظهر براءته. طلب أن يُسأل النسوة عن شأنهن، حتى تبين الحق. ثم خرج، وتولى خزائن الأرض بعلم وأمانة، وجاءت سنوات الشدة، ووقف إخوته بين يديه وهم لا يعرفونه.

تأمل كم مرة تغير الاسم الظاهر للمشهد: رؤيا، جب، بيع، بيت، فتنة، سجن، تأخير، ثم تمكين ولقاء. والخيطة الذي لم ينقطع في جميع ذلك أن الله كان يعلم ويرى ويدبر، وأن يوسف كان يبتلى فيختار العبودية التي يستطيعها في مقامه.

وعندما اكتمل اللقاء، ورفع أبويه على العرش، وخروا له سجداً على ما كان مشروعاً في شريعتهم، قال لأبيه إن هذا تأويل رؤياه من قبل. ثم نطق بالجملة التي تضيء ما وراء السورة كلها:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
[يوسف: ١٠٠]

حمد يوسف إحسان ربه إليه، وذكر خروجه من السجن واجتماعه بأهله، وأثنى على الله بأنه لطيف لما يشاء، عليم حكيم. هذه حقائق أخبر بها القرآن، ونعرف بها بعض ما أظهر الله له من لطفه بعد الابتلاء.

قال يوسف لهم: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. لم يجعل التمكين فرصة يرد بها كل جرح. صار ما آتاه الله من قوة باباً للعتو والإحسان. ومن وجوه اللطف أن يحفظ الله قلب عبد من أن يتحول ألمه إلى نسخة أخرى من ظلم من آذاه.

حين نقول إن الله لطيف، فنحن نثبت اسماً سمي به نفسه، على المعنى الذي يليق بجلاله، من غير تشبيه بخلقه ولا تكيف. قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

أقترن اللطف بالخبرة والعلم؛ فهو يعلم دقائق الحال وما خفي، وتبلغ عباده ألطافه من طرق قد لا يدركونها. لا تغيب عنه التفصيـلة التي غابت عنك، ولا النتيجة التي لا تزال خلف الأفق، ولا ضعفك الذي لم تحسن وصفه.

لكن هذا الاسم الكريم لا يمنحنا حق تأليف تفسير خاص لكل حادثة.

لا نقول لمن فقد عزيزاً: وقع هذا حتماً لتعلم الدرس الفلاني. ولا نقول لمن فشل زواجه: أغلق الله هذا الباب لأنه يدخر لك شخصاً آخر في الدنيا. ولا نقول للمريض: مرضك رسالة محددة بكذا. قد يظهر لبعض الناس بعد زمن معنى نافع أو باب خير، وقد لا يظهر، وقد تجتمع في القدر حكم لا يحيط بها إلا الله. نحن نرجو لطفه، ونوقن بحكمته، ولا نتكلم في غيبه بلا علم.

قصة يوسف ليست وعداً بأن كل جب ينتهي بمنصب، ولا أن كل مظلوم يرى براءته في الدنيا، ولا أن كل أسرة مفترقة تجتمع قبل الموت. لو جعلناها وصفة لنتيجة دينوية بعينها لضيقنا معناها، وربما كسرنا قلب من طال بلاؤه. هي تعرفنا رب غالب على أمره، لطيف لما يشاء، عليم حكيم؛ وتعلمنا كيف نعبد في منتصف القصة، حين لا نملك خاتمتها.

أما عملنا في زمن البلاء فنعرفه مما شرع الله: نصبر، ونسأل العافية، ونحفظ الأمانة، وندفع الظلم بما نستطيع من حق. لا نجعل حاجتنا عذراً للحرام، ولا نجعل تأخر الفرج سبباً لترك الإحسان.

وقد يكون لطف الله في شيء تراه الآن: إنسان صادق بقي إلى جوارك، فكرة جاءت في وقتها، باب توبة، ستر، قوة على يوم واحد، نصيحة ردتك عن قرار متعجل. لا تحتاج أن تنتظر نهاية العمر كي ترى كل أثر. وفي الوقت نفسه لا تضغط على نفسك لتستخرج «نعمة» من كل وجع في الساعة الأولى. بعض الجروح تحتاج أولاً إلى إسعاف وصمت وأمان. والتكلف قد يزيد لها ألماً.

ونحن عادة نبث عن اللطف في التحولات الكبيرة، فنفتو أثره الهادئ. ننتظر أن يفتح باب القصر، ولا نرى خبز اليوم. ننتظر أن تزول المشكلة كلها، ولا نرى أن الله رزقنا في أثنائها ساعة نوم، أو عقلاً لم يذهب، أو طبيباً أميناً، أو كلمة قرآن ثبتت في وقتها. ليس معنى ذلك أن هذه الأشياء تعادل ما فُقد، ولا أن تعدادها يسقط حق الحزن؛ إنها خيوط ضوء حقيقية إلى جوار ظلمة حقيقية.

في بعض الصباحات يكون لطف اليوم كله أن تستطيع القيام من فراشك. وفي بعضها أن تؤجل قراراً كنت ستندم عليه. وفي بعضها أن تجد الشجاعة لتقول: أحتاج مساعدة. وقد يكون اللطف في

كشفت أمر لا تحبه: نتيجة فحص مبكرة أتاحت علاجاً، أو نصيحة أظهرت خلافاً فيك، أو حدّ وضعه إنسان ففنع استمرار ظلم بينكما. ليس اللطف دائماً إحساساً ناعماً؛ قد تبلغك به حقيقة حادة تنقذك من غفلة أطول.

لكن لا تجعل بحثك عن اللطف مراقبة قلقلة: لماذا لم أجد العلامة؟ لست مطالباً أن تحوّل كل دقيقة إلى لغز، ولا أن ترى رسالة شخصية في كل مصادفة. الوحي عرّفك باللطيف، وهذا يكفي لتطمئن إلى أصل المعنى. أما التفاصيل فتثبت بدليلها أو تبقى في مساحة الرجاء: لعل، وأرجو، ولا أعلم.

إذا انتهى علمك عند سؤال عن حكمة حادثة بعينها، فقل: الله أعلم. لا يعني ذلك ترك البحث فيما تستطيع معرفته من أسباب، وإنما الوقوف عن الجزم بالغيب. وحسبك يقينك بأن الله عليم حكيم، وأنه لا يضيع أجر المحسنين.

هذه المعرفة لا تحل محل الإجابات الطبية والمالية والأسرية. إذا تعطل مشروعك، راجع أسبابه. إذا مرضت، اسأل أهل الاختصاص. إذا وقع اعتداء، اطلب العدل. الإيمان باللطف لا يجعلنا نغطي أخطاء البشر بالقدر؛ بل يجعل القلب ثابتاً وهو يعمل لإصلاح ما يستطيع.

وربما يكون من اللطف أن تتكشف لك مسؤوليتك. بعض الأبواب لم تُغلق لأن العالم كله تأمر عليك، بل لأنك قصرت أو لم تحسن التقدير. معرفة الخطأ نعمة إذا قادت إلى إصلاح. نسبة كل إخفاق إلى حكمة خفية مع رفض المحاسبة ليست توكلاً؛ هي هروب. الله الذي أمرنا أن نؤمن بقدره أمرنا أن نعدل ونتعلم ونعمل.

يوسف عليه السلام جمع الأمرين: قلب يعرف ربه، ويد تثقن السبب. فسر الرؤيا، ووضع خطة لسنوات الخصب والجذب، وحفظ الأمانة، وطلب إظهار البراءة، ثم لما تم الأمر لم يقل: خطي صنعت كل شيء. قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

نأخذ بالأسباب المباحة ونتوكل على الله. نستعد، ونراجع الخطأ إذا بان، ونتعلم مما وقع. وما لم نملكه من النتائج لا نحمل أنفسنا عنه أو تديره. لا يكون كل إخفاق تقصيراً، ولا كل نجاح دليلاً على سلامة الطريق من كل وجه.

هذا الفهم يحفظك أيضاً من قراءة حياة الآخرين قراءة متعالية. لا تقل لمن تعثر: لو أحسنت التوكل لنجحت، ولا لمن نجا: لا بد أن نجاته كانت بسبب صلاح خاص. الأسباب كثيرة، والقلوب لا يعلمها إلا الله، والدنيا ليست كشف درجات نهائياً. ساعد بما

تعرف، واسكت عما لا تعلم، وارحُ لعباد الله من اللطف ما
ترجوه لنفسك.

قد تنظر اليوم إلى جزء قديم من حياتك، فترى معنى لم تره وقتها.
شخص منعك فدفعتك التجربة إلى تعلم، أو خسارة أوقفت إسرافاً،
أو غربة عرّفتك قدر أهلك، أو مرض علّمك الرحمة بالمريض.
أحمد الله على ما ظهر لك من لطفه، من غير أن تزعم أن هذا هو
كل الحكمة.

وقد تنظر إلى جزء آخر فلا ترى إلا حيرة. لا تصنع جواباً. ضع
عنده علامة أمانة: «غاب عني، ولم يغب عن الله».

اللهم يا لطيف يا خير، الطف بنا، واهدنا لما يرضيك، وأعنا على
حسن العمل فيما نعلم، وعلى التسليم لك فيما خفي عنا. ولا تجعلنا
نقول عليك بغير علم.

يسمع ارتجاف صوتك

قد تحاول أن تشرح ما يؤلمك، فلا تجد من يصغي، أو تعجز عن بيان ما في نفسك. في هذه الحال تذكر أن الله يسمع دعائك ويعلم حاجتك. لا يتوقف سمعه على فهم الناس لك، ولا علمه بحالك على قدرتك على وصفها.

قال الله تعالى في مطلع سورة المجادلة:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

[المجادلة: ١]

شكت امرأة إلى النبي ﷺ أمر زوجها، فأُنزل الله صدر سورة المجادلة. وفي الآية إثبات أن الله سمع قولها وتحاورهما، وعلم حالها. عرّف الله عباده بسمعه وبصره في خبر واقعة من حياة الناس، فتعلم أن حاجات البيوت وأحزان أصحابها لا تخفى عليه.

قد تدعو فلا ترى ما سألت في الوقت الذي رغبت فيه. لا تجعل ذلك شكًا في أن الله سمعك؛ سمعه ثابت بما أخبر به عن نفسه،

والإجابة تجري بحكمته. وإنما نجتهد في الدعاء المشروع، ونتجنب الاستعجال، ونأخذ بالأسباب.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
نُتِبَ لله السمع والبصر على الوجه اللائق به، ولا نمثلهما بصفات خلقه، ولا نصرفهما إلى معنى ينفيهما. فهو سبحانه يسمع ويرى، ولا يخفى عليه شيء، وليس كمثل شيء.

هذه المعرفة ليست درساً بعيداً عن وجعك. إنها تغير هيئة الوحدة نفسها.

قد تكون وحدك في غرفة، لكنك لست خارج السمع. قد يغلق شخص هاتفه قبل أن تكمل، لكن باب الله لا تحكمه مواعيد البشر. قد يصدق الناس رواية غيرك، ويعجز لسانك عن الدفاع، لكن الحق لا يلتبس على من يعلم السر وأخفى. وقد تكون أنت المخطئ، تحاول أن تبرر لنفسك، فيذكرك اسم السميع أن الله سمع الكلمة كما خرجت، لا كما أعدت روايتها بعد أن هدأت.

الطمأنينة التي يمنحها هذا الاسم ليست غطاءً نخفي تحته المسؤولية. من علم أن الله يسمعه استأنس في الدعاء، وراقب نفسه في الكلام. السميع يسمع استغاثة المظلوم، ويسمع أيضاً ظلم الظالم. يسمع الاعتذار الصادق، ويسمع الغيبة التي ظن صاحبها أن باب

المجلس يحجبها. ويعلم الدعاء الذي وافق فيه اللسان قلباً منكسراً،
ويعلم الكلمات التي قيلت طلباً لصورة أمام الناس.
معرفة الله تجمع الأُنس والحياء.

تقول: يا رب، لأنه يسمع. وتكف لسانك عن أذى غيرك، لأنه
يسمع.

ويقول المصلي في موضع الرفع من الركوع ما ثبت من الذكر:
«سمع الله لمن حمده»، و«ربنا ولك الحمد»، كل في موضعه. ومن
معنى «سمع الله لمن حمده»: استجاب وقبل حمده. وهذا معنى يزيد
الحامد رجاء وقرّباً بالطاعة؛ فيجتهد في طمأنينة صلاته وفهم
ذكره.

إذا استقر هذا المعنى، خف احتياجك إلى أن يشاهد الناس كل
خير فيك. تعمل في الخفاء، وتستغفر في الخفاء، وترد كلمة سوء لم
يسمع بها أحد، لأن الشاهد الذي تريده لم يرغب. وكذلك تخاف
من خيانة الخفاء؛ فما كان وراء الشاشة أو الباب ليس وراء سمع
الله وبصره.

وفي قصة خولة معنى آخر شديد القرب: الشكوى إلى الله ليست
نقصاً في الإيمان. الآية نفسها وصفتها بأنها «تَشْكِي إِلَى اللَّهِ»
[المجادلة: ١]. لم تُبَخَّ على أنها جاءت بألم ييتها، ولم يطلب منها أن

تسمي الظلم راحة. عرضت حاجتها، وجادلت، وطلبت حكم الله. فأنزل الله في القضية قرآنًا، وجعل لها ولمن يأتي بعدها مخرجًا وحكمًا.

يجوز لك أن تقول: أتألم. يجوز أن تذكر ما وقع كما وقع، وأن تسأل الله رفعه، وأن تطلب ممن يملك عونًا مشروعًا أن يعينك. الفرق ليس بين إنسان يتكلم وإنسان لا يتكلم؛ الفرق بين شكوى تحكمك إلى الله وتعينك على الحق، واعتراض يجعل القلب يتهم الله أو يتجاوز حدوده.

ولهذا لا يصح أن يُقال لمظلوم: ما دام الله يسمعك فالزم الصمت أمام من يستطيع رد الظلم. خولة شكت إلى الله، وتكلمت مع رسول الله ﷺ، وجاء الحكم يعالج واقعًا، لا شعورًا فقط. إن كان الكلام يحميك أو يحمي غيرك، فاطلب الجهة الأمانة، ووثق ما يلزم، واستعن بأهل الاختصاص. وإن خفت ضررًا عاجلاً، فسلامتك مقدمة، ولا تدخل مواجهة منفردًا لمجرد أن أحدًا وعظك بالصبر.

الشكوى إلى الله تمنح شكواك إلى الناس ميزانًا: تقول الحق بلا زيادة، وتطلب العدل لا التشفي، وتحفظ ما لا حاجة إلى نشره، ولا تسمح للحياء أن يستر اعتداءً يتكرر. الصمت قد يكون حلماً في موضع، وقد يكون تمكيناً للظالم في موضع آخر؛ والفرق يحتاج علماً وحكمة ومشورة.

قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾
 [يوسف: ٨٦]. لم ينكر البث والحزن. عرف الجهة التي يحمل إليهما ما
 امتلأ به صدره. وأيوب قال: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضَّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. سَمِيَ الضَّرَّ، ثم أَثْنَى. هكذا يكون الدعاء
 صادقاً: لا يتجمل على الله بما ليس في القلب، ولا يجعل الصدق
 إذناً لسوء الأدب.

وقد نطن أن الدعاء القوي هو الدعاء الطويل، أو أن القبول يحتاج
 صوتاً مؤثراً وترتيباً بليغاً. لكن موسى عليه السلام خاف أن يواجه
 فرعون، وقال مع أخيه هارون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا
 أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]. جاء الجواب:

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾

[طه: ٤٦]

لم يقل لهما إن الخوف لم يقع؛ فقد عبّرا عنه. ولم يكن الوعد أن
 فرعون صار ضعيفاً في أعين الناس أو أن الطريق سيخلو من
 المواجهة. كان التثبيت بمعية الله الخاصة لهما في ذلك المقام، وبأنه
 يسمع ويرى. ثم أمراً أن يذهبا ويقولوا ويبلغا. المعرفة لم تلغ
 الحركة؛ أعطتها شجاعة واتجاهاً.

وفي خبر موسى وهارون تذكير بأن الخوف قد يوجد مع الإيمان، وأن العبد يستعين بربه على أداء ما أمره به. لا تنتظر زوال كل خوف لتبذل سبباً مشروعاً تحتاج إليه.

إن كنت تخاف مراجعة طبيب، فادع الله ثم اذهب. إن كنت تحتاج إلى كلمة حق، فاستعن به وقلها بالعلم والعدل. إن كنت في علاقة مؤذية، فاطلب حماية ومشورة ولا تحبس نفسك باسم الصبر. وإن أخطأت، فلا تستعمل الدعاء للهرب من الاعتذار والإصلاح. من يسمعك وأنت تدعوه يسمع صاحب الحق أيضاً.

والله يعلم أيضاً ما في صدرك وإن لم تنطق به. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. فاسأله أن يصلح باطنك، وأن يعينك على ما تعرف من ضعفك وتقصيرك.

تكثر أدعية العباد وتختلف لغاتهم، والله يسمعهم ويعلم أحوالهم. لا نضيف إلى ذلك وصفاً لم يثبت، ولا نقيس صفاته بقدرات السامعين من البشر. نقف عند النص، وندعوه بما يليق بجلاله من الشاء والافتقار.

قال الله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. السر والجهر، والليل والنهار، لا تصنع حجاباً عن علمه وسمعه. ولذلك لا تحتاج أن ترفع

صوتك ليبلغ دعاؤك؛ فالله قريب كما أخبر، يسمع السر والجهر ويحب من دعاه، وقربه يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل.

وقد يكون أخشع دعائك همساً لا يسمعه من بجوارك. وقد يكون من الأدب أن تخفض صوتك وتحفظ خصوصية من تدعو له. القيمة ليست في أن يرتج المجلس، بل في أن يقوم القلب بين يدي ربه. وإن خرج صوتك مرتجفاً، فلا تصلحه من أجل الصورة. دعه يحمل ضعفه إلى من خلق الصوت والقلب.

تأتيه وأنت مرتبك. تقول: يا رب، أنا لا أعرف ماذا أريد تماماً، لكنني أعرف أنني أحتاجك. تقول: يا رب، في قلبي كلام لا يحسن لساني حمله، وأنت تعلمه. تقول: يا رب، أخاف أن يكون في طلبي شر، فاختر لي، وأعني على ما تحب. ليست الفصاحة شرطاً في الافتقار، ولا الدموع علامة لازمة على الصدق. قد يدعو إنسان بعين جافة وقلب حاضر، وقد يبكي آخر لأن طبعه رقيق. الله يعلم السرائر، ونحن لا نفتش عنها.

قال النبي ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي». رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥). نحذر الاستعجال الذي يدفع إلى ترك الدعاء، ونرجو فضل الله، ولا نجزم بصورة إجابة لم يخبرنا بها نص.

المؤلم أن بعض الناس يتركون الدعاء لأنهم لم يروا النتيجة التي انتظروها. يقول أحدهم: دعوت طويلاً ولم يحدث ما أريد. وراء الجملة وجع يجب أن يسمع، لا أن يقابل باتهام سريع في الإيمان. يمكن أن نقول له برفق: لا تجعل قيمة المناجاة كلها معلقة بباب واحد. أنت حين دعوت لم تكن ترسل كلمات إلى فراغ. كنت تعبد، وتفتقر، وتعلم، وتبقى موصولاً بالله في زمن كان يمكن للألم أن يقطعك. هذه كلها حقائق، ولو بقي المطلوب مؤجلاً.

وقد يكون الدعاء نفسه هو الخيط الذي حفظك من قرار سيئ، أو اليأس الكامل، أو كلمة لا تُرد. لا نجزم أن هذه حكمة التأخير في حالك بعينها، لكننا نرى أثر المناجاة الذي وقع: بقي لك باب ترجع إليه.

لا تهجر الباب لأنك لا تملك توقيت الفتح.

وفي المقابل، لا تجعل قولك «الله يسمعني» سبباً لترك الناس الذين يستطيعون مساعدتك. الله الذي أمر بالدعاء أمر بالسؤال والتعاون والتداوي ورد الحقوق. خولة ذهبت إلى رسول الله ﷺ تعرض قضيتها، وموسى ذهب إلى فرعون ممثلاً أمر ربه. أن تطلب من طبيب علمه، ومن قاضٍ حقك، ومن صديق حضوره، لا يناقض افتقارك إلى الله ما دمت تعلم أن هؤلاء أسباب، وأن قلوبهم وقدراتهم بيده.

ومن شكر نعمة السمع أن تحسن الإنصات إلى من يحتاجك. ضع ما يشغلك، وافهم شكواه قبل أن تنصحه، ولا تعده عن الله بما لم يدل عليه دليل. قد تستطيع قضاء حاجته، وقد لا تملك إلا كلمة رحيمة وحضوراً صادقاً، فلا تبخل بما تستطيع.

ادع ربك بقلب حاضر ما استطعت، وتعلم من الأدعية الثابتة ما تفهم معناه. وقل: يا سميع يا بصير، أنت تعلم ضعفنا وحاجتنا، فأصلح سرنا وعلايتنا، واستجب دعاءنا، وأعنا على طاعتك.

الحمد أوسع من رغباتك

تحمّد الله على نعمة تفرّج بها، ويزداد حمدك حين تعرف سعة فضله. لكن استحقاقه للحمد باقٍ وإن تأخر ما ترجوه؛ فهو الحميد، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى. ويخبرنا القرآن عن تسبيح المخلوقات بحمده، فيتسع تأملنا لما وراء شأننا القريب.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

[الإسراء: ٤٤]

ارفع بصرك قليلاً عن الأمر الذي يشغلك. السماوات السبع تسبح له. والأرض التي تحمل خطاك تسبح. ومن فيهن يسبح. ثم تأتي العبارة التي لا تترك شيئاً خارج هذا الموكب: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ليس الكون خلفية صامتة لحكايتك. هو عالم من العبودية لا تفقه أكثر أصواته. ما تراه جامداً له من التسبيح ما أخبر الله به، على حقيقة يعلمها سبحانه، ولا يجوز لنا أن نحصرها في المجاز لأننا لم

ندرك كيفيتها. قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛
فجهلنا بالكيفية لا يبطل الخبر.

نؤمن بتسبيح المخلوقات كما أخبر الله، ولا نعين له كيفية لم نعلمها.
قال سبحانه: ﴿وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].
ومن تأمل هذا الخبر ازداد تعظيماً لله، واستحيا من غفلته،
وأقبل على الذكر الذي شرعه له.

هذا الاتساع لا يصغر ألمك احتقاراً؛ يصغر طغيان الألم على
رؤيتك. هناك فرق بين أن تقول لإنسان: مشكلتك لا قيمة لها،
وبين أن تمسك بيده ليرى أن المشكلة — مع قيمتها — ليست كل
الوجود. الأولى قسوة، والثانية قد تكون نجاة.

والتسبيح تنزيه لله عن كل نقص، والحمد إثبات للمحامد والكمال.
تنزهه عن الظلم والعبث والعجز والجهل، وتحمده على علمه وحكمته
وقدرته ورحمته وملكه وفضله. ولهذا لا يقتصر الحمد على أثر نعمة
خاصة وصلت إليك؛ فالله محمود لما له من الكمال، ثم محمود على ما
لا يحصى من إحسانه.

نحمد الله على نجاح أو شفاء أو رزق، ونسأله دوام الخير وبركته.
وإذا جاء ما نكره بقي حمدنا له على كماله وفضله، وبقي سؤالنا له أن
يكشف الضر. معرفتنا به لا تتبدل بتبدل رغباتنا.

ليس بأن يجعلك تحب المرض كما تحب العافية، أو تسمي الفقد عطاءً من الجهة نفسها، أو ترضى بالمعصية والظلم. الشرع فرق بين الأشياء، وأمرك أن تسأل العافية وتعالج المرض وتدفع الظلم وتبغض المعصية. لكنه عرّفك برب لا يتغير كماله حين تتغير أحوالك. أنت تحمده على ما تعرف من نعمه، وتحمده لأنه الحميد، وتؤمن بحكمته وعدله فيما غاب عنك، من غير أن تخترع للواقعة تفسيراً خاصاً.

إذا وقع ظلم من إنسان، فاطلب العدل ولا ترض بالظلم من حيث هو معصية. والإيمان بالقدر لا يعفي الفاعل من مسؤوليته، ولا يمنعك من دفع الضرر بالحق. تجتمع الثقة بحكمة الله مع القيام بما أمر به من عدل وإصلاح.

كان النبي ﷺ يقول إذا قام من الليل: «اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن». ومن دعائه في الحديث نفسه: «أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق». رواه البخاري (١١٢٠). هذا الثناء يذكر العبد بعظمة ربه، وبصدق وعده ولقاؤه، فيرجو ما عنده ويعمل لما بعد الموت. تأمل ما تحفظه من هذه الأدعية، وادع بها عالماً بمعناها، من غير أن تشترط على نفسك انفعالاً معيناً عند كل مرة.

انظر كيف يرافق الحمد أبواب الوجود الكبرى في القرآن. جاء في أول الكتاب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وجاء عند ذكر الخلق والنور والظلمات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]. وعند نعمة الوحي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]. وفي الجنة يقول أهلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ويخبر الله أن آخر دعواهم: ﴿أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

كأن الحمد يعلمك أين تضع البداية والنهاية. تبدأ بالله، وتمضي في خلقه ووحيه وهدايته، ثم تلقاه والحمد لم ينقطع. رغباتك فصول داخل هذا الطريق، بعضها يتحقق وبعضها يتأخر وبعضها يتغير، أما الحمد فليس فصلاً عابراً. هو معرفة تصحبك حتى ترى ما كنت تؤمن به غيباً.

ولهذا كان أثقل الخسارات أن تحصل على رغبتك وتفقد الله من قلبك، وكان من أعظم العطايا أن تعرفه ولو بقيت لك حاجات. ليست المعرفة بديلاً رومانسياً عن الطعام والدواء والأمن؛ هذه نعم حقيقية نسألها ونسعى لها. لكنها النعمة التي تمنح كل نعمة وجهتها، وتحرسك حين يسلب بعض ما تحب.

الحمد الواسع لا يحتقر حاجتك الصغيرة.

الذي له السماوات والأرض هو الذي يسمعك حين تسأل ثمن دواء أو صلاح علاقة أو هدوء ليلة. سعة ملكه لا تبعدك عنك، كما أن قربك لا ينقص من عظمتك. لكن معرفتك بالسعة تمنع حاجتك من أن تصير جداراً يحجب كل شيء. تقول: هذا الأمر كبير عندي، لكنه ليس أكبر من قدرة الله، وليس هو القضية الوحيدة في ملكه، وليس تأخره دليلاً أن العالم كله خلا من الرحمة.

وحين تعرف أن الحمد أوسع من رغباتك، تتحرر أيضاً من عبودية نتائج الناس. لا يصبح نجاح غيرك اتهاماً لك، ولا يصبح تعثرك شهادة أن الله أهملك. العطاء الدنيوي ابتلاء كما أن المنع ابتلاء؛ فقد يعطي الله من يحب ومن لا يحب من متاع الدنيا، وتكون الكرامة الحقيقية بالإيمان والتقوى. لذلك لا تقرأ منزلتك عند الله من رقم راتبك وحده، ولا من عدد من يحبونك، ولا من صورة جسدك، ولا من باب فتح لغيرك وأغلق عنك.

وإذا وفقك الله لطاعة فاحمده، واجتهد أن تصح نيتك، وابق خائفاً راجياً لا تزكي نفسك. اسأل الرزق والقدرة على الخير، واحذر أن يكون مطلبك مباهاة الناس أو الانتصار لنفسك بغير حق.

وقد تبقى الرغبة صالحة مؤلمة: ولد، أو شفاء، أو زوج صالح، أو رجوع غائب. لا نطلب منك أن تطفئها. إبراهيم سأل، وزكريا

سأل، وأيوب سأل كشف الضر، ويعقوب بقي يرجو. العبادة ليست موت الأمنية؛ هي أن تبقى الأمنية تحت ربوبية الله، لا أن تضع ربوبية الله تحت شرط الأمنية.

قد تجد تعلقك بأمنية يشتد مرة بعد مرة. سل الله أن يعينك على ألا يحملك التأخير على ترك واجب أو حسد غيرك. وقل: يا رب، ارزقني من فضلك، وأصلح قلبي، ولا تجعل ما أعطيتني أو ما فاتني فتنة لي في ديني.

هذه منزلة نتعلمها، لا دعوى نقول إننا بلغناها. قد يفاجئك البلاء فتضيق، وقد يسبق لسانك إلى الشكوى، وقد تحتاج وقتاً كي يعود قلبك إلى ما يعلم. لا تجعل تعثرك الأول حكماً نهائياً عليك. استغفر من الخطأ، واطلب عون الله، وردد المعنى حتى يستقر. الله حلیم غفور؛ وقد ختم آية تسبيح المخلوقات بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. مع هذا الكون المسبح، يغفل الإنسان ويقصر، فيمهله الله ويفتح له المغفرة.

والله حلیم غفور، فارجع إليه كلما وجدت تقصيراً. لا تجعل غفلة مضت سبباً في استمرارها. اذكره الآن بما شرع، ثم أصلح من عملك ما تستطيع.

وحين تصيبك نعمة تحبها، وسّع حمدك كذلك. لا تقل فقط: الحمد لله نجحت. قل: الحمد لله الذي أعطاني عقلاً أتعلم به، ووقتاً،

وأناساً أعانوني، وفرصة، وقوة، ثم كتب النتيجة. اللهم اجعل النجاح طاعة ولا تجعله فتنة. أنت لا تقلل من تعبك؛ تضع تعبك داخل الفضل الذي خلقتك وأقدرك وساق الأسباب. وحين لا يحدث شيء استثنائي، احمده على أنه الله.

وحين يحدث ما تتمناه، لا تترك الفرح يضيق بك كما ضاق بك الحزن. بعض الناس يتذكر الله في غرفة الانتظار، فإذا خرج التقرير سليماً أسرع إلى حياته كأن الطريق فتح نفسه. وبعضهم يلح عند طلب العمل، فإذا جاءه الراتب نسي الساعات التي رفع فيها يديه. ليست المشكلة أن يفرح؛ الفرح بالنعمة جميل. المشكلة أن يقف عند النتيجة ولا يعبر منها إلى المنعم.

خذ فرحتك كاملة إلى السجود. سمّ ما حدث من غير حياة: يا رب، هذا الذي سألتك، وقد فرحت به. ثم اسأل بركة تحفظه من أن ينقلب فتنة. فكم من رزق حمل صاحبه إلى الكبر، وكم من قبول جعله أسيراً للناس، وكم من صحة أنسته ضعف جسده. تمام العطاء ليس في وصول الشيء وحده، بل في أن يعينك الله على شكره واستعماله فيما يحب.

والحمد بعد الإجابة يحمي الذاكرة. ستأتي أيام يضيق فيها قلبك من جديد؛ فإذا كنت قد حفظت مواطن الفضل، لم يبدأ إيمانك في كل أزمة من الصفر. لا تجعل النعم القديمة تتبخر لأنها صارت

مألوفة. اكتب بعضها، وحدث بها على وجه الشكر من غير مباهاة، وأدّ حقها. الذاكرة المؤمنة لا تنكر الألم الجديد، لكنها لا تسمح له أن يمحو تاريخ الإحسان كله.

حين نتأمل تسبيح المخلوقات، تذكر أنك مأمور بذكر الله وشكره. قل «سبحان الله وبحمده»، وداوم على الأذكار الثابتة في أوقاتها ومقاديرها. ثم عد إلى مسؤولياتك بقلب يرجو الله، ويعلم أن حاجته لا تخرجه من سعة فضله.

يا رب، لا تجعل رغباتنا حجاباً عن معرفتك، ولا تجعل عطائك لنا فتنة تنسيناك. علّمنا حمداً يفرح بالنعمة، ويصبر عند الألم، ويثبت على الحق حين تتغير الأحوال.

لك الحمد على ما نحب، ولك الحمد لأنك أنت الحميد.

الباب الثالث

نعم البدن والمعاش

قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَنِ اللَّهُ﴾ [النحل: ٥٣]. يدخل في ذلك ما نعرفه من صحة وقوت ومأوى، وما يسره لنا من أهل وعون وعلم. تختلف أحوالنا فيما أعطينا، ويحتاج كل منا إلى أن يعرف نعمة الله في حاله، ويقوم بما يستطيع من شكرها.

ومن شكر النعمة أن نرحم من فقدها. فالقادر يفسح الطريق لمن تصعب عليه الحركة، وصاحب المأوى يعين من يحتاج إليه، والمعافي يرفق بالمرضى. لا نعد ما عندنا دليلاً على فضلنا على الناس، بل نسأل الله أن يعيننا على أداء حقه وحقوقهم.

الفصل الحادي عشر

هذا الجسد الذي يملكك

تمد يدك إلى حاجتك، وتمشي إلى عملك، وتقوم إلى صلاتك، وقد لا تلتفت إلى نعمة القدرة إلا إذا عرض ألم أو عجز. الاعتناء بالبدن وشكر عافيته لا يحتاجان إلى انتظار المرض؛ بل يبدأان بمعرفة أن الله خلقك ورزقك ما تقوم به حياتك.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۖ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۖ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الأنفطار: ٦-٨].

يردك القرآن إلى أصل لم تصنعه. لم تجمع أجزاءك، ولم تختار بداية تكوينك، ولم تمنح نفسك صورتها الأولى. وجدت بعبء سبق عملك، وحملت في أطوار لم تكن تملك فيها لنفسك طعاماً ولا حماية، ثم خرجت إلى الدنيا محتاجاً، وما زلت — مهما اشتدت قوتك — تعيش على مدد لا تنشئه وحدك.

الرفيق الذي لا تراه

ببدنك تؤدي كثيراً من عبادتك، وتسعى في رزقك، وتعين من يحتاجك. فله حق من الراحة والغذاء والعلاج، وعليك أن

تستعمل قوته في الخير. وإذا ضعفت قدرة أو تغيرت صورة، لم يكن ذلك حكماً على قيمة الإنسان عند الله.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه مسلم (٢٥٦٤). اعتن ببدنك، واعتن بقلبك وعملك، ولا تجعل جمال الصورة أو قوتها ميزاناً تزن به نفسك والناس.

النفس الذي لم تطلبه

من أقرب ما نعرفه من نعم الحياة النفس. نمضي في أعمالنا، وننام ونستيقظ، وحاجتنا إلى الهواء لا تنقطع. ومن تأمل هذه الحاجة عرف شيئاً من ضعفه وافتقاره، وشكر الله على العافية وتيسير أسبابها.

قال الله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١].

ما في النفس باب نظر. لا يلزم أن تعرف أسماء الأعضاء وتفاصيل وظائفها حتى تعرف الافتقار. يكفي أن تمر بضع لحظات من العطش لتعرف حاجتك إلى الماء، أو بدقائق من ضيق النفس لتعلم أن الهواء الذي لم تكن تذكره كان يحمل يومك كله.

لكننا لا نقول لمن يتنفس بصعوبة: انظر إلى النعمة واسكت. من ضاق نفسه يحتاج إلى عون وعلاج، وقد يحتاج من حوله إلى أن

يتعلموا كيف ييسرون عليه المكان والعمل والحركة. لا يتحول حديث الشكر إلى مطالبة المريض بأن يخفي ألمه كي لا يزج المعافين. ربما كان شكره اليوم أن يتداوى، وأن يصبر على جهاز يعينه، وأن يسأل من يعلم، وأن يحمد الله على القدر الذي بقي من القدرة.

وربما كان شكر الصحيح أن يكف أذى دخان عن غيره، أو يفتح نافذة، أو يفسح مكاناً، أو يعين إنساناً لا يقطع المسافة كما يقطعها هو.

حين ترى النعمة حقاً، تصير أرحم، لا أكثر زهواً.

حق الجسد عليك

زار سلمان أبا الدرداء رضي الله عنهما، وأقام عنده، فذكره بحق ربه ونفسه وأهله، وقال: «فأعط كل ذي حق حقه». وأقر النبي ﷺ قوله فقال: «صدق سلمان». رواه البخاري (١٩٦٨). كان هذا التوجيه جامعاً للعبادة ورعاية الحقوق، فلا يضيع بعضها بحجة الاشتغال ببعض.

تأمل كيف دخل حق النفس في ميزان العبادة، لا في خصومة معها. لم يقل له سلمان: دع الطاعة واسترح، ولم يقل: أجهد جسدك ولو ضاعت الحقوق. جعل لكل حق موضعه.

أحياناً يُهمل الإنسان بدنه باسم الجدية. يؤخر النوم والطعام والعلاج حتى ينهار، ثم يكتشف أن أعمالاً كثيرة كانت تقوم على صحة لم يشكرها. وأحياناً ينغمس في راحته حتى تصير كل مشقة عنده ظلماً، وينسى أن الجسد خلق ليعبد ويعمل ويعين، لا ليبقى في لذة دائمة.

الشكر بين الطرفين. أن تطعمه بلا إسراف، وترىحه بلا كسل مزمن، وتحركه بقدر استطاعتك، وتطلب له العلاج حين يحتاج، وتحميه من مؤذ تستطيع تركه. وأن تستعمل قوته قبل أن تنقص، من غير أن تنسى أن القدرة نفسها محدودة، وأن النتائج بيد الله.

قد يمرض الحريص، وقد يعافى من قصر زمنًا. نحن لا نملك ضمانات، لكننا نملك مسؤولية السبب. والاعتناء بالجسد لا يعني هلعاً عند كل إحساس، كما أن التوكل لا يعني تجاهل علامة تستدعي سؤال طبيب. بين الوهم والإهمال طريق من الرعاية الهادئة.

إذا تغير الجسد

سينظر بعض القراء إلى أجسادهم فلا يجدون الصورة التي تصفها كتب الامتنان عادة. أحدهم يولد باختلاف في جسده، وآخر يفقد قدرة بعد حادث، وثالث يعيش مع ألم لا يغادر، ورابع

تغيرت ملامحه بعلاج أو عمر. لا يصح أن نقف أمام هؤلاء فنكرر: «انظروا كيف تعمل الأعضاء في كمال»، كأنهم خارج الخطاب.

الجسد المتألم ما زال خلق الله وأماته. والإنسان الذي يحتاج إلى عكاز أو كرسي أو جهاز ليس أقل كرامة، ولا حياته تعليق على حياة «كاملة» يتخيلها الآخرون. له أن يحزن على ما فقد، وأن يطلب استعادة ما يمكن، وأن يضيق أحياناً من ثقل الحاجة. وله نعم تخصه وأبواب عبودية تناسب استطاعته، لا يملك أحد أن يعدها عنه أو يفرض عليه كيف يشعر بها.

جاءت امرأة كانت تُصرع إلى النبي ﷺ تسأله أن يدعو لها، فخيرها بين أن تصبر ولها الجنة، وبين أن يدعو الله أن يعافها. اختارت الصبر، وطلبت أن يدعو ألا تتكشف، فدعا لها. رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦). هذا وعد خاص ثبت لها، ولا يجوز أن نلزم به مريضاً آخر بترك العلاج. وفي خبرها فضل الصبر وعناية الشرع بكرامة المبتلى وحاجته.

ومن تمام شكر المجتمع أن يفتح الطريق للجسد المختلف، لا أن يبني كل شيء لصورة واحدة ثم يمدح أصحابها على صبرهم عند الأبواب المغلقة. منحدر يسهل الحركة، ومعلومة قابلة للسماع والقراءة، ووقت عمل مرن، وكرسي مناسب، واحترام لا تشوبه

الشفقة المستعلية؛ كلها صور من شكر القوة بتمكين غير القادر على الصورة نفسها.

لا تنتظر المرض كي تحب العافية

اعتن بما أبقي الله لك من قدرة، واطلب ما يحتاجه بدنك من راحة أو علاج. وإذا رأيت من يعجز عما تقدر عليه، فافرق به وأعنه. اللهم لك الحمد على عافيتك، ونسألك أن تحفظ علينا ديننا وأبداننا، وأن تجعل قوتنا عوناً على طاعتك.

الفصل الثاني عشر

نوافذك إلى العالم

تسمع من يناديك، وتقرأ ما تحتاج إليه، وتبين عن حاجتك، فتجتمع لك نعم قد تغفل عن قدرها. بالحواس والبيان نتعلم وتتواصل، ونعرف كثيراً مما حولنا. وقد ذكرنا الله بأصل هذه المنن فقال:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾

[النحل: ٧٨]

كنت لا تعلم اسماً، ولا تميز وجهاً، ولا تفهم عبارة. ثم أُعطيت أبواباً يتكون بها عالمك شيئاً فشيئاً. سمعت حتى ألفت الأصوات. رأيت حتى عرفت الوجوه والمسافات. وعقل قلبك ما يصل إليه، وربط بين المشهد والمعنى، وبين النبرة وصاحبها، وبين الكلمة والذكرى.

ذكر الله السمع والأبصار والأفئدة، ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فنتعلم بها ما ينفعنا، ونحفظها عن الحرام، ونستعملها في أداء الحقوق.

نعمة السمع

قد تسمع صوتاً مألوفاً فتفرح بصاحبه، أو تسمع علماً فيرفع عنك جهلاً، أو نداءً فتدرك حاجة إنسان.

قد تحفظ نبرة أمك وهي تنادي اسمك أكثر مما تحفظ عشرات الخطب. وقد يرتبط الأذان في ذاكرتك بحبي قديم، ونافذة بعينها، وطفولة كنت تظن أنها لن تنقضي. وقد تلتقط من صوت إنسان تحبه انكساراً حاولت كلماته أن تخفيه. السمع لا يحمل حروفاً فقط؛ يحمل قرباً وطمأنينة وتحذيراً وعلماً.

به سمعت أول من علمك. وبه وصل إليك قرآن لم تكن تنتظر في مصحف حين سمعته. وبه انتهت إلى طفل يبكي، وإلى مركبة تقترب، وإلى مستغيث يحتاج أن تفتح له الباب. ومن شكر السمع أن تدرك أنه لم يعط لك لتملأه بما يبدد قلبك وحده، بل لتسمع الحق، وتصغي إلى من له عليك حق، وتمنح المحتاج إلى الكلام إصغاءً حقيقياً.

كم مرة جلس إليك إنسان، وبقيت عينك في هاتفك، ينتظر منك أن تسمعه بينما كنت تجهز جوابك؟ وكم مرة وصلتك كلمة جارحة فحملتها إلى غيرك، كأن أذنك ممر لا حارس عليه؟ ليست كل قدرة على السماع حسن سماع. قد يصل الصوت إلى الإنسان ولا يصل معناه؛ ولذلك قال الله عن الاعتبار: ﴿أفلم يسيروا في

الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴿[الحج: ٤٦]﴾.

ومن شكر السمع أن تصغي إلى والديك وأهلك، وأن تفهم حاجة من يستعين بك، وأن تكف عن سماع ما حرم الله. لا تكفي القدرة على السماع إذا أهملنا بها حقوق من نسمعهم.

نعمة البصر

أما البصر، فإنه يختصر لك مسافات لا تشعر بها. تدخل مكاناً فتدرك مواضع الأشياء دفعة واحدة. تقرأ وجهاً، وتنفادى عائقاً، وتتعرف طريقاً، وتجمع حروف هذه الصفحة في معنى. ترى لون السماء قبل المطر، وتغير ملامح من تحب، وأثر الأيام في وجه أبيك، ونظرة طفل ينتظر رضاك.

ولأن العين سريعة، قد تسبق القلب. ترى كثيراً ولا تتأمل. تمر على شجرة كل يوم ولا تنتبه إلى تحولها بين فصلين. تنظر إلى وجه قريبك ولا تدرك أنه متعب. تقرأ آية وتحرك عينك إلى التي بعدها قبل أن تنزل الأولى إلى موضعها منك.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿٨-١٠﴾. ومن شكر ما آتانا الله أن ننظر وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿[البدر: ١٠-٨]﴾.

فيما ينفع، وأن نصرف أبصارنا عما حرم، وأن ننتبه لحاجة الضعيف القريب منا.

شكر العين ليس أن تمدح دقة الرؤية فقط. شكرها أن تصونها، وأن تحررها من التحديق الذي يعتدي، ومن المقارنة التي تفسد، ومن الصور التي تدخل القلب ثم تتركه أقل نقاء. وأن تستخدمها في قراءة نافع، وملاحظة محتاج، وتأمل آية، ورؤية الجميل المباح من غير أن تنسى من زينّه.

ولا تجعل المظهر وحده أساس معاملتك للناس. احفظ كرامتهم، وأعن صاحب الحاجة، ولا تسخر ممن ابتلي بما عوفيت منه.

نعمة البيان

في داخلك أشياء لا يراها أحد حتى تجد لها طريقاً: حاجة، أو خوف، أو اعتذار، أو حب، أو فكرة. ثم من الله على الإنسان بالبيان: ﴿خلق الإنسان ﴿ب﴾ علمه البيان﴾ [الرحمن: ٣-٤].

يعيننا البيان على إيصال المعنى وفهم كلام بعضنا. ومن وسائل التواصل الكلام والكتابة والإشارة وما تيسر من أجهزة تعين من تعذر نطقه. وهذه الوسائل نعمة حين نستعملها بالصدق والإحسان.

تأمل بساطة جملة: «أنا متعب». كم تدفع من سوء الفهم حين تقال بصدق. وجملة: «أخطأت، فسأحني». كم تعيد من شيء ظن الناس أنه انكسر إلى الأبد. وجملة: «أنا معك». قد لا تغير تقريراً طبيّاً، ولا تسدّد ديناً، لكنها تمنع إنساناً من أن يواجه ليلته وحيداً.

ويمكن للنعمة نفسها أن تنقلب أذى. كلمة واحدة تشيع فتجرح بيتاً، أو سخرية تعلق في ذاكرة طفل، أو اتهام يسبق التثبت، أو سر ينشر بعد خصومة. ولذلك وضع النبي ﷺ بوابة أمام الكلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»؛ رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

وقد يجب الكلام في شهادة أو نصيحة أو دفع ظلم. فزن كلامك بالحق وما يترتب عليه من نفع أو ضرر، واسأل أهل العلم إذا التبس عليك حكمه.

ليست الكرامة في اكتمال الحاسة

لا ينبغي أن نكتب عن نعمة السمع كأن من فقداه محروم من كل وصول، ولا عن البصر كأن من لم يبصر يعيش خارج العالم. الناس لا تختصرهم حواسهم. قد يفقد إنسان حاسة وتفتح له طرق أخرى للتعلم والتواصل والعمل، وقد يملك آخر الحواس كلها ثم يغلق قلبه عن الحق وعن الناس.

ذكر الله في سورة عبس مجيء الأعمى، وأنه جاء يسعى وهو يخشى، وعاتب نبيه ﷺ في الإعراض عنه. وفي ذلك بيان للعناية بمن يريد الهدى، وأن ضعف البصر لا ينقص حق صاحبه في العلم والاحترام.

من حق الأصم أن يجد ترجمة وإشارة وتعليماً يفهمه. ومن حق الكفيف أن يكون الطريق والكتاب والخدمة قابلة للوصول. ومن حق من يعجز عن النطق أن يُمهّل حتى يبين بطريقته، لا أن يتكلم الآخرون عنه كأنه غائب. فإذا حمد الصحيح ربه على قدرته ثم لم تجعل منه رحمته أيسر على الناس، بقي من معنى الشكر شيء لم يصل إلى جوارحه.

وإن كنت أنت ممن فقد حاسة، أو ضعفت عنده، فلا يحق لأحد أن يحول الحديث عن النعم إلى تعداد لما يؤلمك. هذا الكتاب لا يطالبك أن تصف النقص بأنه لا يؤلم. لك أن تطلب العلاج والعون، ولك أن تحزن على ما تعذر، ولك في الوقت نفسه أن تفتش برفق عن الأبواب التي بقيت، وعن الوسائل التي يسرها الله، وعن المعاني التي تستطيع أن تبلغك ويبلغ بها صوتك إلى الناس.

لا توجد صورة واحدة للشكر تصلح لكل جسد.

اختر اليوم معروفاً تؤديه بما أعطاك الله: استمع إلى من يحتاج أن يفهمه أحد، أو اقرأ علماً نافعا، أو قل كلمة تصلح بها خلافاً. واحمد الله على القدرة، واسأله حسن استعمالها.

الفصل الثالث عشر

من الحبة إلى المائدة

اللقمة التي تصل إليك سبقها ماء وأرض وعمل. وربما أكلتها سريعاً، فلم تذكّر شيئاً من ذلك. يردنا القرآن إلى النظر في هذه النعمة، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]، ثم ذكر صب الماء وشق الأرض وإنبات الزرع والثمار متاعاً للناس وأنعامهم. فإذا تأملت طعامك عرفت حاجتك إلى خالقك، وشكرته على ما رزق، وحفظت حقوق من عملوا حتى وصل إليك.

الشكر عند الطعام

كان النبي ﷺ لا يعيب طعاماً؛ إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه. رواه البخاري (٥٤٠٩)، ومسلم (٢٠٦٤). في هذا أدب قريب نحتاجه على موائدنا: ألا نجعل اختلاف أذواقنا سبباً لإيذاء من أعد الطعام، وألا نقابل النعمة بالازدراء. كل مما أحل الله، واحمده، واشكر من أحسن إليك.

لم تبدأ النعمة عند باب المتجر

النقود سبب مهم. بها تشتري وتختار، وقد يتعب الإنسان سنوات ليكسبها. لكن النقود لا تثبت حبة، ولا تنزل ماء، ولا تخلق شهية، ولا تمنح الجسد قدرة الانتفاع. تستطيع أن تدفع ثمن الطعام، ولا تستطيع أن تدفع ثمن كل رحمة اجتمعت فيه.

قال الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرثُونَ﴾ أأنتم تزرعون أم نحن الزارعون ﴿[الواقعة: ٦٣-٦٤]﴾. للإنسان حث حقيقي، وتعب حقيقي، وخبرة تستحق أن تُحفظ ويؤدي أجرها. لا تلغي الآية عمله؛ تضعه في موضعه. اليد تضع البذر وتسقي وتتابع، لكنها لا تصنع سر الحياة في الحبة. العامل يأخذ بالسبب، والنتيجة لا تخرج من ملك الله.

هذا المعنى لا يصغر شأن الفلاح أو الخباز أو الطاهي. بل يعيده إلى الكرامة: هو سبب سخره الله، وشكره من شكر النعمة. من السهل أن تقول في آخر الطعام «الحمد لله»، ثم ترفع صوتك على من أعدّه، أو تؤخر أجر من حمله، أو تحتقر مهنة من نظف المكان بعدك. لكن اللسان حين يعرف المنعم لا يحو الوسائط؛ يشكر الله أولاً، ثم يحفظ للناس جميلهم وحقهم.

خلف مائدتك أناس قد لا تعرف أسماءهم. بعضهم بدأ يومه قبل يومك، وبعضهم عمل في حر أو برد، وبعضهم قاد ليلاً، وبعضهم

حمل ما لا تريد أنت أن تحمله. ليس عليك أن تعيش مثقلًا بكل هذه الصور، لكن يكفي ألا تتعامل مع وصول الطعام كأنه حق نشأ وحده، وألا تجعل حاجتك سببًا لإذلال من خدمها.

حين يكون القليل كافيًا

عاشت بيوت النبي ﷺ أوقاتًا لا توقد فيها نار، وكان القوت تمرًا وماء، ويأتيهم اللبن من جيران لهم. رواه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢)، عن عائشة رضي الله عنها. لا نروي هذا لنصنع فضيلة من الجوع، ولا لنقول لمن عجز عن إطعام أهله إن حاجته وهم. الجوع يؤلم، وإطعام الجائع من أعظم القرب، وطلب الكفاية والعمل لها مشروع.

لكن المشهد يرد ميزانًا اختل: كرامة الإنسان عند الله لا تقاس بكثرة الأصناف على مائدته. وقد يكون بيت قليل الطعام ممتلئًا إيمانًا ومودة، وبيت كثير الطعام تأكله المقارنة والإسراف. ليس الفقر طهارة بذاته، ولا الغنى تهمة بذاته؛ الامتحان فيما عندك: من أين جاء؟ كيف تستعمله؟ وماذا بقي في قلبك بعد أن شبع؟ إن كنت تملك طعامًا متنوعًا، فلا تتصنع الزهد بتحريم ما أحل الله. كل منه بقدر، وشارك، ولا تتكبر. وإن كان طعامك بسيطًا، فلا تحتقره لأن الصور أقنعتك أن المائدة لا تستحق إلا إذا ازدحمت.

قد يكون في القوت اليسير ستر وكفاية وصحة لا تراها عين منشغلة بالمقارنة.

وإن كنت تعاني ضيقاً حقيقياً، فليس خطابنا أن «تشكر وتسكت». لك حق السعي والسؤال المشروع، وعلى القادرين أن يطعموك ويقيموا من العدل ما يحفظ كرامتك. لا ينبغي أن يصبح حديث النعمة وسيلة لتجميل فقر يمكن رفعه، أو لتبرير أجر لا يكفي، أو لإعفاء المجتمع من واجبه. شكر الغني لا يكون بأن ينظر إلى الجائع ثم يشعر بالراحة؛ يكون بأن تتحرك يده.

الإحسان بما رزقت

ومن الإحسان سقي العطشان ولو كان حيواناً. أخبر النبي ﷺ عن رجل سقى كلباً اشتد به العطش، فشكر الله له وغفر له. رواه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤). ننتفع بالماء ونعرف قدره، ثم نحسن به إلى ما يحتاجه من خلق الله، ونرجو فضل الله وثوابه.

حقوق نتصل بالطعام

للطعام حق في جسدك: ألا تحوله إلى ضرر متعمد أو إسراف. وله حق في مالك: أن يكون من حلال. وله حق في الناس: أن تؤدي أجر من عمل، وتشكر من أعد، ولا تعيب ما لم تشته. وله حق في

المحتاج: ألا تنسى جوعه وأنت توسع اختياراتك. وله حق بعد الشبع: ألا ترمي الصالح منه لأنك أسأت التقدير.

قال الله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. جمع الإباحة والحد. لم يجعل اللذة خصماً للعبادة، ولم يتركها بلا ميزان. تستطيع أن تستمتع بالطعام وتشكر، كما تستطيع أن تزهد في صنف وتتفاخر بزهدك. القضية ليست في هيئة الطبق وحدها، هي في المصدر والقلب والاستعمال.

ولا نعطي وصفة واحدة للأبدان. ما يناسب إنساناً قد لا يناسب آخر، والمريض يرجع إلى أهل الاختصاص. ليس من الشكر أن يترك الإنسان علاجاً موصوفاً له باسم التوكل، ولا أن يلام من تضطرب شهيته بسبب مرض أو دواء أو حزن. نذكر أصل الاعتدال، ونترك التفاصيل لمن يعرف الجسد وحاله.

نعمة أن ينتفع الجسد بما وصل

قد تمتلئ المائدة، ويعجز صاحبها عن الأكل. يكون الطعام قريباً، لكن المرض حال بينه وبين شهيته، أو جعل البلع شاقاً، أو قيد ما يستطيع تناوله. عندها تنكشف طبقة أخرى من النعمة: ليس وصول الرزق إلى البيت آخر الطريق؛ من العطاء أيضاً أن يتيسر الجسد للانتفاع به.

إذا اجتمعت لك القدرة على الأكل والانتفاع بالطعام، فاشكر الله. وتذكر أن وجود الطعام وحده قد لا يكفي المريض؛ فقد يحتاج نوعاً خاصاً أو مساعدة أو رفقا يرفع عنه الحرج.

وهنا أيضاً يلزم الأدب. من ابتلي بمرض يؤثر في طعامه لا يحتاج أن يسمع عند كل وجبة موعظة عن النعمة. يحتاج إلى أن يسأل ماذا يناسبه، وأن يحفظ من الإحراج، وأن يعد له ما يستطيع بقدر الإمكان. وقد يكون شكر أهل البيت أن يتعلموا حاله، لا أن يضعوا أمامه ما منع منه ثم يطلبوا منه الرضا.

وكذلك من تضطرب علاقته بالطعام بسبب ألم نفسي أو خبرة قاسية يحتاج علماً ورحمة، لا سخرية ولا أوامر عابرة. الحمد لا يغني عن العلاج، والعلاج نفسه من استعمال الأسباب التي يسرها الله.

ثم إن الشبع نعمة أخرى. ربما أكلت حتى سكت الجوع، فواصلت لأن اللذة بقيت أو لأن الطعام أمامك. الاعتدال ليس حرباً على المتعة؛ هو أن تعرف متى أخذ الجسد حاجته، وأن لا تجعل كل رغبة أمراً يجب تنفيذه. وقد يكون حفظ النعمة في أن تضع قدراً أقل أولاً، ثم تزيد إن احتجت، بدل أن تملأ ما سترميه.

إذا انتقلت النعمة من يدك

ليس إطعام الطعام تخلصاً من فائض يزججك، ولا فرصة ليظهر كرمك في صورة. من حق المحتاج أن تصل إليه اللقمة بكرامة. لا تسأله أمام الناس ما يفضحه، ولا تجعل وجهه إعلاناً، ولا تذكر عطيتك كلما احتجت إلى مدح نفسك.

في الحديث الصحيح أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن خير الإسلام، فقال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»؛ رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩). جمع طعام الجسد وأمان التحية، وبذلك خرج الدائرة الضيقة للمعارف.

وقد يسهل عليك إطعام إنسان بوجبة ترسلها، أو مشاركة أهل بيت، أو المساهمة مع جهة موثوقة. لا تربط المعروف بصورته أمام الناس؛ اجتهد في إخلاصه، وأوصل الطعام صالحاً على وجه يحفظ كرامة من يأخذه.

ولا تنس الحيوان. أباح الله الانتفاع بما أباح من الأنعام، وجعل فيها طعاماً ودفئاً ومنافع، وأمر بالإحسان. من شكر ما يصل منها ألا تتحول قدرتنا عليها إلى تعذيب أو إهمال. وفي قصة سقي الكلب درس لا يفصل بين الرحمة بال مخلوق والحمد على الماء: ما أنقذ عطشك تستطيع أن تحفظ به حياة غيرك.

هكذا تتسع المائدة. تبدأ بلقمة أمام شخص، ثم يظهر حولها جسد ينتفع، وناس يعملون، وفقير له حق، ومخلوق يستحق الرفق، وأرض وماء ينبغي ألا يفسدا.

حينها تفهم أن سؤال النعمة ليس: هل شبت وحدي؟ بل: ماذا صنع الشبع في قلبي ويدي؟

سَمَّ الله عند طعامك، وكل مما يليك، واحمده إذا فرغت. واحفظ ما يصلح من الفائض، واشكر من أعده، واجعل للمحتاج نصيباً مما تستطيع. إن الذي رزقنا الطعام يستحق أن نشكره، ومن شكره ألا نستعين بنعمته على إسراف أو أذى.

حين تضع رأسك بأمان

قد تعود آخر النهار إلى بيت تعرفه وتأمن فيه، فتغلق بابك وتستريح. هذه نعمة وإن كان البيت صغيراً أو كان في بالك ما هو أوسع منه. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]. نحمده على المأوى، ونسأله أن يعيننا على جعل بيوتنا مواضع ستر ورفق ومعاشرة بالمعروف.

نعمة المأوى

يحفظ البيت خصوصيتك، ويقيك مما تقيك منه جدرانہ وسقفه، ويجمع لك متاعك وأهلك. قد تتكرر هذه المنافع فلا تذكرها، مع أنك تعرف قدرها حين تفتقد مكاناً تستقر فيه.

وقد جمع النبي ﷺ هذا المعنى في ذكر كان يقوله عند مضجعه: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»؛ رواه مسلم (٢٧١٥).

تذكر بهذا الذكر كفاية الله وإيواءه لنا، كما تذكر من يحتاج إلى مأوى. فإذا وسَّع الله علينا فلنجعل لغيرنا نصيباً من العون، من غير من ولا انتقاص لكرامته.

شكر البيت قد يكون مساهمة في إيواء محتاج، أو عدلاً مع مستأجر، أو صيانةً لمكان يسكنه عامل، أو فتح باب لضيف بقدر الطاقة. وقد يبدأ بأقرب من ذلك: أن تجعل بيتك مأوى لأهله، لا بناء يخافون من ساكنيه.

متى يكون البيت بلا سكن؟

قد يكون المنزل نخماً ولا يجرؤ طفل فيه على الكلام. وقد يكون بابه محكماً، لكن أحد أهله لا يأمن غضباً ولا إهانة. وقد تمتلئ غرفه بالأثاث، وتخلو من كلمة احترام.

السكينة لا تُشترى كلها. نعم، ضيق المكان متعب، والفقر في السكن مشكلة حقيقية لا تعالج بخاطرة، ومن حق الناس أن يسعوا إلى الأوسع والأصلح. لكن تحسين الحجر لا يغني عن إصلاح العلاقة. أجمل غرفة لا تؤوي قلباً يهان فيها.

من شكر المسكن أن تحفظ فيه الأسرار، وأن تمنح أهلك نصيباً من الرفق الذي تمنحه للغرباء، وأن يكون القوي فيه أماناً للضعيف. ليس الحمد أن تكتب آية على جدار ثم يعلو خلفه الظلم. الحمد أن يشعر من يعيش معك أن قربك لا يهدده.

وإذا كنت في بيت مؤذ، فلا يحق لأحد أن يستخدم كلمة «السكن» ليطلب منك إنكار ما يقع. العنف ليس تفصيلاً عائلياً

يجب ستره على حساب سلامة المعتدى عليه. طلب الإصلاح والحماية والمشورة المتخصصة لا يناقض الرضا ولا الشكر. وقد يحتاج السكن الحقيقي إلى حدود، أو تدخل، أو خروج مشروع من أذى.

نسأل الله أن يصلح أهل بيوتنا، ويعيننا على المعاشرة بالمعروف.

ثوب بينك وبين العالم

وقبل أن تدخل بيتك، كان عليك ثوب. يرافقك قريباً من الجسد حتى لا تكاد تنتبه إليه. يستر، ويحمي من بعض الحر والبرد، ويهيئك للقاء الناس بكرامة. قال الله: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ [الأعراف: ٢٦].

ذكر الستر والزينة، ثم رفع النظر إلى ما لا تصنعه الأقمشة: لباس التقوى.

ليس الجمال عدواً للحمد. أن تختار ثوباً نظيفاً حسناً وتفرح به من المباح. لكن الثوب لا يزيد قدر صاحبه عند الله لمجرد ثمنه، ولا ينقص الفقير قلة ما يملك. حين تتحول الملابس إلى سباق لا نهاية له، تضيق الخزانة بما فيها بدل أن تتسع. وحين يخجل طفل من

ثوبه لأن أقرانه قاسوا الإنسان بعلامته، تكون النعمة قد استعملت في كسر قلب.

شكر اللباس أن يكون من طريق مباح، وأن يستر بلا كبر، وأن تحفظه بدل أن تهدره، وأن تمنح الصالح منه لمن يحتاجه بكرامة. ومن الشكر أن تُصمم الثياب وتُختار بما يلائم المريض وكبير السن وذوي الإعاقة؛ فالقطعة الجميلة التي لا يستطيع صاحبها استعمالها لم تؤد وظيفتها له.

وقد تكون لديك ثياب كثيرة لا تلبسها، بينما تعلق نفسك بالقطعة التي لم تشتريها بعد. افتح خزانتك بعين أخرى. لا لتلوم نفسك على كل شيء، بل لترى مقدار ما سُترت به في أيام لم تتوقف عندها.

نعمة النوم

ثم يأتي النوم.

تضع رأسك، وتنقطع قدرتك الواعية عن متابعة ما تحب. لا تراقب بابك، ولا تمسك أبناءك بعينيك، ولا تدير العمل الذي تركته، ولا تحفظ ما في الخزانة. تسلم نفسك لعجز لا تستطيع الاستغناء عنه، ثم تُرد إليك يقظتك إن أذن الله.

قال سبحانه: ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ وجعلنا الليل لباساً ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ [النبا: ٩-١١]. النوم قطع وسكون، والليل

ستر، والنهار مجال للسعي. نظام يتكرر حتى يبدو مضموناً، مع أنك لا تستطيع في كل ليلة أن تأمر النوم فيأتي.

شكت فاطمة رضي الله عنها ما تلقى من العمل، وطلبت خادماً. فدلها النبي ﷺ وعلياً رضي الله عنه على ذكر عند النوم خير لهما من خادم: التسبيح ثلاثاً وثلاثين، والتحميد ثلاثاً وثلاثين، والتكبير أربعاً وثلاثين. رواه البخاري (٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧). نحفظ هذا الذكر بلفظه وعدده، ونعمل به، مع إعطاء البدن حقه من الراحة وطلب العون عند الحاجة.

من شكر النوم أن تهين له ما تستطيع، وأن تعطي البدن حقه، وألا تجعل السهر بطولة دائمة. ومن شكره أن تحترم نوم غيرك: تخفض صوتك، وترحم طفلاً ومريضاً وعاملاً عاد في غير وقتك. البيت الذي لا يستطيع ضعيف فيه أن ينام يحتاج إلى مراجعة معنى الرحمة.

ولمن لا يأتيه النوم

هناك من يقرأ هذا الكلام بعد ليلة أرق. يضع رأسه، فتستيقظ المخاوف كلها. وهناك أم يقطع نومها رضيع، وممرض يعمل ليلاً، وحارس لا يهدأ إلا بعد أن يستيقظ الناس، ومريض يمنعه الألم، وإنسان لا يملك مكاناً آمناً يغمض فيه عينيه.

لا نصف كل أرق بضعف التوكل. قد تكون له أسباب صحية أو نفسية أو يبيئية تحتاج علاجاً وتنظيماً ومساندة. والذكر سكينه وعبادة، لكنه لا يمنع سؤال المختص ولا طلب الدواء المعبر. شكر ما بقي من الليل قد يكون أن تطلب المساعدة بدل أن تواصل الانهيار صامتاً.

ومن لا يملك بيتاً لا نقول له: ابحث عن السكن في قلبك وكفى. المعاني الإيمانية تسنده، لكنها لا تعفي القادرين من حقه في مأوى مأمون. الجائع يحتاج طعاماً، والخائف يحتاج حماية، ومن لا مؤوي له يحتاج سقفاً، إلى جانب الكلمة والدعاء.

هنا يظهر صدق الحمد: لا يجعل نعمتك حجة على محروم، بل يجعلها طريقاً إليه.

قبل نومك، راع حق من في بيتك: اخفض صوتك، وكف أذاك، وأصلح ما تستطيع من خلاف. ثم اذكر الله بما ثبت عند المضجع، ومنه: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي». رواه مسلم (٢٧١٥).

الفصل الخامس عشر

يوم من عمرك

قد تنتظر نهاية الدوام، ثم نهاية الأسبوع، ثم الإجازة، حتى تمضي أيام كثيرة وأنت تفكر فيما بعدها. لكن هذه الأيام نفسها من عمرك؛ فيها صلاتك وعملك وأهلك، وفيها فرص الخير التي قد لا تعود بالصورة نفسها.

أقسم الله بالعصر، ثم قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر. [العصر: ٢-٣].

الوقت رأس مال ينقص وهو في يدك. لا يتوقف حتى تختار مشروعك، ولا يعود لأنك اكتشفت متأخراً كيف كان ينبغي أن تستعمله. لكن السورة لا تترك الإنسان داخل الخسارة؛ تفتح أربعة أبواب تجعل مرور الزمن طريق نجاة: إيمان، وعمل صالح، وحق يتواصى به الناس، وصبر يحملهم على الطريق.

ليس السؤال إذن: كم أنجزت أمام الناس؟ بل: ماذا صار في الزمن الذي منحتة؟

النعمة التي لا تمسكها يديك

المال ظاهر؛ تستطيع عدّه. والبيت ظاهر؛ تستطيع تصويره. أما الساعة فتمر بلا جسم، ولذلك يسهل إنفاقها في غير شيء. قد تحفظ مبلغاً صغيراً من الضياع، ثم تترك أمسية كاملة تتبدد بين انتقالات لا تذكّر منها شيئاً.

قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»؛ رواه البخاري (٦٤١٢). والغبن يظهر حين تملك شيئاً نفيساً ثم تخرجه بثن قليل. الصحة قدرة، والفراغ مساحة؛ فإذا اجتمعا ولم يعرف صاحبهما قدرهما مضياً، وربما عرف قيمتهما حين صار العمل الذي كان يسيراً بعيداً.

واغتنام الوقت يشمل الراحة المباحة التي تعين على الواجب، والجلوس مع الأهل، وبر الوالدين، وما ينفعك في دينك ودنياك. لا تقسه بما يراه الناس من إنجاز وحده؛ انظر إلى الحقوق التي أدتها وإلى الخير الذي فعلته.

اليوم الذي يراه الناس فارغاً

يختلف وزن الوقت باختلاف أحوال أصحابه. أم ترعى طفلاً قد تصل إلى المساء وهي لا تستطيع تسمية «إنجاز كبير»، مع أن يومها كان ممتلئاً بحفظ نفس وتهذئة خوف وإطعام وتعليم. إنسان يرافق

أباً مريضاً قد يظن أن عمله توقف، بينما الساعات التي قضاها قربه من أجل ما ادخر. ومريض يجاهد كي يستحم أو يلتزم بعلاجه لا يقاس بمن انطلق صحيحاً بين عشرة أعمال.

لا تجعل حديث إدارة الوقت سوطاً على ظهر المتعب. القدرة نفسها متفاوتة. قال الله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ليس المقصود أن نختبئ وراء العجز المتوهم، بل أن نعرف الوسع الحقيقي، فنملأه بما يصلح من غير مقارنة ظالمة.

قد يكون شكر وقت المريض صبر ساعة، وصلاة على هيئة يستطيعها، ومكاملة لا يقطع بها رحماً. وقد يكون شكر وقت الصحيح أن يحمل عنه موعداً، أو يقضي له حاجة، أو يترك له مكاناً في جدول لم يملأه كله بنفسه.

والعاطل عن العمل لا يصبح بلا قيمة لأن مؤسسة لم توظفه. البطالة ألم حقيقي؛ فيها حاجة مالية ووحشة واضطراب معنى، ولا تعالج بقولنا إن عندك وقتاً فاحمد فقط. وله أن يسعى بما يستطيع، ويتعلم ويطلب، وعلى المجتمع وأصحاب القرار أن يفتحوا أبواباً عادلة. لكن بين محاولتين يمكن أن يحفظ الإنسان يومه من أن يتحول إلى انتظار فارغ: فرض يؤديه، ومهارة يبنيا، وبيت يعين فيه، ونفس يحميها من اليأس.

وظيفتك ليست اسمك كله، وفقدتها لا يحو كل أبواب النفع.

الطريق جزء من العطية

نحسب غالباً أن اليوم يبدأ حين نصل. أما الطريق فزمن معلق بين مكانين. نقوده، أو نجلس في مركبة، أو نمشيه، ونحن نريد أن ينتهي.

لكن الطريق نفسه نعمة مركبة. أرض مهدت، ومركبة صنعت، ونظام يحفظ الاتجاه، وناس عملوا في بناء وصيانة، وقدرة على الحركة، وأمن يرجو معه الخارج أن يعود. علم الله عباده عند الركوب أن يقولوا: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴿[الزخرف: ١٣-١٤]﴾.

تجمع الآيتان رحلتين: مسافة قريبة طواها ركوب مسخر، ورجوعاً أكبر إلى الله. لا يحمل الدعاء معنى الخوف من كل سفر، بل معنى العبودية وسط القدرة: ما كنت مستطيعاً لهذا لولا أن سخره الله، ولن تبقى مسافات الدنيا مفتوحة لك إلى الأبد.

شكر الطريق أن تحفظ حق من يشاركك فيه. ألا تجعل قوة المركبة تهديداً لضعيف، ولا استعجالك عذراً للأذى. أن تميّط ما تستطيع من ضرر، وأن تفسح، وأن تراعي من يمشي ببطء، وأن تعرف أن الوصول الذي اعتدته قد يكون شاقاً على من لم تُهيأ له الأرصفة والمداخل ووسائل النقل.

ومن امتلك وسيلة أيسر لا يصير أعلى قدراً ممن انتظر حافلة أو مشى. المركب أداة، لا رتبة إنسانية. كلما اتسعت قدرتك على قطع المسافة اتسعت مسؤوليتك في حسن الاستعمال.

العمل: أن تترك للقدرة أثراً

حين تصل إلى عملك، قد ترى الواجبات فقط: رسائل، وطلبات، وأرقام، وأشخاص يريد كل منهم شيئاً. وطول التكرار يخفي وجوه النعمة فيه: قدرة نتعلم، ويد تنتج، وحاجة للناس تسهم في قضائها، ورزق يأتيك من طريق مباح.

قال النبي ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»؛ رواه البخاري (٢٠٧٢). قيمة العمل هنا ليست في شهرته، بل في الكسب الطيب والاستغناء عن سؤال الناس. ليست المهنة المتواضعة أقل شرفاً إذا قامت بحاجة وأدبت بأمانة، ولا المهنة اللامعة أشرف إذا قامت على ظلم أو خيانة.

وقد يحتاج العامل إلى من يخفف عنه، ولا ينافي ذلك شكر القدرة على العمل. من العدل أن نعرف حدود الطاقة، وأن نتعاون على الأعباء، وأن يلتقى من يعمل تقديراً وحقاً وأجراً يؤدي إليه في وقته.

قد يكون عملك ثقيلاً، أو بيئته غير عادلة، أو الأجر دون حاجتك. لا نطلب منك أن تسمي الظلم نعمة. لك أن تطلب حقك، وأن تبحث عن أصلح، وأن تضع حدوداً، وأن تستعين. لكن لا تجعل سوء جانب يحو كل ما تعلمته، ولا تجعل النعمة في أصل القدرة ذريعة لغيرك كي يستنزفك. الحمد لا يسقط حقوق العاملين؛ من شكر صاحب العمل أن يؤدي الأجر ويعدل، ومن شكر العامل أن يتقن ما أوّمن عليه بقدر العقد والاستطاعة.

وفي صحيح مسلم (٢٦٦٤) قول النبي ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز». جمع حركة القلب واليد: حرص على النافع، واستعانة بالله، ومقاومة للعجز. لا العمل يستقل عن الله، ولا التوكل يطفئ العمل.

حق يومك

قد لا تحتاج إلى خطة معقدة. اسأل كل صباح: ما الحق الذي إن حفظته اليوم كان يومي في موضعه؟

ربما يكون صلاة في وقتها، أو موعد علاج، أو مهمة تؤدي بها أمانة، أو اتصالاً بوالد، أو ساعة بلا هاتف مع أهلِكَ، أو نوماً مبكراً يحفظ غدك. الحق يختلف، لكن وضعه في أول موضع مناسب يحميه من فضلات اليوم.

ثم اختر باب تشئت واحداً. ليس عليك أن تعلن الحرب على كل تقنية؛ قد تكون التقنية عملاً وعلمك وصلتك. لكن اعرف متى صارت تخدمك ومتى صرت تخدم تدفقها. نصف ساعة يستردها قلبك كل يوم ليست رقماً صغيراً حين تجمعها الأعوام.

وفي نهاية اليوم، لا تسأل فقط: ماذا أكملت؟ اسأل أيضاً: من رحمت؟ أي حق حفظت؟ ما الذي امتنعت عن أذيته؟ هل أخذ بدنك نصيبه؟ هل كان لأهلك منك حضور، لا بقايا انتباه؟

قد يكون يوم قليل المهام كثير البركة، وقد يكون يوم مزدحم فارغاً من الوجهة.

ما بقي من اليوم

إذا ضاع شيء من وقتك، فاستدرك ما بقي. أد واجباً أخرته، أو أصلح كلمة، أو تعلم ما تحتاج إليه. ثم أعط بدنك حقه من الراحة. لا تستطيع رد الأمس، وتستطيع بإذن الله أن تحسن في ساعتك الحاضرة.

أيدٍ لا تعرف أسماءها

تستعمل في يومك أشياء لم تصنعها، وتنتفع بعلم تعلمته من غيرك، وتجد من يؤدي عملاً تحتاج إليه. جعل الله مصالح الناس يقوم بعضها ببعض؛ فلا يستقل أحد بكل أسباب معاشه. ومن معرفة النعمة أن تذكر هؤلاء، ونحفظ حقوقهم، ونشكر الله الذي يسر الخير على أيديهم.

رجل غريب عند الماء

خرج موسى عليه السلام من مصر خائفاً يترقب، ولما وصل ماء مدين وجد أمة من الناس يسقون، وامرأتين تذودان. سألهما عن شأنهما، فأخبرتاه أنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء وأن أباهما شيخ كبير.

كان هو نفسه محتاجاً، ومع ذلك سقى لهما. ثم تولى إلى الظل وقال: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ [القصص: ٢٤].

سقى لهما موسى ثم دعا ربه. وجاءته إحداهما تدعوه إلى أبيها ليجزيه أجر ما سقى لهما، فقص عليه خبره، فطمأنه بأنه نجا من القوم الظالمين. تتأمل هنا المعروف الذي بذله موسى وهو محتاج،

والخير الذي يسره الله له بعده، من غير أن نجعل القصة وعداً
بنتيجة دنيوية مطابقة لكل من أحسن.

لا أحد يصل وحده

قد تكون نخوراً بما صنعت، ومن حقك أن تفرح بثمرة جهدك من
غير كبر. سهرت، وتعلمت، وأعدت المحاولة، وتحملت ما لم يره
الناس. الاعتراف بأيدي الآخرين لا يحويديك، كما أن نسبة الفضل
إلى الله لا تلغي مسؤوليتك.

لكن الصدق يطلب الصورة كاملة.

العقل الذي تعلمت به نعمة. المدرسة التي فتحت لك باباً نعمة.
من دفع أجرة أو صنع وجبة أو حمل عنك شأناً حتى تبتفرغ نعمة.
شخص قال لك مرة: تستطيع، فبقيت الكلمة فيك. وآخر قال: هذا
خطأ، فأنتذك من طريق طويل. ربما كان نجاحك يحمل أصواتاً لا
تظهر في صورته الأخيرة.

حين قال سليمان عليه السلام بعد أن رأى ما رأى من التمكين:
﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ [النمل: ٤٠]، لم ينكر
العمل والأسباب، لكنه منعها أن تحجب الرب. والعبد إذا قال
«من فضل ربي» لا يسرق جهود الناس ليظهر متواضعاً. يقول:

الفضل لله الذي أعطى وسخر، ثم: شكراً لمن صدق، وعلم، وحمل، وأحسن.

من التواضع الزائف أن تنسب نجاح مشروع كامل إلى نفسك ثم تضع في آخر الكلام عبارة عامة عن التوفيق. شكر الله يعلم العدل، والعدل يرد الأسماء والحقوق إلى أصحابها.

الأعمال التي تختفي حين تنجح

بعض الأعمال لا يراها الناس إلا إذا توقفت.

لا يتحدث أحد طويلاً عن الماء ما دام يصل، ولا عن النظافة ما دام المكان نظيفاً، ولا عن النظام ما دامت الطلبات تسير، ولا عن الرعاية ما دام الطفل هادئاً. يختفي العامل داخل نجاح عمله. فإذا غاب ساعة ظهر الفراغ الذي كان يملؤه.

انظر إلى يومك من هذه الزاوية: من الذي يجعل التفاصيل تمضي قبل أن تصل إليك؟

هناك من يجهز المكان، ومن يراجع السلامة، ومن يرد على اتصال متعب، ومن يقود في حر الطريق، ومن يبقى عند مريض في ساعة نوم الناس. وهناك في البيت عمل يتكرر حتى يبدو كأنه يحدث وحده: ثياب تُغسل، وطعام يُعد، وأدوية تُذكر، ومواعيد تُحفظ، وطفل يُهدأ للمرة العاشرة. قد يؤديه رجل أو امرأة، وقد يتقاسمه

أهل البيت، لكنه لا يصير قليل القيمة لأنه غير مدفوع الأجر أو لا يحمل مسمى لا معاً.

من كفران هذه النعمة أن نعتاد النتيجة وننسى صاحب الجهد. أن نرى الطعام ولا نرى من أعدده، والنظام ولا نرى من رتبه، والبيت الهادئ ولا نرى من حمل قلقه. كلمة الشكر لا تؤدي كل الحق، لكنها بداية الاعتراف.

ثم إن الاعتراف الذي لا يحفظ الحقوق ناقص. لا تكفي ابتسامة لعامل حبس أجره، ولا شهادة تقدير لموظف استنزف، ولا حديث طويل عن «الأسرة الواحدة» في بيئة لا تعدل. من شكر النعمة أن يصل المقابل، وأن تُذكر المساهمة، وأن تكون ساعات الراحة والحدود محفوظة.

قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. الوفاء ليس أقل روحانية من كلمات الامتنان. قد يكون أصدق شكر لإنسان أن تعطيه حقه كاملاً وفي وقته.

شكر الناس وأداء حقوقهم

قال رسول الله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وقال الترمذي: حديث

حسن صحيح. شكر الله يدعوننا إلى الاعتراف بإحسان الناس، فلا نقابل معروفهم بالجحود.

لكن شكر الناس له ميزان. تشكر إنساناً على ما صنع، ولا تنسب إليه ما ليس له. تذكر جميله، ولا تجعل الجميل عصمة من الخطأ. تكافئه إن استطعت، ولا تطيعه في معصية. قد يحسن إليك شخص في باب ويؤذيك في باب آخر؛ العدل يحفظ الفعلين، فلا يحو المعروف، ولا يستخدمه ستاراً للظلم.

وليس من الوفاء أن تبقى تحت إذلال لأن صاحبه ساعدك قديماً. المعروف لا يشتري إنساناً. تستطيع أن تقول: له علي فضل في ذلك الموقف، وما يفعله الآن خطأ يجب أن يتوقف. هذه ليست قلة شكر؛ هذا عدل يمنع الامتنان من أن يتحول إلى قيد.

كما أن رد الجميل لا يلزم أن يكون بالمثل دائماً. ربما لا تملك أن تكافئ طيباً أو معلماً أو إنساناً حملك في شدة. تستطيع أن تدعو، وأن تذكر الفضل بصدق، وأن تحفظه من الجحود، وأن تمرر الخير إلى إنسان آخر. بعض الأيادي لا نصل إليها بعد أن نعرف قدرها، لكن الله الذي ساقها إلينا يعلمها ولا يضيع إحسانها.

أن تقبل اليد الممتدة

ثمة من يجيد العطاء ولا يجيد القبول. يساعد الناس كي لا يشعر بحاجة إليهم، فإذا ضعف اعتذر عن كل يد؛ ليس زهداً دائماً، بل خوفاً من أن يرى محتاجاً.

لكن الإنسان خلق محتاجاً. قبول المساعدة عند الحاجة لا يحو الكرامة. قد يكون من الشكر أن تترك غيرك يؤدي خيراً، وأن تقول له بوضوح ما تحتاج، وأن تقبل عكازاً أو ترجمة أو توصيلاً أو وجبة من غير أن تعتذر عن وجودك.

ومن الأدب مع من يحتاج عوناً ألا تقتحم حياته. اسأله كيف تساعد، ولا تفترض أن ما يناسبك يناسبه. قد يريد صاحب الكرسي أن تفتح الباب لا أن تدفعه بلا إذن، وقد يحتاج كبير السن إلى وقت لا إلى أن تنتزع الشيء من يده، وقد يحتاج الفقير إلى فرصة وعمل لا إلى صورة تلتقطها وأنت تعطيه.

ساعد بما ينفع، واحفظ لصاحب الحاجة اختياره وكرامته. ثم لا تتبع معروفك بالمن والأذى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

تذكر من أحسن إليك، وأد ما وجب له عليك. قد يكون شكره بكلمة صادقة، وقد يكون بأجر تؤديه، أو جهد تنسبه إليه، أو دعاء

تدعو له به. وإذا أحسنت أنت فاطلب ثواب الله، ولا تعلق
استمرار الخير بظهور اسمك. اللهم لك الحمد على من أعانونا،
فأحسن إليهم، وأعنا على حفظ حقوقهم.

الفصل السابع عشر

الذين جعلهم الله سكناً

قد يطمئنك صوت قريب أو رسالة من صديق، ويخفف عنك أن تجد من يسمعك ويعينك. هذه الصلوات من نعم الله: رحم وزواج وصحبة وجوار وأخوة في الدين. نحتاج إليها، ونحتاج إلى أن نحفظ حقوقها؛ فلا تذهب ألفتها بنا إلى نسيان فضلها.

خلق لكم سكناً من أنفسكم

قال الله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الروم: ٢١].

جعل الله في الزواج سكناً ومودة ورحمة. ويظهر شكر هذه النعمة في حسن العشرة، والتعاون على الأعباء، والرفق عند المرض والتعب. لا تخلو البيوت من خلاف، لكن المعروف يحفظ للزوجين طريقاً إلى الإصلاح وأداء الحقوق.

ومن رحمة السنة أنها لا تطلب من الزوجين أن يحكم أحدهما على الآخر من خلال خصلة واحدة. قال النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة؛ إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»؛ رواه مسلم (١٤٦٨).

أي لا يبيغضها بغضاً يحو كل خيرها. والمعنى في ميزان العشرة متبادل: المخلوق مركب من محاسن ونقائص، والعدل ألا تجعل ساعة غضب تلخيصاً لعمر كامل.

لكن هذا الميزان لا يأمر أحداً أن يقبل العنف، ولا أن يسمي الإهانة المستمرة نقصاً عابراً. السكن لا يكون في الخوف. ومن يتعرض لأذى له أن يطلب الإصلاح والتحكيم والحماية، وأن يرجع إلى أهل العلم والاختصاص، وقد يكون الفراق مشروعاً حين نتعذر المعاشرة بالمعروف. لا تُستعمل آية المودة لإسكات من غابت المودة والرحمة عن واقعه، ولا كلمة «الحمد» لتثبيت ظلم داخل بيت.

كما أن الزواج نعمة، فليس عدمه حكماً بأن حياة الإنسان بلا سكن أو قيمة. قد يتأخر الزواج، أو لا يقدر، أو ينتهي، ولكل حال حاجاته وأبواب عبوديته. لا يصح أن نحول نعمة أعطها الله لبعض عبادِهِ إلى أداة تجرح من لم تعط له بعد أو لم تُكتب له. يسعى من أراده، ويدعو، ويبيّن في الوقت نفسه حياة عامرة بالإيمان والرحم والصحة والعمل. الله أوسع عطاء من صورة واحدة.

بر الوالدين

وقبل أن تعرف معنى السكن، كان هناك غالباً من حملك وأنت لا تحمل نفسك. أطعمك ولم تقل شكراً، وغسل عنك ولم تحفظ المشهد، وسهر لأنك بكيت، وعلّك أسماء الأشياء حتى استطعت بعد سنوات أن تناقشه وربما ترفع صوتك عليه.

لهذا قرن الله شكر الوالدين بشكره: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]. وذكر بالحمل والوهن والفصال، بأيام لا يتذكرها الابن لكن جسد الأم عرفها، وبسنوات بذل فيها الأب أو من قام مقامه ما استطاع.

لا يعني البر أن الوالدين معصومان. قد يخطئان، وقد يقصران، وقد يكون في بعض البيوت أذى حقيقي يحتاج حدوداً وعلاجاً. وقد يفقد إنسان أحد والديه صغيراً، أو لا يعرف منهما الصورة الدافئة التي تصفها الكلمات. القرآن نفسه وضع الطاعة داخل حدود المعروف، فلم يجعل حق المخلوق طريقاً إلى معصية الخالق.

لكن حيث وجد المعروف، لا تدعه يختفي خلف الألفة. كم من خدمة صغيرة صارت في شعور الابن واجباً طبيعياً لا يستحق الاعتراف. وكم من والد ينتظر اتصالاً لا مალأ، أو يريد أن يسمع كلمة لا نصيحة، أو يحتاج أن يمهل في كلامه بعدما كان هو الذي ينتظر حروف طفله المتعثرة.

وقد يكبر والداك فيحتاجان إلى مزيد من عونك وصبرك. لا تستكثر عليهما وقتاً أو خدمة؛ تذكر ما بذلاه، واحتسب إحسانك عند الله. وما قدرت عليه من البر اليوم فرصة تستحق المبادرة.

ومن مات والداه لم ينقطع كل البر. دعاء وصدقة وصلة لمن كانا يصلان، وذكر فضل بلا غلو، وتوبة من تقصير لا تتحول إلى عذاب أبدي. لا تستطيع إعادة المكاملة التي لم تجبها، لكنك تستطيع أن تجعل الندم عملاً صالحاً بدل أن يبقى جرحاً يكرر نفسه.

هبة لا ملكية

ثم يأتي الطفل، فيغير ترتيب البيت والوقت والقلب. يصبح لصوت صغير قدرة على إيقاظ نائمين، ولحرارة قليلة في جبينه قدرة على إلغاء جدول كامل. يفرح أهله بأول كلمة وخطوة كأن البشر لم يتكلموا ولم يمشوا من قبل.

قال الله: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾ [الكهف: ٤٦]. سمّاهم زينة، ثم رد الزينة إلى ميزان ما يبقى. فالولد نعمة، لكنه ليس ملكاً لوالديه، ولا مشروعاً يحققان به صورتهم، ولا ضماناً ألا يحزننا. هو عبد لله، وهبة وأمانة واختبار.

شكره ليس في تصوير لحظاته الجميلة وحدها. شكره في الصبر على تعليمه، والعدل بينه وبين إخوته، وحفظ جسده وروحه من الإهانة، والاعتذار إليه إذا أخطأ الكبير، وتربيته على أن يعرف ربه لا أن يطارده رضا الناس. ومن كفران النعمة أن يحمل الوالدان ولداً ضعيفاً ثقل أحلامهما، أو يقارنانه حتى يشعر أن الحب جائزة لا ينالها إلا إذا تفوق.

وقد يبتي الله أسرة بمرض ولد أو اختلاف قدرته. لا يكون الطفل «المثالي» نعمة والآخر عبثاً خارج العطاء. قد يكون الطريق معه أشق، والحاجة إلى الدعم أكبر، والألم صادقاً لا ننكره؛ لكنه إنسان كامل الكرامة، لا يُختصر في تشخيص، ولا يُروى وجوده للناس كي يثنوا على صبر أهله. من شكر هذه الأمانة أن يحصل على ما يحتاجه من علاج وتعليم واندماج، وأن يُحب لذاته لا بوصفه امتحاناً فقط.

ومن لم يُرزق ولداً لا يُتهم، ولا يُطلب منه أن يتظاهر بأن الانتظار لا يؤلمه. الذرية هبة يقدرها الله، ويطلب لها العلاج والدعاء بالأسباب المشروعة، لكن قيمة الزواج والإنسان لا تثقف على الإنجاب. كم تجرح الأسئلة المتكررة قلوباً لا يعرف أصحابها ما خلف الأبواب. من شكر نعمة اللسان أن يكف عن فضول يؤذي.

اشدد به أزري

عندما كلف الله موسى أن يذهب إلى فرعون، لم يقل موسى: أنا لا أحتاج أحداً. قال: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ هارون أخي ﴿اشدد به أزري﴾ وأشركه في أمري ﴿كي نسبحك كثيراً﴾ ونذكرك كثيراً ﴿[طه: ٢٩-٣٤]﴾.

عرف المهمة، وعرف حاجته إلى أخ يشد ظهره. لم تكن الصحبة بديلاً عن الله؛ كانت عوناً على ذكره وتسبيحه. وهذا من أجمل موازين العلاقة: أن يقربك الإنسان من غايتك، لا أن يصير هو الغاية التي تنهار حياتك كلها إن غاب.

الصديق نعمة لأنه يريك ما لا ترى، ويحفظ سرك، ويخفف عنك، ويقول لك الحق من غير أن يتلذذ بإيلاملك. ليس الصديق من يوافق كل شيء؛ قد يكون أصدق الناس من يوقفك عند خطأ كان الآخرون يصفقون له.

وقال النبي ﷺ لأبي بكر في الغار ما قصه الله في القرآن: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. هذه معية نصر وتأيد، ثبتت لهما في ذلك المقام. وفي الخبر فضل صحبته رضي الله عنه، وصدق التوكل على الله في وقت الخوف.

ومع ذلك، ليس كل من ابتعد خائئاً، ولا كل علاقة يجب أن تستمر بالصورة نفسها. الناس تتغير ظروفهم، وقد تحتاج علاقة مؤذية إلى مسافة. تستطيع أن تحفظ جميلاً قديماً، وتمنع أذى حاضراً. تستطيع أن تعفو، ولا تعيد الثقة كاملة حتى تعود أسبابها. العدل لا يمحو تاريخ الخير بزلة، ولا يمحو سلسلة الأذى بذكرى جميلة.

الوحدة لا تعني أنك غير محبوب

قد يكون الإنسان وحيداً لانتقال أو فقد أو ظروف فرقت بينه وبين أهله. يحتاج إلى صحبة صالحة وإلى من يسأل عنه. يطمئن إلى علم الله بحاله ويرجو عونه، ويبدل السبب في صلة الرحم وبناء صحبة نافعة. وعلينا أن نصل من حولنا ونؤنس وحشتهم بما نستطيع.

إذا كنت وحيداً، فلا تجعل وحدتك حكماً نهائياً على قيمتك. بناء العلاقة يحتاج وقتاً ومبادرة ومكاناً يتكرر فيه اللقاء: مسجد، أو علم، أو عمل نافع، أو تطوع، أو جماعة موثوقة. ابدأ بخطوة صغيرة لا تعرض قلبك كله لأول عابر، ولا تغلقه عن كل قادم بسبب خذلان قديم.

وإذا كنت محاطاً بالناس، فانظر حولك: من يقف على حافة المجلس دائماً؟ من تمر أيامه بلا سؤال؟ قد يكون شكر صحبتك أن

توسع الدائرة لشخص لم يجد موضعاً. لا يحتاج كل وحيد خطاباً؛ أحياناً يحتاج دعوة صريحة: تعال واجلس معنا.

لا تقس النعمة بعدد المتابعين أو الرسائل. قد يكون في هاتفك مئات الأسماء ولا تجد من تأمنه على دمعة. وقد يكون لك شخص واحد صادق، فتحسبه قليلاً وهو عالم كامل من السكن.

اشكرهم وهم هنا

من المؤلم أن أجمل الكلام عن الناس كثيراً ما يقال بعد غيابهم. نكتشف التفاصيل حين لا يعود صاحبها يسمع: ضحكته، وطريقته في السؤال، والكوب الذي كان يضعه، والعبارة التي يكررها.

لا تنتظر الرثاء كي تتعلم الثناء الصادق.

اختر واحداً ممن جعلهم الله سكناً لك. لا ترسل له عبارة منسوخة. سمّ ما فعله: «وجودك في ذلك اليوم منعني أن أكون وحدي»، أو «أعرف أنك تحمل هذا عن البيت منذ زمن»، أو «أذكر أنك علمتني كذا». ليست الكلمات بديلاً عن الحقوق، لكنها تجعل القلب يرى النعمة وهي حاضرة.

ثم أدّ ما وراء الكلمة: وقتاً، أو نفقة، أو اعتذاراً، أو اتصالاً، أو إصغاء. ربما يكون شكر زوجك أن تحمل عنه مهمة لا أن تمدحه أمام الناس. وشكر والديك أن تجلس بلا استعجال. وشكر ولدك

أن تمنحه انتباهاً لا هدية. وشكر صديقك أن تحفظ سره عند
الخصوصية.

ولا تطلب من الناس كمالاً لا يملكونه. اجعل اعتماد قلبك الأعلى
على الله، ثم خذ من العلاقات سكنها المشروع، وابذل لها حقها.
فمن جعل إنساناً مصدر أمنه المطلق أثقله بما لا يطيق، ومن
استغنى عن الناس تكبراً حرم نفسه أبواباً من الرحمة.

بادر بشكر من أحسن إليك، وأصلح ما تستطيع من تقصير. نسأل
الله أن يحفظ لنا أهلنا، ويغفر لمن مات منهم على الإسلام، ويعيننا
على أداء الحقوق، ويرزقنا صحة تعين على طاعته.

الفصل الثامن عشر

سَمَاءُ تَسْبِيحٍ وَأَنْتَ تَنْسَى

حين تنظر إلى السماء، وتأمل تعاقب الليل والنهار، ترى من آيات الله ما يدعوك إلى تعظيمه. وقد تشغلك الأعمال طويلاً عن هذا النظر، مع أنه قريب منك: ضوء، وسحاب، وليل تسكن فيه، ونهار تسعى فيه.

قال الله: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ [الإسراء: ٤٤].

نصدق خبر الله عن تسبيح المخلوقات، ولا ندعي معرفة كيفيته. وذكّرنا هذا لنخبر بواجبنا في ذكر الله، ويعيننا على الخروج من الغفلة إلى الحمد والتسبيح.

الليل ليس غياباً

ينظر الإنسان إلى الليل أحياناً بوصفه الوقت الذي انطفأ فيه النهار. لكن القرآن يسميه لباساً: ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ وجعلنا النهار معاشاً ﴿[النبا: ١٠-١١].

اللباس يستر ويضم. والليل يستر أشياء كثيرة: البيوت، ووجوه المتعبين، وحركة تحتاج أن تهدأ كي تبدأ من جديد. ليس كل إنسان ينام ليلاً؛ هناك من يعمل أو يحرس أو يمرض، وهناك بلاد يختلف فيها طول الليل والنهار. لكن أصل التعاقب باقٍ، وإيقاع السكون والحركة نعمة عامة تنتظم بها مصالح الخلق.

سأل القرآن الناس أن يتخللوا اختلال المألوف: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ [القصص: ٧١]، ثم سأل عن دوام النهار، وختم: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

من رحمته. هكذا يسمي الوحي ما كنت تسميه جدولاً طبيعياً. السكون من رحمته، والسعي من رحمته، والتبدل بينهما من رحمته. لا يستطيع الجسد حركة لا تنقطع، ولا تحتل الحياة ظلمة لا تنتهي. يأتي كل واحد في أثر الآخر، فيعلم الإنسان أن للعمل حداً، وللراحة موضعاً، وأن دوام حال واحدة ليس هو الكمال الذي يتخيله.

إذا رأيت تعاقب الليل والنهار فتذكر قدرة الله ورحمته، واشكره على ما يسره لك فيهما من سكن وسعي. هذه آيات قريبة ممن يتأمل، لا تحتاج إلى سفر بعيد.

الهواء الذي لا تراه

بين السماء والأرض شيء تقوم عليه حياتك ولا يقع عليه بصرك:
الهواء.

لا تحمل له وعاء في يومك العادي، ولا تقف في طابور لتأخذ نصيبك من كل نفس. يحيط بك، ويدخل، ويخرج، وتستعمله في الكلام والحركة والنوم. لا نحتاج إلى أرقام مذهلة ولا تفاصيل طبية كي نشعر بالعطية. يكفي أن تعرف أنك لا تنشئه، ولا تستغني عنه، وأن أقرب أسباب بقائك أقلها حضوراً في شكر.

ثم تتحرك الريح، فيظهر أثر ما لا تراه: غصن يميل، وستارة ترتفع، وسحاب ينتقل. قال الله: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ [الأعراف: ٥٧]، وجعل تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض من الآيات لقوم يعقلون [البقرة: ١٦٤].

لا يجعل القرآن الريح خيراً من كل وجه؛ منها ما يكون بشيراً ورحمة، ومنها ما يكون عذاباً بأمر الله. المخلوق لا يستقل بالنفع والضرر. ولذلك كان النبي ﷺ يسأل الله عند الريح خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، ويستعيز من شرها؛ رواه مسلم (٨٩٩).

في هذا الدعاء أدب مع العالم: لا نسب الريح كأن لها إرادة مستقلة، ولا نؤله «الطبيعة» فنجعل النظام المخلوق خالقاً لنفسه،

ولا ننكر خوف الإنسان مما قد تحمله العاصفة. نرد الأمر إلى الله، ونسأل الخير والحفظ.

ومن شكر الهواء ألا تفسده على الناس بما تستطيع كفه. دخان ترسله في مكان مغلق، أو رائحة مؤذية، أو صناعة يملك صاحبها تقليل ضررها ثم لا يفعل؛ ليست المسألة ذوقاً خاصاً فقط. ما كان مشتركاً في أصل الانتفاع صار في حفظه حق عام. والحمد الذي لا يمنع أذى يمكن منعه لم يبلغ كمال أثره.

رزق يسوقه الله

روى مسلم (٢٩٨٤) عن النبي ﷺ خبر رجل سمع في سخابة صوتاً يأمر بسقي حديقة رجل. فقتبع الماء، وسأل صاحب الحديقة عن عمله، فأخبره أنه ينظر إلى ما يخرج منها، فيتصدق بثلثه، ويأكل هو وعياله ثلثاً، ويرد فيها ثلثاً. في الخبر فضل الصدقة، ورعاية الأهل، وحفظ سبب المعاش. ولا نلزم الناس بهذه القسمة، ولا نعدهم أن تقع لهم القصة نفسها؛ لكل امرئ واجباته وقدرته، ويرجو الجميع فضل الله.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]. الرياح والسحاب والمطر من خلق الله

وتديبره. نتعلم من أحوالها ما ينفعنا، ونأخذ بأسباب الانتفاع والسلامة، ونزد الفضل إليه.

ثم قال: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾ [الشورى: ٢٨]. لم يسمه ماء فقط، سماه غيثاً حين يأتي بعد الحاجة، وربطه بنشر الرحمة. يعرف أهل الأرض العطشى كيف تتغير الوجوه حين تبدأ الرائحة الأولى للمطر، وكيف يخرج الناس إلى النوافذ كأن خبراً وصل إلى الجميع.

أما من ابتلي بسيول أو عاصفة أو فقد بسببها، فلا نقف أمامه فنحدثه عن جمال المطر وحده. الشيء الواحد قد يكون رحمة لقوم وابتلاء لآخرين بقدر الله. نعترف بالمصاب، ونغيث، ونصلح أسباب التقصير البشري إن وجدت، ونسأل الله الحفظ. التفكير في النعمة لا يلغى به وجه الضرر.

الأرض المهيأة للمعاش

تنظر إلى السماء، ثم تعود قدمك إلى الأرض. تسير عليها إلى عمالك وبيتك، وتبني، وتزرع، وتدفن موتاك، ولا تحملها في حسابك مع كل خطوة. قال الله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ [الملك: ١٥].

الذلول مهيأة للانتفاع والسير، لكن الآية لا تجعلها ملكاً بلا حق. تمشي وتأكل من الرزق، ثم نتذكر: ﴿وإليه النشور﴾ [الملك: ١٥]. الأرض طريق ومعاش، وليست دار القرار الأخير.

فيها طرق تصل بين من تفرقوا، وتربة تحمل البذر، ومواضع تستقر عليها البيوت، وعلامات يهتدي بها المسافر. وما نسميه «المكان» نعمة مركبة: استقرار وأمن وقرب موارد ووجود بشر وخدمات. قد يملك إنسان أرضاً ولا يملك السكينة، وقد يُقتلع آخر من أرضه فيعرف أن الوطن ليس خطأ على خريطة فقط؛ هو لغة ووجوه وقبور أهل وذاكرة طريق.

لا يجوز أن يتحول الحمد على الأرض إلى غفلة عن هجر أو حرم حقه. شكر الاستقرار رحمة بالغريب، وعدل في الملك، وكف للفساد، وحفظ لطريق ومورد. قال الله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ [الأعراف: ٥٦].

أنت لا تستطيع وحدك إصلاح كل شيء، لكنك تستطيع ألا تلقي أذاك، وألا تهدر مورداً متعمداً، وأن تزرع أو تنظف أو تحفظ موضعاً في حدود قدرتك. الشكر لا ينتظر سلطة كاملة؛ يبدأ من المساحة التي تحت يدك، ثم يطالب صاحب السلطة بمسؤوليته الأوسع.

الشمس والقمر ومواقيت الحياة

إذا صفا الليل، رأيت قرراً أو نجماً. وإذا جاء النهار، ظهر ضوء تبني عليه أعمال كثيرة. اعتاد الإنسان هذا الانتظام حتى صار الصباح في شعوره حقاً لا يتأخر.

قال الله: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾ [إبراهيم: ٣٣]. التسخير لا يعني أننا نعرف جميع حكم الخلق، ولا أن الوجود كله لا غاية له إلا منفعتنا التي ندرکها. لكنه يثبت منة الله فيما ذلل للإنسان من علامات الزمن والضوء والمنافع.

بالشمس والقمر يعرف الناس عدداً وحساباً ومواقيت، قال سبحانه: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ [يونس: ٥]. تصبح المواعيد ممكنة، وتُعرف الشهور، وتترتب عبادات وحقوق وآجال.

ومن شكر هذه العلامات أن تفي بموعده، وتؤدي ديناً في أجله، ولا تجعل تقويمك سجلاً لأشياء تؤجلها حتى تضع. الوقت الذي علمك الله علاماته ليس أرقاماً باردة؛ هو عمر الناس وحقوقهم.

والنجوم زينة وعلامات هداية بما أثبتته القرآن، وليست مفاتيح لغيبك الخاص. لا تخبرك بمن ستزوج، ولا بما سيصيب رزقك،

وَلَا تَحْمِلْ إِلَيْكَ حَكْمًا عَلَى سَعَادَتِكَ وَشِقَائِكَ. الْغَيْبُ لِلَّهِ. مِنْ شُكْرِ
جَمَالِ السَّمَاءِ أَلَّا نَعْبُدَ مَا فِيهَا، وَلَا نَنْسِبَ إِلَيْهِ تَدْبِيرًا لَيْسَ لَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وَذَكَرَ بَعْدَهَا
تَفَكُّرَهُمْ وَدُعَاءَهُمْ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. فَلْيَكُنْ نَظَرُنَا إِلَى الْخَلْقِ عَوْنًا عَلَى
تَعْظِيمِ الْخَالِقِ وَطَاعَتِهِ.

شُكْرُ مَا حَوْلَكَ

قَدْ نَتَأَمَّلُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَيَبْقَى هَمُّكَ حَاضِرًا. لَا يُلْزَمُ أَنْ يَزُولَ كُلُّ
حُزْنٍ لِنَتَنَفَعِ بِالتَّذَكُّرِ. يَكْفِي أَنْ يَزْدَادَ يَقِينُكَ بِعِظَمَةِ اللَّهِ وَافْتِقَارِكَ
إِلَيْهِ، وَأَنْ تَدْعُوهُ وَتَبْذُلَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ.

وَمِنْ شُكْرِ مَا حَوْلَكَ أَنْ تَكْفُفَ أَذَاكَ، وَتَحْفَظَ الْمَوَارِدَ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا
النَّاسُ، وَتَعِينَ مُحْتَاجًا. كُلُّهَا عَرَفْتَ قَدْرَ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، ازْدَادَتْ
مَسْئُولِيَّتُكَ فِي حَسَنِ اسْتِعْمَالِهِ. اَللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا سَخَّرْتَ لَنَا،
وَأَعْنَا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحَسَنِ عِبَادَتِكَ.

الباب الرابع ما يحمل روحك

قد يملك الإنسان قوت يومه ومأواه، ثم يبقى في قلبه سؤال عن غاية حياته ومصيره. ومن أعظم نعم الله أن هدانا إلى الإيمان، وأنزل القرآن، وبعث رسوله ﷺ. فعرفنا من نعبد، وكيف نعبد، وإلى من نرجع حين نخطئ أو نحزن.

وإذا نشأت على هذه المعاني، فلا يحملنك اعتيادها على نسيان قدرها. في يومك صلاة تقيمها، ومصحف تقرأه، ودعاء ترفع به حاجتك، وعلم يصحح عملك. هذه نعم تصحبك في السعة والشدة، ويظهر أثرها في قرارك وخلقك ورجائك.

أن تعرف لمن تسجد

قد تعرف الطريق إلى عملك وبيتك، وتعرف ما تريد إنجازه هذا الأسبوع، ثم تحتاج إلى جواب أعمق: لماذا أعيش، وإلى أين أصير؟ تأتي نعمة الإيمان فتضع حياتك كلها في موضعها. أنت عبد لله، خلقت لعبادته، ورزقك لتستعين برزقه على طاعته، وإليه ترجع فيحاسبك على عملك.

حين تستقر هذه المعرفة، ترى الطعام رزقاً يستحق الشكر، والوقت عمراً تؤدي فيه واجبك، والقدرة أمانة، والمصيبة موضعاً للصبر وطلب العون. وقد يبقى في حياتك تعب أو حيرة في بعض الخيارات، لكنك تعرف أصل الطريق، وتعرف من تسأل الهدى.

قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّه يَمِّنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُزٌّ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

يسمي الله الهداية منةً منه. لا فضلاً نقدمه نحن إليه، ولا وساماً نصنعه لأنفسنا، بل عطاءً سبق منا العمل وأعان عليه. أن يستقر في قلبك أن الله واحد، وأن محمداً ﷺ رسوله، وأن القرآن كلامه، وأنتك إليه راجع؛ هذه ليست معلومات دينية وضعت إلى جانب

معلوماتك الأخرى. إنها الأرض التي تقف عليها روحك وهي تفهم سائر المعلومات.

وربما وُلدت في بيت يسمع فيه الأذان، ونطقت الشهادة قبل أن تعرف مقدارها. وهذا من أجلّ الفضل، لكنه قد يكون سبباً في غفلة أخرى: أن تظن أن الإيمان شيء طبيعي كاسمك الأول، لا نعمة كان يمكن أن تعيش وتموت من غير أن تعرفها. الألفة لا تنقص قيمة العطية؛ إنها فقط تطلب منك أن تراها من جديد.

تخيّل — لا لتفزع، بل لتعرف — أنك إذا خفت لم تعرف لمن ترفع خوفك، وإذا أذنبت لم تعرف باباً اسمه التوبة، وإذا مات من تحب لم يكن عندك إلا الصمت البارد للتراب، وإذا أقبلت عليك الدنيا حسبت أنها الغاية، وإذا أدبرت ظننت أن كل شيء قد انتهى. ثم انظر إلى ما آتاك الله: رب تدعوه، ووعد تصدقه، وقبله تتجه إليها، وكتاب يهديك، ورسول تعرف به كيف تعبد، ودار آخرة لا تضيع فيها ذرة من خير ولا تبقى فيها مظلمة بلا حساب.

لا يعني هذا أن المؤمن لا يختار في قراره، أو لا تضيق نفسه، أو لا تسأله الأيام أسئلةً صعبة. الإيمان ليس ورقةً عليها كل تفاصيل الغد. لكنه يعطيك الجهات الكبرى حين تختلط الطرق: من أين جئت، ولمن تعيش، وما الذي لا يجوز أن تبيعه مهما اشتد الثمن، وإلى من ترجع حين لا ترى الخطوة التالية.

أخبرنا الله عن فتية آمنوا بربهم، وقاموا بالتوحيد في قوم اتخذوا من دونه آلهة. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤].

آووا إلى الكهف، ودعوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. وحكى القرآن من حفظ الله لهم ما نتلوه في السورة. ثبتوا على أعظم نعمة، وسألوا الله الرحمة والرشد وهم في حال تحتاج إلى عونه. نتعلم من خبرهم أن نسأل الثبات، وأن نحفظ ديننا إذا تعارضت طاعة الله مع رغبة الناس.

ليس معنى القصة أن كل مؤمن سيخرج من وطنه، ولا أن العزلة هي أصل النجاة، ولا أن كل خطر سينقلب في الدنيا على الصورة التي يحبها صاحبه. معناها الأقرب إلى قلب هذا الفصل أن الإيمان قد يكون النعمة التي تبقى حين تضيق خيارات أخرى، وأن من عرف الطريق لم يعد فقد الطريق المألوف ضياعاً مطلقاً.

وضرب الله للمؤمنين مثلاً بامرأة فرعون، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١]. سأله الجنة والنجاة من الظلم. وما أجل أن يبلغ العبد

من معرفة ربه أن يكون حفظ دينه ورجاء الآخرة أحب إليه من متاع قريب.

وربما لا تُبتلى بمشهد يشبه هذه المشاهد العظيمة. أكثر امتحانات الإيمان تأتي هادئة: رقم يتغير في فاتورة لو كذبت، وخلوة تستطيع فيها أن تنظر إلى حرام، ومجلس يبدأ فيه الناس ظلم غائب، وقرار يُعَدُّ بمصلحة سريعة إذا تنازلت قليلاً عن الحق. هناك تعرف أن الإيمان ليس قصةً تحب أبطالها، بل نعمة تريد أن تعيش بها.

إنه يمنحك شاهداً في داخلك حين تغيب أعين الخلق. يقول لك إن الله يراك، فلا تكون الأخلاق مظهرًا مرتبطًا بالمراقبة. وبمنحك مستقبلاً أبعد من الربح العاجل؛ فما تركته لله ليس فراغاً، وما فعلته لوجهه لا يحتاج أن يراه الناس حتى يكون محفوظاً. وبمنحك شجاعة الاعتذار؛ لأن قيمتك لا تنهار باعترافك بالخطأ، ما دمت عبداً يرجع إلى رب يقبل التوبة.

ومن أعظم ما يحمله الإيمان عن روحك ثقل السؤال عن الموت. لا يلغي رهبة الفراق، ولا يجعل القبر خيراً يسيراً، لكنه يمنع العدم من أن يكون الكلمة الأخيرة. الذين أحببتهم لا تنتهي حقيقتهم حين يغيب صوته، والعمل الذي أخفيته لا يضيع حين ينسأك الناس، والمظلمة التي عجزت محاكم الدنيا عنها لا تسقط من علم الله.

هناك بعث وحساب وجنة ونار، وهناك عدل تام لا يترك شيئاً خارج الميزان.

لهذا لا تكون نعمة الإيمان مخدراً يبعدك عن إصلاح الدنيا. على العكس؛ لأنك تعرف الحساب، تحفظ الحق. ولأنك ترجو الجنة، تعمر الأرض بما يرضي الله. ولأنك تؤمن بالقدر، لا تعبد النتيجة، لكنك تبذل السبب الذي كلفت به. الإيمان الصحيح لا يطفئ الحركة؛ يحركها من الهلع ومن طلب الثناء.

وتظهر ثمرة الإيمان في خيارات قريبة: مال ترفضه لأنه حرام، وكلمة تمتنع عنها لأنها تظلم غائباً، وصحبة تستعين بها على الطاعة. إذا وقفت إلى شيء من ذلك، فاحمد الله واسأله الثبات. قال سبحانه في خبر الفتية: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. فالهداية فضل، ومن عرف هذا الفضل تواضع، ورحم من يحتاج إلى البيان، ولم يأمن على نفسه الفتنة.

قال تعالى عن الإيمان: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

تأمل أن الآية لم تسم الإيمان واجباً فحسب، مع أنه واجب؛ سمته محبوباً مزيناً في القلب، وسمت هذا التحبيب فضلاً ونعمة. قد تمر عليك لحظة تترك فيها معصية لأن في صدرك نفوراً منها، أو تسمع

الأذان فتشتاق إلى الصلاة، أو تخطئ فيوجعك الخطأ بدل أن يطمئنك؛ لا تمر على ذلك كأنه من صنعك وحدك. هذا أثر نعمة تعمل في باطنك.

والإيمان يزيد وينقص. قد تأتي على القلب أيام يشعر فيها بالقرب، وأيام يثقل فيها العمل ويضعف الشعور. لا يعني الفتور أن الطريق اختفى، ولا أن الصدق لا يكون إلا بحرارة العاطفة. من شكر نعمة الإيمان أن تحرسها في أيام النشاط، وأن تعود إلى أسبابها في أيام الفتور: صلاة لا تتركها، وقرآن تقرأه ولو قليلاً، وذنب تغلق بابه، وصحبة تذكرك، ودعاء تكرر فيه أن يثبت الله قلبك.

لا تفتش كل ساعة في داخلك: هل أشعر بما ينبغي؟ بعض الناس يرهق إيمانه بمحاولة قياسه في كل لحظة. انظر إلى الوجهة والعمل أيضاً. القلب يتقلب، لكنك تستطيع أن تسوقه برفق إلى أبواب الخير، وأن تلزم الفرائض، وأن تسأل أهل العلم عما أشكل، وأن تستعين بالعلاج إذا كان وراء الظلمة مرض نفسي يحتاج إلى مختص. ليست كل كآبة ضعف إيمان، ولا كل وسواس ورعاً. الدين الذي هداك هو نفسه الذي يأمرك ألا تقول بغير علم، وألا تهمل سبباً نافعاً.

ولا تقس نعمة الإيمان براحة تشعر بها في كل ساعة. فقد يعينك الإيمان على الصبر حين يستمر الألم، ويذكرك بالبعث والجزاء حين

يتعذر إنصافك في الدنيا. تؤدي واجبك، وتطلب حقك، وترجو عدل الله ورحمته.

به تعرف أن قيمتك ليست عدد المصنفين لك، ولا أن رزقك شهادة على رضا الله المطلق، ولا أن نقص الدنيا علامة على هوانك. كم من غني أعطي وهو ممتحن، وكم من فقير مُنِع وهو كريم على الله. الميزان ليس حجم ما في اليد، بل ما قام في القلب من عبودية وما صدقته الجوارح.

قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً». رواه مسلم (٣٤). يجتمع في هذا الرضا أفراد الله بالعبادة، وقبول دينه، واتباع رسوله ﷺ. وقد يحزن المؤمن على مصيبة، ويبقى ثابتاً على هذه الأصول، يطلب العافية ويستعين بربه.

إذا وجدت هذا الأصل في قلبك، ولو كان حوله تقصير يحتاج إلى توبة، فاعرف النعمة. وإذا وجدت نفسك تحزن على ضعفك وتريد الرجوع، فاعرف النعمة أيضاً؛ فقد يكون ألم التقصير من دلائل حياة القلب ودواعي عودته. وإذا أعانك الله على خطوة هداية، فلا تجعلها مناسبة للإعجاب بنفسك، بل سبباً لحمده وسؤاله المزيد.

أحمد الله أن هداك إلى الإسلام، واسأله أن يحييك عليه ويميتك عليه. وتعلم ما يصحح عبادتك، واحفظ صلاتك، وأصلح تقصيراً تعرفه. قل: اللهم زدني هدى، وثبتني على دينك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. هذه نعمة تستحق أن تصحب دعاءك، مهما كثرت حاجاتك الأخرى.

كتاب يبدك كل مرة

قد تقرأ آية تعرفها منذ سنوات، فيعينك الله على فهم معنى فيها لم تنتبه إليه من قبل. تقرأ وأنت خائف فتتعلم ما تستعين به على خوفك، أو بعد ذنب فتجد أمر التوبة ووعده المغفرة، أو بعد نعمة فتتعلم كيف تشكر.

وهذه من بركة الرجوع إلى القرآن: أن نتلوه، ونتعلم تفسيره، ونعرض عملنا على هدايته. لا ننهي من حاجتنا إليه بمجرد ختمة، ولا تغنينا معرفة ألفاظه عن تدبر معانيه والعمل بها.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

في القلب أمراض من الشك والكبر والحسد، يعالجها القرآن بالعلم النافع والأمر والنهي والوعد والوعيد. يعرفك بالله، ويبين حقه عليك، ويدعوك إلى التوبة، ويرد كرامة الإنسان إلى التقوى، ويخبرك بالبعث والحساب.

ومن آياته قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. فهو سبحانه مع خلقه بعلمه، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم، وهو

العلي فوق خلقه، مستوٍ على عرشه كما يليق بجلاله. تؤمن بما أخبر به عن نفسه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. فإذا خلوت، أو خفي على الناس ما تعاني، فتذكر أن الله يعلم حالك، ويسمع دعاءك، ويراك.

وفي القرآن هدى ثابت تحتاج إليه حين تختلف الأصوات والمقاييس من حولك. تتعلم الصدق والعدل والرحمة، وتعرف أن الآخرة خير وأبقى، وأن حاجتك إلى طاعة الله لا تتغير بتغير عادات الناس.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. لم يقل إنه يدل على طريق قائم فحسب، بل على التي هي أقوم: أعدل وأهدى وأصلح. يهديك في اعتقادك حتى لا تعبد إلا الله، وفي عبادتك حتى لا تقترب إليه إلا بما شرع، وفي أخلاقك حتى لا يصير الدين قسوة، وفي معاملاتك حتى لا يفصل الحمد في المسجد عن أمانتك خارجه.

لكن قرب القرآن من أيدينا قد يصنع حجاباً من نوع غريب. لأن المصحف موجود دائماً، نظن أن فتحه يمكن أن يؤجل دائماً. نضعه في مكان كريم، ونمسح الغبار عن غلافه، ونسمعه في السيارة أو في الخلفية، وقد تمضي أيام لم نجلس فيها أمام آية كمن يجلس لرسالة تخصه.

اجعل لك وقتاً تلو فيه ما تيسر، وتعلم معنى ما أشكل عليك،
وتسأل نفسك عند الأمر والنهي: كيف أعمل بهذا؟ وعند ذكر
النعمة: كيف أشكرها؟ يكفي أن تبدأ بقدر تداوم عليه، ثم تزيد
إذا تيسر.

كان أسيد بن حضير رضي الله عنه يقرأ ليلاً، فجالت فرسه،
وخشي على ابنه القريب منها. ورأى مثل الظلة فيها أمثال
المصابيح. فلما حدث النبي ﷺ أخبره أنها الملائكة دنت لصوته.
رواه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦)، وللقصة ألقاها. تؤمن
بما ثبت في الخبر، وتعلم منه فضل التلاوة، من غير أن تنتظر
لأنفسنا علامة حسية أو نجعلها شرطاً للانتفاع.

وفي مشهد آخر، قال النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه:
«اقرأ عليّ». تعجب ابن مسعود وقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟
فقال: «نعم». فقرأ من سورة النساء حتى بلغ قول الله: ﴿فَكَيْفَ
إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:
٤١]. قال له النبي ﷺ: «حسبك الآن». فالتفت ابن مسعود، فإذا
عيناه تذرفان. رواه البخاري (٥٠٥٠).

كان القرآن قد نزل على قلبه ﷺ، وكان أعلم الناس به وأشدّهم
قياماً بحقه، ومع ذلك أحب أن يسمعه من قارئ آخر. وحين

مرت آية الشهادة على الأمم لم تمر معلومةً يعرفها؛ مست قلبه حتى دمعت عيناه.

تستطيع أنت أيضاً أن تتوع أبواب الصحبة. اقرأ وحدك، واستمع إلى قارئ متقن، وصلِّ بما تحفظ، واجلس مع من يتدبر بعلم. قد يفتح السماع موضعاً أغلقه انشغالك بأداء الحروف، وقد تعيدك التلاوة بصوتك إلى كلمة عبرتها حين سمعتها. المهم ألا يصبح التنوع بحثاً دائماً عن الصوت الأجمل بينما العمل بالآية مؤجل.

وإذا كانت قراءتك متعثرة، فلا تخجل من القرآن. لا تقل: سأعود إليه حين أتقن، لأن الإتيان يولد من العودة. قال النبي ﷺ إن الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة، وإن الذي يقرأ القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران؛ رواه مسلم (٧٩٨). تعب لسانك ليس حاجزاً عن المجلس؛ قد يكون موضع أجر زائد إذا صدقت وبذلت وسعك.

تعلم على يد من يحسن التعليم ولا يجرحك. صحح حرفاً بعد حرف، ولا تجعل مقارنة صوتك بأصوات القراء المحترفين تسرق فرح البداية. القرآن لم ينزل لأصحاب الحناجر الجميلة وحدهم. من لم يستطع النطق لعذر فله من الاستماع والفهم والذكر والعمل أبواب بحسب قدرته، وربك يعلم العذر والنية.

واحفظ من القرآن ما تستطيع مراجعته، وتعلم معناه. فالغاية أن يصحبك هديه في عبادتك وخلقك، وأن تعمل بما علمت، مع حرصك على الزيادة.

وفي قصصه تجد أخبار الأنبياء وما لقوه من الخوف والحزن والمرض، وما قاموا به من الدعاء والصبر والطاعة. فتتعلم من خوف موسى، وحزن يعقوب، ودعاء زكريا، وصبر أيوب عليهم السلام، ما يعينك على العبودية في أحوالك.

وقد تقرأ طالباً للمواساة فتجد معها أمراً يلزمك: توبة من ذنب، أو حقاً تؤديه، أو عدلاً مع من خاصمت. تقبل هداية القرآن كلها؛ فكلما تحتاج إلى الرجاء، تحتاج إلى تصحيح ما أخطأت فيه.

ولهذا ينبغي ألا نستعمل الآيات ضد القلوب التي جاءت لتستريح إليها. قد يأتينا حزين فنلقي عليه نصاً صحيحاً بلهجة تقول له: انتهى حقك في الحزن. وقد نرسل إلى مبتلى صورة آية ثم نغيب عنه، مع أننا قادرون على الجلوس أو المساعدة. القرآن الذي يأمر بالصبر هو نفسه الذي يأمر بالتراحم، ورسول القرآن ﷺ بكى عينه وواسى وحمل حاجات الناس.

ليس الخطأ في إرسال الآية؛ قد تكون أعظم هدية في وقتها. إنما الشأن في اليد التي تحملها والنبرة التي تقدمها. قل للموجوع: هذه آية أسندتني، ولست أطلبك أن تتجاوز وجعك الآن. اقرأها له إذا

أحب، ثم اسمع. وربما كان تطبيقك للآية أن تطهو له طعاماً، أو تنجز عنه معاملة، أو تجلس صامتاً إلى جواره.

فالقُرآن لا يصنع قارئاً بارعاً في اقتباس الجمل فقط؛ يصنع إنساناً يعرف موضع الكلمة وموضع الفعل. ومن تدبر قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] عرف أن بعض التلاوة ينتظر يدين تتحركان. ومن قرأ ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ [الإسراء: ٢٣] عرف أن اختبار الآية قد يأتيه حين يكرر أحد والديه الطلب، لا حين يكون المصحف في يده.

من الخطأ أن نجعل علاقتنا بالقُرآن بحثاً عن انفعال دائم. ربما قرأت وبكيت، وربما قرأت وقلبك ساكن لا تجد الدمع. البكاء فضل إذا صدق، لكنه ليس المقياس الوحيد للانتفاع. قد تكون ثمرة وردك اليوم قراراً ألا تغتاب، أو شجاعةً لرد حق، أو صبراً عن جواب جارح، أو فهماً يصحح اعتقاداً. بعض الآيات تعمل فيك بهدوء، ثم يظهر أثرها حين يأتي الامتحان.

ومن الخطأ كذلك أن نقول للمريض: اقرأ القرآن وكفى، كأن طلب الطبيب يناقض اليقين بكلام الله. القرآن شفاء بنص الوحي، والرقية به حق، والهداية التي يحملها أعظم ما يشفى به القلب. وفي الوقت نفسه، شرع الله الأخذ بالأسباب، وجعل في خبرة الأطباء والأدوية منافع. لا نتخذ العلاج بديلاً عن الله، ولا

نتخذ التلاوة حجةً لترك علاج نافع. كلاهما يُطلب في موضعه، والقلب متعلق برب الأسباب.

وقد يحمل إنسان اضطراباً نفسياً يجعله عاجزاً عن التركيز، أو وسواساً يلاحقه في القراءة، فلا ينبغي أن تزيده عبارة وعظية لوماً. يقرأ بقدر استطاعته، ويستعين بمن يعلمه ويعالجه، ولا يقيس قربه بعدد الصفحات وحده. ربما كان استماعه إلى آيات قليلة في يوم ثقيل عبادة عظيمة بالنظر إلى وسعه، وقد قال الله: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

القرآن ليس زينةً للبيوت، مع أن إكرام المصحف من الخير. وليس صوتاً للمآتم فقط، ولا موسماً ينتهي بانتهاء رمضان. هو كتاب الأحياء: يصحبك إلى السوق والبيت ومجلس القرار. إذا قال لك ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، تبعك المعنى إلى رسالتك التي تكتبها وأنت غاضب. وإذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقف معك عند عقدك وراتب من يعمل لديك وحكمك على خصمك. وإذا قال ﴿وَلَا تَسَوُّا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، دخل معك إلى لحظة الفراق لمنع الألم من أن يحو كل جميل.

ومن شكر نعمة القرآن أن تجمع التلاوة والتعلم والعمل. اقرأ ما تستطيع المداومة عليه، وارجع في التفسير إلى مصدر موثوق، ثم بادر إلى خير تعلمته أو اترك خطأ تبين لك.

ولا تقرأ وحدك دائماً إذا كان الفهم يشكل عليك. من نعمة الله أن حفظ مع كتابه بيان رسوله ﷺ، وسخر علماء يشرحون، وجعل السؤال باباً. ليست كل خاطرة تأتيك عند آية تفسيراً لها. يمكن أن تتأثر بصورة أدبية، لكنك لا تنسب إلى مراد الله ما لم يدل عليه لسان العرب وسياق الآية وبيان أهل العلم. تعظيم القرآن يشمل ألا نجعله مرآة نقول فيها ما نريد ثم ننسبه إليه.

وربما تقول: لقد هجرت القرآن زمناً، وأستحي أن أعود بقليل.
عد بقليل.

لا تجعل حيائك من التقصير أداة لمزيد من التقصير. المصحف الذي بقي مغلقاً لا يعاتبك بصوت، والباب ليس للنخبة الذين لم يفتروا قط. افتحه من الموضع الذي تعرفه، واقرأ كما يقرأ محتاج، لا كما يؤدي امتحاناً في الكمال. وإذا فات يوم، فلا تحول اليوم الواحد إلى شهر. عد في الغد، أو بعد ساعة.

اليوم، جرب أن... تختار آية واحدة من وردك، لا أكثر. اقرأ ما قبلها وما بعدها، وانظر في تفسير موثوق لمعناها، ثم اكتب في سطر

واحد: ما العمل الذي تطلبه مني هذه الآية اليوم؟ قد يكون حمدًا، أو كفًا، أو صلاةً، أو دعاءً، أو تصحيح فكرة.

وفي المساء، لا تسأل نفسك فقط: كم صفحة قرأت؟ اسأل: أي كلمة بقيت معي؟

قد تقرأ الآية في طور من عمرك، ثم تعود إليها وقد غيرتك مسؤولية أو مرض أو فقد، فتجد فيها وجهًا من العزاء لم تكن تحتاجه من قبل. وقد تقرأ عن الجنة يومًا نكبر، ثم تقرأها بعد رحيل حبيب كموعد ترجوه لأهل الإيمان.

الكتاب هو الكتاب.

لكنه يجد حاجتك كل مرة، لأن الذي أنزله يعلم السر وأخفى، ويعلم أي قلب سيفتح هذه الصفحة، وفي أي ليلة، وبأي وجع.

أقرب ما تكون

قد تصلي في مسجد اعتدت طريقه، أو في موضع من بيتك لا يلفت نظراً. وما أعظم النعمة في هذه الصلاة: نتطهر، وتستقبل القبلة، وتكبر الله، ثم تقرأ الفاتحة. تحمد رب العالمين، وتفرد به بالعبادة والاستعانة، وتسأله الهداية إلى الصراط المستقيم.

تدخل الصلاة وفي نفسك شواغل كثيرة، فتردك معانيها إلى أعظم ما تحتاج إليه. أنت عبد محتاج إلى ربه في كل شأن، والصلاة من أجل ما تستعين به على أداء حقه واحتمال ما يشق عليك.

قال الله لموسى عليه السلام في أول النداء العظيم: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

تتكرر الصلاة في يومك، ويتكرر معها الذكر والدعاء وطلب الهداية. وقد يشغلك العمل أو القلق، ثم يأتي وقتها فتقبل على عبادتك. والله غني عنك، وأنت الفقير إلى فضله وعونه.

وقد تصلي بخشوع تجد أثره، وقد تجاهد الشرود من أول الصلاة إلى آخرها. تعلم أسباب الخشوع، وافهم ما تقرأ، وأبعد ما يشغلك. وكلما شرد قلبك فردته برفق، ولا تجعل ضعف الخشوع سبباً لترك

الصلاة. أدِّ الفريضة كما شرعت، واسأل الله أن يصلح قلبك ويتقبل منك.

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. وقال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء». رواه مسلم (٤٨٢).

في السجود عبودية وقرب أخبر به الرسول ﷺ، فتؤمن به كما جاء. تسبح الله بما شرع، وتدعوه بحاجتك، وتطلب المغفرة والهدى والعافية. لا تحتاج إلى عبارة متكلفة؛ سل ربك بصدق وأدب، فهو يعلم ما في نفسك ويسمع دعاءك.

كان ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه يخدم النبي ﷺ ويأتيه بوضوئه وحاجته. فقال له النبي يوماً: «سل». لم يطلب ربيعة مالاً ولا متاعاً، قال: أسألك مرافقتك في الجنة. سأله النبي: «أو غير ذلك؟» فقال: هو ذاك. فقال له: «فأعني على نفسك بكثرة السجود». رواه مسلم (٤٨٩).

طلب كبير: صحبة رسول الله ﷺ في الجنة. وكان الجواب باباً مفتوحاً يتكرر: كثرة السجود. لم يقل له إن الأمانة تتال بمجرد التمني، ولم يرده عنها لبعدها؛ دلّه على عمل يحمل صدق الطلب.

وفي قوله «أعني على نفسك» معنى لا ينبغي أن يفوتك. نفسك ليست دائماً عوناً لك. قد تثقل حين يحين القيام، وتعرض عليك كل شأن مؤجل بمجرد أن تكبر، وتقنعك أن تبدأ غداً حين تحسن حالك. تحتاج أن تعينها عليها، لا أن تنتظر منها موافقةً كاملة. تحملها برفق وحزم، وتخفف عنها فضولاً يستنزفها، وتغلق ما يشوشها، ثم تقودها إلى السجود.

والكثرة هنا لا تعني أن تهمل فرضاً أو حقاً لتجمع نوافل، ولا أن تعذب جسداً لا يطيق. للعبادة ميزان، وللجسد والأسرة والعمل حقوق. المقصود أن يصبح السجود طريقاً مألوفاً إلى القرب، وأن يكون للفرض مكانه الذي لا تزاخمه الشواغل، ثم تزيد من النافلة بقدر تستطيع أن تداوم عليه.

ومن رحمة الله أن المريض يصلي على قدر استطاعته. قال النبي ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». رواه البخاري (١١١٧). تعلم أحكام طهارتك وصلاتك بحسب حالك، ولا تحمل نفسك ما تعجز عنه، ولا تظن أن العجز يسلبك كرامتك.

وشبه النبي ﷺ الصلوات الخمس بنهر يغتسل فيه المرء خمس مرات في يومه، ثم قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يحو الله بهن الخطايا». رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧). وفي صحيح

مسلم (٢٣٣) بيان أن الصلوات مكفرات لما يبينهن إذا اجتنبت الكبائر. فاحمد الله على هذا الفضل، وتب من ذنوبك، ولا تؤخر حقاً للناس اعتماداً على عمل آخر.

وقبل هذا النهريصل إليك النداء. قد تسمعه من مسجد قريب، أو من هاتف يذكرك بالوقت، وقد تعيش في مكان لا يرتفع فيه الأذان فتراقب المواقيت وحدك. في كل حال، ثمة موعد يعود نحس مرات ولا يتغير لأن مزاجك تغير. في عالم تتنافس فيه المواعيد على وقتك، جعل الله لنفسه حقاً معلوماً، وجعل لك في أداء هذا الحق حياة.

حين تقف في صف الصلاة، تسقط كثير من الألقاب عند الباب. المدير والعامل، والغني والفقير، وصاحب الاسم المعروف ومن لا يعرفه إلا أهله؛ قبلة واحدة، وإمام واحد، وحركات واحدة. لا يعني ذلك أن الفروق والحقوق في الدنيا تزول، لكنه تذكير متكرر بأن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأن الجبهة التي لا تسجد لله قد يخدعها كرسي صغير.

والصلاة التي تقربك من الله ينبغي أن تعيدك إلى الناس أصدق وأرحم. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [الغنيوت: ٤٥]. ليس معناها أن المصلي يصبح معصوماً بمجرد الأداء، بل أن الصلاة الصحيحة تحمل في ذكرها وخشوعها

وأمرها قوة نهي، وأن على المصلي ألا يفصل بين سجوده وسلوكه. إذا قمت من بين يدي الله ثم ظلمت من تحت يدك بلا مبالاة، فهناك أثر لم يبلغ موضعه بعد، وتحتاج أن تصلح لا أن تكتفي بصورة العبادة.

قد تكون علامة صلاة اليوم كلمة لم تقلها. كنت قادراً أن تهين، فتذكرت أنك ستقف بعد قليل وتقول «الرحمن الرحيم». أو حقاً أديته لأن يدك التي رفعتها بالدعاء استحت أن تمسك مال غيرها. أو صلحاً بدأت به حيث كان الصلح عدلاً وممكناً؛ فالذي يرجو عفو الله يحب العفو، من غير أن يسقط حقاً أو يمكّن ظلماً. لا نقيس قبول الصلاة بهذه المشاهد على وجه القطع، فالقبول غيب، لكننا نطلب ثمرتها ونجاهد أن تظهر.

وإن كنت قد فرطت في الصلاة، فبادر إلى التوبة والمحافظة عليها، وأسأل عالماً موثقاً عما يلزمك فيما مضى. لا تجعل كثرة التفريط تزيدك تفريطاً. الفرصة التي تجدها اليوم نعمة، فاستعن بالله على اغتنامها.

وحول الصلاة تمتد نعمة الذكر. كلمات خفيفة لا تحتاج إلى غرفة ولا وقت طويل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. تقولها وأنت تمشي، أو تنتظر، أو تطفئ نور البيت. لا

تزيد بها ملك الله شيئاً، لكنها تنقذ قلبك من أن يعيش بين الأشياء كأن لا رب لها.

الذكر ليس تعويذة نرددها بلا فهم، ولا صفقة نضمن بها صورةً دنيوية بعينها. هو ثناء وعبودية وحضور. حين تقول «سبحان الله» تنزهه عن كل نقص. وحين تقول «الحمد لله» تثني عليه وترد الفضل إليه. وحين تقول «الله أكبر» تذكر قلبك بأن ما كبر في عينيك لن يكون أكبر منه سبحانه.

وسأل علي وفاطمة رضي الله عنهما النبي ﷺ خادماً، فعلهما ذكراً يقولانه عند النوم: التكبير أربعاً وثلاثين، والتسبيح ثلاثاً وثلاثين، والتحميد ثلاثاً وثلاثين، وقال إنه خير لهما من خادم. رواه البخاري (٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧). نأخذ بهذا الذكر ونرجو فضله، مع جواز الاستعانة بمن يخفف عملاً أو يقضي حاجة.

وقد يقول إنسان: أصلي ولا أرى حياتي تتغير.

ربما يقصد أن المشكلة الخارجية ما زالت. والصلاة لم تُشرع وعداً بأن يزول كل مرض أو دين أو خلاف في موعد تحدده. إنها عبادة لله، وعون على الطريق، ونور، وصلوة. قد يتغير بها ما حولك بسبب هداية إلى قرار أو قوة على عمل، وقد يبقى الظرف ويتغير موضعه في قلبك، وقد تؤديها زمناً ولا ترى من ثمرتها إلا أنك لم تسقط إلى موضع كان يمكن أن تسقط إليه.

وربما يقصد أنه لا يشعر في الصلاة بالراحة التي يسمع الناس يصفونها. لا تهم صدقك سريعاً للقلوب أزمنة، وللتعب أثر، وللخشوع أسباب وموانع. قد يكون واجبك اليوم أن تصلي لأن الله يستحق العبادة، لا لأنك حصلت في كل مرة على الشعور الذي تجبه. هذه عبودية خفية: أن تثبت حين لا تحملك لذة.

ابحث بهدوء عما يمكنك إصلاحه. هل تدخل الصلاة بعد استعجال طويل؟ هل تعرف معاني ما تقول؟ هل هناك ذنب تصر عليه فيقسي القلب؟ هل تحتاج إلى نوم أو علاج أو تقليل مشقة؟ أصلح سبباً واحداً، ولا تحول السؤال إلى جلد ذات. وقد تكون فيك حالة نفسية تسلب الأشياء كلها طعمها، لا الصلاة وحدها؛ حينئذ يكون العلاج عوناً على العبادة، لا خصماً لها.

ولا تقارن خشوعك بما يرويه الناس عن أجمل لحظاتهم. أنت لا ترى صلواتهم الثقيلة، وهم لا يرون جهادك. لله عبادات يرفعها صدق المجاهدة ولو لم يصحبها دموع. اسأله قلباً خاشعاً، وتعلم، واستمر، واترك الحكم على القبول لمن يعلم السر.

ولا نستخدم الصلاة لإسكات من يحتاج إلى حل. من ظلمته معاملة لا تقل له: صل واترك حقك. قل له: صل واستعن بالله، ثم اطلب حقك بالعدل. ومن كان مريضاً لا تقل له: لو خشعت

لشفيت. الصلاة ليست اختياراً نلوم به المتألم، والشفاء قدر لا نملكه. نقيم الصلاة ونأخذ بالأسباب، وكلاهما من طاعة الله.

استعد للصلاة بما ييسر حضور قلبك: تطهر، وأبعد المشتتات، واحضر إلى المسجد في سكينة، وقرأ ما تحفظ بفهم. وفي سجودك اسأل الله الهداية والثبات وصلاح القلب، وادعه بما تحتاج إليه من خير الدنيا والآخرة.

لا تنتظر شعوراً معيناً بعد كل صلاة. يكفيك أن تؤدي ما أمرك الله به، وتجاهد نفسك في إحسانه، وترجو رحمته وقبوله. وإذا سمعت الأذان وأنت قادر على الإجابة، فاحمد الله على مهلة في العمر تدارك فيها تقصيراً وتقدم فيها خيراً.

الفصل الثاني والعشرون

باب لا يغلقه ماضيك

قد تعود إليك ذكرى ذنب قديم وأنت بين أهلك، فيثقل قلبك وتتمنى لو رددت كلمة قلتها أو حقاً ضيعته. لا تملك تغيير ما وقع، لكن الله فتح لك التوبة وإصلاح ما تستطيع إصلاحه.

لا تسمّ الظلم بغير اسمه، ولا تجعل الندم إقامة دائمة في اليأس. اعترف بالخطأ، وتب، ورد الحقوق، واستعن بالله على بقية عمرك. نعمة التوبة أن يجد المقصر طريقاً مشروعاً إلى المغفرة والاستقامة.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

تأمل النداء: يا عبادي. لم يسلبهم وصف العبودية لأنهم أسرفوا. وتذكر الآية الإسراف بلا تجميل؛ فهو تجاوز وكثرة، ثم تنهاهم عن القنوط. ليس الرجاء مكافأة لمن كان ماضيه نقياً، بل طريقاً فتحه الغفور لمن صدق في العودة.

ومعنى الآية عند أهل العلم محمول على من تاب؛ فالتوبة ليست أن نقرأ وعد المغفرة ثم نبقي في المكان نفسه. بعدها مباشرة يأتي الأمر

بالإنابة والإسلام لله قبل مجيء العذاب. الرجاء الذي لا يحرك القدم قد يتحول أمنيّةً تخدع صاحبها. أما الرجاء الصادق فيقول: ما دام الباب مفتوحاً فسأقوم الآن.

تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك وهو قادر على الخروج، وأخبر أنه لم يكن قبلها أقوى ولا أيسر منه حين تخلف. كان يؤخر التجهيز حتى خرج الجيش، ثم أراد أن يلحق بهم ولم يفعل. يخبرنا بذلك في صدق، فنعرف خطر التسويف حين يجد الإنسان فرصة العمل ثم يؤجلها.

عاد النبي ﷺ، وجاء المتخلفون يعتذرون. كان كعب يملك لساناً يستطيع أن يجد به مخرجاً مقنعاً، وفكر أول الأمر كيف ينجو من غضب النبي. لكنه لما بلغه قدومه عرف أن الكذب لن ينجيه حقاً. دخل، وسلم، وسأله النبي ﷺ عن سبب تخلفه. قال كعب بمعنى حديثه الطويل: لو جلست عند أحد من أهل الدنيا لرأيت أنني سأخرج من سخطه بعذر، لكنني إن حدثتك اليوم كذباً لترضى عني يوشك أن يسخطك الله علي، وإن حدثتك صدقاً تجد علي فيه، فإني لأرجو فيه عفو الله. ثم اعترف: ما كان لي من عذر.

قال النبي ﷺ: «أما هذا فقد صدق»، وأمره أن يقوم حتى يقضي الله فيه.

لم يأت الفرج في اللحظة نفسها. الصدق لم يمح أثر الخطأ فوراً، ولم يجعل الطريق بلا ألم. نهى المسلمون عن كلام كعب وصاحبيه، فمضت عليهم خمسون ليلة. يقول كعب إن الأرض تنكرت له، فما هي بالأرض التي يعرف. كان يخرج إلى الصلاة ويطوف في الأسواق، ولا يكلمه أحد. تسور حائط ابن عمه أبي قتادة، وهو من أحب الناس إليه، فسلم عليه فلم يرد السلام. سأله: أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، ثم قال بعد تكرار السؤال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عينا كعب.

في أثناء تلك الوحشة وصلته رسالة من ملك غسان، بلغه أن صاحبه قد جفاه، ودعاه أن يلحق به ليواسيه. كان في الرسالة باب جاه وعوض سريع. لكن كعب عرفها امتحاناً آخر، فأحرقها. لم يجعل ألم الطاعة حجةً للفرار من الله إلى باب يزيده بعداً.

ثم اشتد الأمر، وأمر الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم. وبعد خمسين ليلة، صلى كعب الفجر، وبينما هو جالس على الحال التي وصفها القرآن — ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] — سمع صوت مبشر من ناحية جبل سلع ينادي: يا كعب بن مالك، أبشر. نخر ساجداً، وعرف أن الفرج قد جاء.

دخل المسجد، فقام إليه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صاحفه وهنأه، ولم ينس كعب له ذلك. وكان وجه النبي ﷺ يبرق من السرور، وقال له: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». فسأل كعب: أمن عندك أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله».

حديث كعب رضي الله عنه رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩). وفي الآية: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ومن نعمة الله أن يوفقك للتوبة، ثم يقبلها منك. فإذا رزقك ندماً صادقاً وعزماً على الإصلاح، فاحمده، ولا تنسب استقامتك إلى قوتك وحدها. واسأله أن يعينك على أداء ما عليك، وأن يثبتك إذا شق عليك بعض آثار الرجوع.

ولم يقل كعب بعد قبول توبته: كانت المسألة شعوراً وانتهى. أراد أن يخلع من ماله صدقة لله، فأرشده النبي ﷺ أن يمسك بعض ماله فهو خير له. ثم عاهد أن يلزم الصدق ما بقي. خرج من الذنب بمعرفة جديدة: الكذب قد يمنح مخرجاً قريباً ويغلق أبواباً بعيدة، والصدق قد يؤلم أول الطريق ثم يحمل صاحبه إلى النجاة.

لا يلزم أن تمر توبتك بقصة ظاهرة كهذه. أكثر العائدين لا ينادي باسمهم من فوق جبل، ولا يعرف الناس ليلتهم. ربما تقع أعظم

معركة في غرفة مغلقة: تحو رقاً، أو تغلق حساباً، أو ترد مآلاً، أو تكتب اعتذاراً، أو تقوم فتتوضأ بعدما طال هربك. لا يصفق أحد، لكن الله يعلم الطريق كله.

والتوبة ليست كراهيةً دائمةً لنفسك. الندم ركن فيها، لكنه ندم يحركك إلى الإصلاح، لا سجن تقضي فيه عمرك تعاقب ذاتك من غير عمل. هناك فرق بين قلب يقول «أخطأت، فاغفر لي وأعني أن أستقيم» وقلب يقول «أنا انخطأ نفسه، ولا فائدة مني». الأول عرف ذنبه وربّه. والثاني جعل عجزه أكبر في ظنه من رحمة الله.

وقد وعد الله من جمع التوبة بالإيمان والعمل الصالح بما هو أوسع من محو السيئة: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. لا نقول إن المعصية كانت خيراً، فهي معصية، لكننا نقول إن الله قادر أن يجعل صدق الرجوع بعدها باب حسنات لم تكن لتولد مع الإصرار.

وقد يكون من نعم الله عليك أنه سترك وأنت تخطئ. لو كشف كل ذنب للناس في لحظته، لضاق على كثير من الخلق طريق الإصلاح، ولصار الإنسان أسير صورته في عيونهم. الستر مهلة كريمة، لكنه ليس علامة رضا عن الذنب، ولا عقد أمان

لمواصلته. شكر الستر أن تصلح الخفاء قبل أن ينكشف، وأن تستحي ممن لم تغب عن علمه حين غبت عن أعين الناس.

وفي سيد الاستغفار الذي علمه النبي ﷺ لأتمته جملة تجمع طرفي الحقيقة: «أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي»، رواه البخاري (٦٣٠٦). أعترف بنعمتك، وأعترف بذنبي. لا يجعلني الذنب أنكر ما غمرتني به، ولا تجعلني النعمة أزكي نفسي كأنني وفيت حقها.

كم يحتاج المذنب إلى هذا التوازن. قد ينظر إلى خطئه حتى لا يرى في حياته إلا سواداً، فيأس ويترك بقية الخير. وقد ينظر إلى نعمته ومكانه بين الناس فينسى خطأه، فيدافع عن نفسه ويبرر. أما التائب فيقف بلا قناع: ربي محسن، وأنا مقصر؛ ولهذا أرجع. ليس في الاعتراف بالنعمة تهوين للذنب، بل سبب حياة منه، وليس في الاعتراف بالذنب جحود للنعمة، بل بداية شكرها.

والشعور بالخزي قد يدفع الإنسان إلى الاختباء حتى عمن يستطيع أن يعينه. إذا كان الذنب قد صار عادة قهرية أو إدماناً أو سلوكاً يؤديك ويؤدي غيرك، فقد تحتاج - إلى جانب التوبة - إلى علاج وخطة ومحاسبة آمنة. لا تكشف نفسك لكل أحد، لكن اختر صاحب علم أو مختصاً أميناً بقدر الحاجة. طلب العون ليس فضيحة، واتخاذ السبب لا ينقص صدق افتقارك إلى الله.

كذلك لا تجعل التوبة وعداً ضخماً لا تعرف كيف تحفظه. قد تقول في لحظة انفعال: لن أخطئ أبداً، ثم تترك كل الظروف كما هي. الصدق أهدأ وأقوى: سأغلق هذا الباب اليوم، وسأبتعد عن هذا المكان، وسأعيد ترتيب هذا الوقت، وسأتصل بمن يعينني إذا ضعفت. العزم على عدم العودة ركن، لكنه لا يمنع أن تبني حول العزم أسباباً تحفظه.

وقد يؤلمك أن الناس لا ينسون بعد أن تبت. ربما يتغير قلبك ويبقى في أعين بعضهم تاريخ قديم. ليس لك أن تطالب من أذيته أن يستعيد الثقة فوراً؛ التوبة لا تلغي حقه في الحذر، والآثار تحتاج زمناً وإصلاحاً. افعل ما عليك، واقبل أن غرس الثقة أبطأ من كسرهما، ولا تجعل تأخر قبول الناس دليلاً أن الله لم يقبل رجوعك؛ فهذا غيب بينك وبينه، وعلامة صدقك أن تستقيم وتستمر وتخاف وترجو.

قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠): «كل أمتي معافي إلا المجاهرين»، وذكر رجلاً يعمل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيكشف ستر الله عنه. لا تتخذ الاعتراف العلني طريقاً للشهرة، ولا تحول صفحة طواها الله إلى مادة ترويهما طلباً للإعجاب. إذا كان الذنب بينك وبين الله فاستتر

بستره وتب إليه، واسأل عالماً موثقاً عما يلزمك إذا جهلت، من غير نشر لا حاجة إليه.

لكن الستر لا يعني دفن حقوق الناس. إذا أخذت مالا وجب رده بالطريقة التي تصل الحق إلى صاحبه. وإذا أفسدت سمعةً سعيت في إصلاح ما أفسدت بما لا يزيد الشر، واستفتيت فيما خفي عليك. وإذا كان الخطأ اعتداءً مستمراً على ضعيف، فلا يجوز أن نحمي المعتدي باسم الستر. الرحمة بالظالم أن يُمنع من ظلمه ويعان على توبة صحيحة، والرحمة بالمظلوم أن يُحْمَى ويرد حقه.

ومن نعمة التوبة أن شروطها واضحة في أصلها: أن تقلع عن الذنب، وتندم، وتعزم ألا تعود، وترد حق المخلوق إن تعلق به. قد تحتاج مع ذلك إلى تغيير أسباب: بيئة، أو صحبة، أو جهاز، أو وقت خلوة، أو مورد مال. لا تطلب من قلبك أن يقاوم كل يوم باباً تتركه مفتوحاً ثم تتعجب من السقوط. إغلاق السبب جزء من صدق العودة.

وإن تبت بصدق ثم ضعفت وعدت، فجدد التوبة، ولا تجعل الذنب الجديد حجة لليأس. احذر الإصرار، وابحث عن سبب يعود بك إلى الخطأ فأصلحه. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل فقد راحلته في أرض مهلكة وعليها طعامه وشرابه، ثم وجدها بعد اليأس منها. رواه مسلم (٢٧٤٧). ثبت لله صفة

الفرح كما ثبتت في الحديث، على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه بفرح المخلوقين ولا صرف لها عن معناها.

وقد يبتلى بعض الناس بوسواس شديد، فيعيدون فحص نياتهم وعباداتهم وتوبتهم. من كان كذلك فليأخذ العلم بمن يفهم حاله، وليستعن بمختص عند الحاجة؛ فليس كل خاطر حكماً، وليس تكرار الفحص طريقاً إلى الطمأنينة. والخطاب النافع يراعي حال السامع: يوقظ الغافل، ويمنع القانط من اليأس، ويعين كلاً على طاعة الله.

وما دامت مهلة التوبة باقية، فبادر. أفلح عن الذنب، واندم عليه، واعزم ألا تعود، وأد ما تعلق به من حقوق، واسأل أهل العلم فيما أشكل. ومن دعاء آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

خذ من تذكر خطئك ما يعينك على التواضع والحذر، ثم امض إلى العمل الصالح. إنك تحتاج إلى رحمة الله فيما مضى، وإلى توفيقه فيما بقي. فاحمده على باب التوبة، ولا تؤخر الدخول فيه.

الفصل الثالث والعشرون

نور تعرف به الطريق

قد يريد الإنسان الخير ويجهل الطريق إليه: هل ثبت الحديث الذي سمعه؟ وهل العبادة التي دعاه إليها أحد مشروعة؟ وما الذي يلزمه في كسبه وحقوق أهله؟ هنا يعرف قدر العلم، وأن صدق النية يحتاج إلى عمل موافق للشرع.

ومن رحمة الله أن أنزل كتابه وبعث رسوله ﷺ، وعلّنا كيف نعبد. فلا نتقرب إليه بما لم يشرع، ولا نشدد على أنفسنا بما لم يوجب، ولا ننقل عن رسوله كلاماً لأن معناه أعجبنا. العلم نعمة تحفظ العبادة من الخطأ، وتعين صاحبها على أداء الحقوق.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

جاءت الآية في سياق سؤال أهل العلم عن حقيقة الرسل الذين كانوا بشراً، وفيها أصل واسع: أن من لم يعلم يرجع إلى من يعلم. ما أرحم أن يكون في الدين جواب مشروع اسمه: اسأل. لست مطالباً أن تحمل وحدك كل تفاصيل الشريعة، ولا أن تستحي من جهل ما لم نتعلمه. المطلوب أن تعرف قدر نفسك، وأن تطلب البيان من أهله.

لكن السؤال نفسه أمانة. ليس كل من ظهر أمام شاشة من أهل الذكر، ولا كل من تكلم بثقة عالماً، ولا كثرة المتابعين إسناداً. في زمن يصل فيه الصوت قبل أن يثبت معناه، صارت نعمة الوصول إلى العلم مصحوبةً بمسؤولية التمييز. اسأل من عُرِفَ بالعلم والديانة والعدل، ومن يرد كلامه إلى القرآن والسنة وفهم أهل العلم، ولا يبيع لك اليقين في المسائل التي تحتل، ولا يجعل كل خلاف معركة على إيمان الناس.

وقد يبدو الرجوع إلى أهل العلم أمراً عقلياً فقط، لكنه رحمة بالقلب أيضاً. كم من إنسان حمل ذنباً لم يفعله لأن جاهلاً شدد عليه. وكم من موسوس أغرق في تفاصيل زادت مرضه باسم الاحتياط. وكم من مظلوم طلب منه أن يتنازل عن حقه باسم الصبر. العلم الصحيح يضع الكلمات في مواضعها: الاحتياط لا يلغي سماحة الشرع، والصبر لا يبارك الظلم، والرضا لا يمنع العلاج، والتوبة لا تسقط حق المخلوق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. لا تتبع ما لا تعلم، ولا تتقل حكماً أو خبراً قبل التثبت. قد يقلق إنسان من رسالة لا أصل لها، أو يتضرر بيت من فتوى نُقلت بغير سياقها. ومن الأمانة أن تقول: لا أعلم، وأن تحيل السؤال إلى من يحسن الجواب.

دخل رجل المسجد فصلى، ثم سلم على النبي ﷺ، فقال له: «ارجع فصل فإنك لم تصل». تكرر ذلك، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره، فعلمني. فعله النبي ﷺ الطمأنينة في أركان الصلاة. رواه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧). في هذا الخبر تصحيح للخطأ، وتعليم لما يحتاج إليه صاحبه. فإذا علمت غيرك، فاجمع وضوح الحكم والرفق بالمتعلم.

إذا كنت تعلم غيرك، فتذكر هذا الرجل. ربما أدى عبادةً زمنًا على نقص لأنه لم يجد من يشرح له بوضوح. لا تجعل سبقك إليه فضلًا تتعالى به؛ اجعله خدمة. اختر الكلمة التي تحفظ كرامته من غير أن تخون الحكم، وفرق بين جاهل يريد أن يتعلم ومعاند يريد أن يخاصم.

وإذا كنت أنت الرجل الذي اكتشف بعد سنين أنه لا يحسن أمرًا ظنه واضحًا، فلا تدع النجل يمنع السؤال. قوله «فعلمني» كان بداية تصحيح، لا شهادة سقوط. كل علم في حياتك بدأ من موضع لم تكن تعرفه، والعيب ليس أن تجهل قبل التعلم، بل أن تختار البقاء لأن صورتك أمام الناس أغلى عليك من الحق.

وأخبر النبي ﷺ عن موسى عليه السلام أنه سُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، وأخبره أن عبداً عند مجمع البحرين أعلم منه بما علمه الله. فسأل موسى عن السبيل إليه،

ورحل في طلبه. أصل الخبر في صحيح البخاري (١٢٢)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).

وقال موسى كما أخبر القرآن: ﴿هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]. نتعلم من هذا السؤال أدب الطلب والتواضع للعلم. وقد يعرف غيرك مسألة لا تعرفها، فلا يمنعك قدرك أو سنك أن تسأل وتستفيد.

نعمة العلم لا تعني أن تعرف كل شيء. تعني أن تعرف ما تحتاج إليه لتعبد الله على بصيرة، وأن تعرف أين تسأل عما لا تعرف. أول العلم الذي يلزمك قريب من يومك: كيف تصح عقيدتك؟ كيف تلتزم وتطهر وتصلي؟ ما الحلال والحرام في كسبك؟ ما حقوق من تحت يدك؟ ماذا يلزمك إذا أخطأت؟ لا تبدأ بالمجادلات البعيدة وتترك فرض ساعتك غامضاً.

وفي صحيح البخاري (٧١)، وصحيح مسلم (١٠٣٧)، أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». الفقه هنا علامة خير؛ لأنه فهم يغير العبادة والقرار. قد يحفظ الإنسان كلمات كثيرة ولا تورثه خشية ولا عدلاً، وقد يفهم حكماً واحداً فيؤدي به حقاً ظل يؤجله أعواماً. ليس وزن العلم بعدد الملفات في الذاكرة، بل بصدق الدلالة إلى الله وأثرها في العمل.

ومن أجلّ نعم الله أن العلم لم يصلنا فكرةً مجردة، بل جاءنا في حياة رسول الله ﷺ. القرآن يأمر بالصلاة، والسنة ترينا أوقاتها وهيئتها. يأمر بالزكاة، ويبين الرسول أنصبتها وأحكامها. يدعونا إلى الرحمة، فترى كيف كان يرفق بالصغير والمريض والجاهل. يحذرنا الغلو، فنراه يصوم ويفطر، ويقوم وينام، ويتزوج، ويقول لمن أرادوا مجاوزة هديه: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»؛ رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وفي سنة رسول الله ﷺ بيان للقرآن وتعليم لأُمَّته. وصلتنا صلاته وجهه وأذكاره ومعاملاته، وعرفنا من هديه كيف نجتمع العبادة والرحمة والعدل.

ومن شكر هذه النعمة التثبت فيما ننسبه إليه. إذا وصلتك عبارة جميلة يُقال إنها حديث، فابحث عن مصدرها وحكم أهل الحديث عليها قبل نقلها. صحة المعنى وحدها لا تثبت النسبة إلى النبي ﷺ.

وقد يجد طالب العلم لذةً في اكتشاف خطأ غيره، فينسى أن العلم نعمة تقتضي التواضع. المقصود من التصحيح إنقاذ المعنى والناس، لا صناعة منصة للذات. يمكن أن تقول «هذا الحديث لا يثبت» من غير سخريّة ممن نقله، وأن تبين الحكم من غير أن تفتش قلب المخالف. العلم والعدل رفيقان؛ إذا انفصلا صار أحدهما أداة أذى.

والعلم لا يعصم صاحبه من الخطأ بعد رسول الله ﷺ. للعالم قدره وفضله، لكنه بشر يُقبل من قوله ويرد بحسب الدليل، ولا نعرف سريره، ولا نجعل محبتنا له إذناً لتعطيل عقولنا أو إسقاط حقوق الناس. من نعمة المنهج أن الحق لا يموت بموت رجل، ولا يتوقف على عصمة مدرسة بشرية. نحفظ مقامات العلماء، ونستفيد من تخصصاتهم، ونعرف للخلاف المعبر أدبه، ونرد التنازع إلى الوحي.

كذلك لا تجعل اختلاف الفتاوى باباً لاختيار الأسهل لهواك كل مرة، ولا تجعل التشدد علامةً مضمونة على الورع. اسأل بصدق، واصفاً واقعك كما هو، لا كما تريد أن يسمعه المفتي. فقد نثغير الفتوى بتغير تفصيل أخفيته. وإذا كان الأمر طيباً أو نفسياً أو مالياً متخصصاً، فقد تحتاج إلى عالم يفهم الحكم وخبير يفهم الواقع. نور الطريق يكتمل حين توضع كل خبرة في موضعها.

وربما لا تستطيع حضور مجالس طويلة، أو لا تملك تركيزاً لقراءة المطولات. لا تحرم نفسك لأن صورتك عن طالب العلم أكبر من طاقتك. اسمع درساً موثقاً قصيراً، وقرأ تفسير سورة تصلي بها، وتعلم أحكام عمل تمارسه. القليل الذي يرفع جهلاً يحتاج إليه ليس قليلاً عند الله. وفي صحيح مسلم (٢٦٩٩) أن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة.

وقد يكون المعلم الذي حمل إليك هذا النور أباً صحيح لك الفاتحة، أو أمّاً لقنتك أول دعاء، أو شيخاً علمك الوضوء، أو أستاذاً فتح لك باب قراءة، أو صديقاً أرسل إليك جواباً موثقاً في ساعة حيرة. اشكر الله الذي ساقهم، واشكرهم. واعرف أن سلسلة العلم أطول من الأسماء التي رأيتها؛ وراء الصفحة أعمار حفظت ونسخت وعلمت وحقت، حتى صار بين يديك ما تقرأه في دقائق.

لكن لا تجعل التعلم كله استهلاكاً. كل جواب صحيح يحمل سؤالاً جديداً: ماذا سأفعل به؟ إذا تعلمت فضل الصدق، فموضع الشكر كلمة كنت ستكذب فيها. وإذا تعلمت حق الأجير، فموضع العلم راتب تؤديه. وإذا عرفت سنة ثابتة، فحياتها أن تعمل بها على بصيرة من غير أن تجعلها أداة للتعالي.

واجعل أول انتفاعك بالعلم في نفسك. إذا تعلمت حقاً في عملك فأدّه، وإذا عرفت حقاً كنت تضيعه فاستدركه. لا تجعل معرفتك وسيلة لتتبع أخطاء الناس مع الغفلة عن خطئك.

خذ سؤالاً تحتاج إلى جوابه فعلاً، واسأل عنه من يوثق بعلمه ودينه، ثم اعمل بما تعلمت. وادع بما أمر الله به نبيه ﷺ: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]. مهما تعلمت، تبقى محتاجاً إلى الزيادة، وإلى الإخلاص والقبول والعمل.

الفصل الرابع والعشرون

أن تقول: يا رب

تقول: يا رب، وأنت بجوار سرير مريض، أو مقبل على قرار، أو خائف على من تحب. قد تعرف ما تريد، وقد تختلط عليك حاجاتك، فتسأل الله الهدى والخير والعافية.

ومن نعمته أن شرع لك الدعاء قبل أن ترى تغييراً في حالك. عرّفك بنفسه، وأمرك أن تسأله، وأخبرك أنه سميع قريب مجيب. فأقبل عليه بافتقارك، واسأل بصدق وأدب، ولا تؤخر الدعاء لأن عبارتك بسيطة أو لأنك كثير التقصير.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. سمي الدعاء عبادة في سياق الآية. حين تسأل، لا تقدم إلى الله خبراً يجهله؛ تعلن فقرك، وتوحد وجهتك، وتعبّد.

ربما تستطيع أن تشرح مشكلتك للناس ساعات، ثم لا يملك أحد منهم قلبك ولا المال. وربما يملك أحدهم سبباً يساعدك، فتشكره وتأخذ به، لكنه يظل عبداً محدوداً. أما الدعاء فيرد الحاجة إلى من لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه جهة من القصة.

هذا لا يعني أن نترك سؤال الناس فيما يقدرُونَ عليه. من التوكل أن تستشير الطبيب، وتطلب حقك، وتَسأل صاحب الخبرة، وتستعين بمن يحبك. لكن قلبك يعرف الفرق بين السبب والرب. تسأل الناس بأدب من غير عبودية، وتَسأل الله افتقاراً لأن الأمر كله له.

في مطلع سورة مريم، لا تبدأ قصة زكريا عليه السلام بصوت مرتفع أمام جمع. تبدأ هكذا: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٣-٢].

كان نداء زكريا عليه السلام خفياً، ودعاؤه متوجهاً إلى ربه. فلا يشغلك في الدعاء أن يسمعك الناس أو يحسنوا الظن بعبارتك؛ المقصود عبادة الله وسؤاله.

قال زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

لم يتظاهر بالقوة. سَمِيَ وهن العظم، ورأى الشيب وقد انتشر في الرأس، وكانت امرأته عاقراً. الأسباب الظاهرة بعيدة، والسن تقدم، لكنه لم يقرأ ضعفه بوصفه باباً مغلقاً على قدرة الله. حمل تاريخاً آخر في قلبه: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]. عرف من دعائه لربه كرمًا ورحمة، فجاءه في آخر العمر بقلب يعرف أين يطرق.

ثم سأل ولياً من بعده، وجاءته البشري: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]. ولما سأل متعجباً من صورة وقوع ذلك مع الكبر والعقر، جاءه الجواب بأن هذا على الله هين، وأنه خلقه من قبل ولم يكن شيئاً.

نقرأ خبر زكريا عليه السلام فنؤمن بقدرة الله، وتعلم الرجاء وأدب الدعاء. وهذه البشري وحي لني بعينه؛ فلا نستخرج منها وعداً بأن ينال كل داع في الدنيا عين ما طلبه وفي الوقت الذي يرجوه.

قد تدعو بالولد ولا يأتي. وقد تدعو بشفاء من تحب ثم يموت. وقد تسأل رجوع غائب فلا يرجع. الألم في هذه المواضع حقيقي، ولا يجوز أن نقول للمكسور: لو كان يقينك كاملاً لحصل مرادك. نحن لا نعرف الغيب، ولا نقيس منزلة العبد بسرعة العطاء. كم من نبي طال انتظاره، وكم من عبد صالح بقي ابتلاؤه إلى موته.

اليقين في الدعاء ليس يقيناً بأن اختيارك سيقع حتماً كما اخترت؛ هو يقين بأنك دعوت سميعاً قريباً حكيماً رحيماً، وأن دعاءك عبادة لا تضيع، وأن الله يختار بعلم لا تملكه. تقول حاجتك بصدق، وتلح، وتأخذ بالأسباب، ثم لا تجعل صورة واحدة شرطاً لحسن ظنك بربك.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يدعو أمه إلى الإسلام فتأبى، فطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو لها. فقال: «اللهم اهد أم أبي هريرة». ثم عاد أبو هريرة إليها فوجدها قد اغتسلت، وسمع منها الشهادتين، فرجع إلى النبي ﷺ يبكي من الفرح. رواه مسلم (٢٤٩١).

في الخبر فضل الدعاء وفرح الابن بهداية أمه. فإذا كان لك عزيز ترجو هدايته، فادع له، وبلغه برفق، وأحسن القدوة. لا تجعل سرعة استجابة في خبر معين حكماً على نفسك؛ فالهداية بيد الله، وواجبك بذل ما تستطيع من دعاء ونصح وإحسان.

كما أن الاستجابة لا تعني أن الطريق بعد تلك اللحظة يصير بلا تكليف. الهداية بداية عمر من العبودية، والشفاء يفتح مسؤولية شكر الجسد، والمال يفتح باب الحقوق. أحياناً ننظر إلى الإجابة كأنها خاتمة القصة، وهي في الحقيقة أول سؤال جديد: ماذا ستصنع بالعطية؟

اطلب ما تحب من شفاء ورزق وزواج، وألح في الدعاء، مع الرضا بالله رباً وحسن الظن به. لا تجعل إيمانك مشروطاً بتحقيق أمنية، ولا يحملنك تأخرها على ترك واجب أو طلب حرام. حاجتك عزيزة عليك، والله أعلم بما يصلحك.

وفي سورة الأنبياء، بعد ذكر استجابة الله لزكريا، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. الدعاء كان داخل حياة: مسارعة في الخير، ورغبة ورهبة، وخشوع. لم يكن زكريا ينتظر وهو متوقف عن العبودية حتى يحصل الطلب. ظل الطريق إلى الله غايته وهو يسأل الله شيئاً من الدنيا يعينه على الدين.

وهكذا تفعل أنت. إذا دعوت بعمل، فتعلم وتقدم واطرق الأبواب. وإذا دعوت بالصلاح، فابدأ بالكلمة التي عليك. وإذا دعوت بالعافية، فتداو. وإذا دعوت بالهداية، فاطلب العلم واترك البيئة التي تعيدك إلى الذنب. ليست الأسباب دليلاً على ضعف الدعاء؛ الله الذي أمر بالدعاء هو الذي جعل للأشياء أسباباً.

وقد يطول الزمن حتى نتعب من تكرار الكلمات. يأتيك خاطر يقول: قلت هذا كثيراً، فما فائدة أن أعيده؟ قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥): «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي». الاستعجال هنا ليس مجرد شعور عابر بالتعب؛ فالإنسان يضعف ويحزن. الخطر أن يتحول التعب إلى ترك للدعاء وسوء ظن، كأن العبد جعل لنفسه موعداً إذا تجاوزه القدر أغلق الباب.

إذا تعبت، فقل لربك إنك تعبت. هذا أيضًا دعاء. لا يلزم أن تخفي ضعفك خلف كلمات قوية. يعقوب عليه السلام قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. الشكوى إلى الله لا تناقض الصبر؛ إنها من صميم العبودية. الممنوع أن تجعل الشكوى اعتراضًا عليه أو اتهامًا له. أما أن تبث حزنك بين يديه، فإلى من يذهب الحزين إن لم يذهب إلى ربه؟

وقد لا تجد في بعض الأيام إلا جملة واحدة. لا تحتقرها. «رب اغفر لي». «رب ارحمهما». «رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين». «حسبنا الله ونعم الوكيل». الأدعية القرآنية والنبوية تجمع المعاني وتحفظ الأدب، فتعلم منها، ثم اسأل حاجتك بكلام واضح مشروع.

لا تجعل فصاحة الدعاء شاغلك. ليس الأقرب إلى الله من جمع أكثر المحسنات، ولا من بكى أمام الناس. قد يكون دعاء عامي بسيط خرج من قلب صادق أقرب إلى الافتقار من خطاب طويل يشاهد صاحبه نفسه فيه. وفي مواطن العبادة المقيدة نلتزم ما شرع، أما الدعاء المطلق فبابه واسع في الحاجات المباحة.

ومن أدب الدعاء أن تبدأ بحمد الله والثناء عليه، وتصلي على النبي ﷺ، وتسال بقلب حاضر ما استطعت، وتحرى الحلال، ولا تدعو بإثم أو قطيعة رحم. لكن لا تحول الآداب إلى حواجز نفسية

تقول لك: لم أؤد المقدمة كاملة، فلا يحق لي أن أدعو. تعلم الأدب وزد فيه، وإذا داهمك الكرب فقل: يا رب. الملهوف لا يحتاج إلى امتحان بلاغة عند الباب.

واجعل لك دعاء في الخفاء، تسأل فيه حاجتك وتدعو لمن تحب، من غير انشغال بمن يعلم عنك. وإذا طلبت من حي أن يدعو لك فليكن ذلك من غير تعلق به أو اعتقاد أنه يملك قضاء حاجتك.

وقد يستمر الدعاء مع استمرار الابتلاء، فترجو رحمة الله ولا نعين حكمة خاصة لم يخبرنا بها. الدعاء عبادة، وحاجتنا إلى الله باقية في كل حال، حتى إذا تحقق ما كنا نسأله احتجنا إلى عونه على شكره وحسن الانتفاع به.

إذا جاءت الإجابة كما سألت، فاحمد الله، ولا تنسب الأمر إلى قوة كلماتك أو منزلة نفسك. وإذا جاءك الخير من جهة لم تتوقعها، فاحمده وتعلم أن تديره أوسع. وإذا بقي الباب الذي تراه مغلقاً، فلا تزعم أنك عرفت حكمته، ولا تكذب أملك. واصل السبب المشروع، واستشر، وعدل خطتك إن لزم، وابق باب الدعاء مفتوحاً.

ومن الجميل أن تحفظ ذاكرة الدعاء بعد الإجابة. نحن نتذكر ليالي الطلب بوضوح، ثم إذا استقرت العطية في البيت دخلت سريعاً في قائمة المعتاد. اكتب أحياناً: هذا الأمر دعوت الله به، وهذا

الخوف صرفه، وهذا الباب يسره. لا لتروي للناس كرامة خاصة، ولا لتزعم أن كل تفصيل وقع بسبب تعرفه، بل كي لا تستيقظ يوماً داخل إجابة قديمة وتتعامل معها كأنها حق لم تطلبه قط.

وإذا رأيت دعاء غيرك يُجاب على الصورة التي يريد، فلا تجعل فضله خبراً عن حرمانك. بارك له. العطاء ليس طابوراً إذا وصل إلى واحد نفذ قبل أن يبلغك، وخزائن الله لا تنقص. لكن لا تستخدم قصته ميزاناً لنفسك: هذا تزوج بعد شهر، وذاك شفي، وتلك رزقت ولداً. لكل عبد قدر لا نعرفه، وإيمانك ليس مسابقة في سرعة النتائج.

واحذر أن تتحول إجابة الدعاء إلى حجة إعجاب: دعوتُ فكان. أنت مأمور بالدعاء، لكن الذي قدّر وأعطى هو الله. قد يفتح لك فضلاً محضاً، وقد يبتليك بما أعطاك. لذلك كان الحمد بعد الإجابة يحرسها: يعيدها إلى صاحبها، ويذكرك أن الشكر ليس منشوراً تعلن فيه فرحك فقط، بل استعمال العطية في رضاه.

وقد تكون الإجابة التي تحتاجها الآن ليست «نعم» للشيء، بل بصيرة تعرف بها ماذا تفعل. لذلك كان من أعظم الدعاء طلب الهدى والعافية والثبات. لا تجعل كل دعائك قائمة أشياء خارجك. اسأل قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، ورزقاً حلالاً، وعلماً

نافعاً، وحسن خاتمة. كم من إنسان نال ما طلب ثم احتاج إلى نجاة من فتنته.

وادع لغيرك. حين تحمل اسم إنسان إلى سجودك، يتسع قلبك خارج دائرة نفسه. ادع لمن تحب، ولمن ظلمك بالهداية وكف الأذى مع طلب حقك، وللمريض، والمكروب، ومن لا يعرف أنك تذكره. الدعاء للناس لا يعوض العمل الذي تقدر عليه؛ إذا استطعت أن تطعم وتزور وتدفع ظلماً فافعل. لكنه عمل لا يعجز عنه حتى من قل ماله وضعفت يده.

ارفع حاجتك إلى الله، واحمده وصلِّ على نبيه ﷺ، واسأله الهدى والعافية وصلاح الحال. ثم خذ بالسبب المشروع الذي تقدر عليه: استشارة، أو تعلم، أو علاج، أو إصلاح حق ضيعته.

وقد تقوم من دعائك ولم تعرف متى يأتي الفرج، لكنك أدت عبادة عظيمة، ورجوت رباً سميعاً رحيمًا. فاحمده على نعمة أن تدعوه، واسأله ألا يحرمك حسن الظن به والعمل بطاعته.

الباب الخامس حين يؤمك الطريق

قد تقرأ هذه الصفحات وأنت تحمل همًّا لا تستطيع شرحه، أو تفقد عزيزًا، أو تتعب من مرض طال. نسأل الله أن يرحم ضعفك، ويكشف ضرك، ويعينك على ما نزل بك.

عرف الأنبياء الألم؛ حزن يعقوب، ودعا أيوب لما مسه الضر، ودمعت عينا رسول الله ﷺ عند موت ابنه إبراهيم. ولم يمنعهم ذلك من الصبر والدعاء وحسن الظن بالله. نتعلم من أخبارهم كيف نحفظ إيماننا ونحن نتألم، وكيف نجتمع سؤال العافية وشكر النعم الباقية.

قد يخف الوجد، وقد يبقى منه شيء، والله لا يظلم أحدًا ولا يضيع أجر المحسنين. نخذ بما نستطيع من الأسباب، واطلب من يعينك، وابث شكواك إلى ربك. وقل: اللهم لك الحمد، وأنت المستعان على ما يؤمني.

وجعك ليس وهماً

قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَيْنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾
[يوسف: ٨٦]. حزن وشكا إلى ربه، فتعلم أن الاعتراف بالألم لا يناقض الصبر.

قد تقول لك نفس محبة: لا تحزن. تريد تثبيتك، لكنك قد تفهم منها أنك مطالب بألا تشعر وألا تبكي. لا تجعل هذا الفهم يزيدك تعباً، فالحزن الذي لا يختاره الإنسان، ودمع العين من الرحمة، لا يجعلان صاحبه مذنباً. احرص على ما تقول وتفعل في حزنك، واستعن بالله على ما لا تملك دفعه من الشعور.

لما كان إبراهيم ابن رسول الله ﷺ يجود بنفسه، دمعت عينا أبيه، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة». ثم قال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». رواه البخاري (١٣٠٣).

في هذا الخبر يجتمع الحزن والرحمة وحفظ اللسان. فلا تجعل جفاف العين شرطاً للصبر، ولا تجعل شدة المحبة عذراً للسخط. قد

تدمع عينك وتشتاق، وتبقى عبداً يقول ما يرضي الله ويجتنب ما حرمه.

قد يبكي شخص، ولا يستطيع آخر أن يبكي. وقد يكثر كلام إنسان، ويصمت غيره. لا تجعل هيئة واحدة قانوناً للحزن. بعض القلوب يظهر وجعها، وبعضها يحتفظ به في موضع بعيد لا يراه الناس. الله وحده يعلم ثقل كل نفس، ولا يكلفها أن تشبه غيرها. المهم ليس شكل الحزن، بل الطريق الذي يأخذك إليه.

ثمة حزن يدفعك إلى الله: تصلي وفي صوتك انكسار، تفتح المصحف لأن كلام الناس ضاق عنك، تقول في سجودك ما لم تستطع قوله لأحد، وتطلب صحبة من يعينك على يومك. وثمة حزن يحاول أن يقطعك: يهمس أن الله تركك، وأن حياتك انتهت، وأن لا معنى لبقية الطريق. وبين الطريقين لحظات مد وجزر؛ قد تقوى صباحاً وتضعف مساءً، ثم تعود. لا تحكم على إيمانك من موجة عابرة. انظر إلى الجهة التي ترجع إليها كلما تاه بك الألم.

والسخط المحرم يتجاوز الحزن الطبيعي إلى الاعتراض على الله، أو اتهامه بالظلم، أو القول والفعل المحرمين. أما الدعاء وطلب الشفاء وبيان ما يؤلمك، فلا يناقض الصبر. وكذلك الخاطر القهري الذي تكرهه وتدفعه لا تتخذه حكماً على إيمانك.

اشكُ إلى الله، وأخبر من يعينك بما يحتاج إلى معرفته. تستطيع أن تقول: يا رب، أنت تعلم ضعفي، فأعني. وأن تطلب من قريب مرافقتك أو من طيب علاجك. يظل قلبك مفتقراً إلى الله، وتستعمل ما يسره لك من أسباب.

لا تجعل الحمد خصماً لحزنك.

ليس مطلوباً أن تقول: أنا سعيد بهذه المصيبة. ولا أن تسمي الفقد جميلاً من الجهة التي آمنتك. الحمد أوسع من ذلك: تحمد الله لأنه الله، الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله؛ وتحمده على نعم باقية لم يأخذها الفقد؛ وتحمده على ما تعلم من رحمته وإن خفي عليك وجه الحكمة الخاصة؛ وتسأله أن يعينك على حمل ما لا تفهمه.

قد تقول وأنت تبكي: الحمد لله أن أبي عرف الإيمان قبل أن يموت. الحمد لله على الأعوام التي صحبت فيها أمي. الحمد لله أن لي رباً أرجو عنده لقاءً لا يعقبه فراق. وقد لا تقدر الآن على استحضار شيء من ذلك؛ فقل: الحمد لله رب العالمين، ثم اترك للقلب زمنه. لا تحوّل الحمد إلى امتحان مشاعر. الكلمة الصادقة قد تسبق الإحساس الكامل، ثم تفتح له طريقاً بطيئاً.

وقد يعود الحزن بعد هدوء، فتوقظه ذكرى أو حاجة اعتدت أن تشارك فيها من فقدت. لا تقسُ على نفسك، ولا تحملها جدولاً

يضعه الآخرون للتعافي. وإذا أثقل الحزن حياتك وتعذر عليك احتمالُه، فاطلب عوناً من شخص أمين أو مختص مؤهل.

وإذا كنت بجوار حزين، فلا تبدأ بتفسير مصيبتَه.

لا تقل له إن الله أخذ هذا ليعطيه ذاك، فأنت لا تعلم حكمة الله الخاصة في شأنه. لا تقارن فقدَه بفقد أكبر، كأن القلب يبرأ إذا عرف أن غيره يتألم أكثر. لا تطلب منه أن يحمّد بطريقة تشعره أنه متهم. اجلس. اسمع. احمِل عنه ما تستطيع: مكالمه، طعاماً، موعداً، طريقاً، أو صمتاً لا يطالبه بشيء. وإذا ذكّرتَه بالله، فذكّرْه بالله الذي يرحم ويعلم، لا بعبارات تجعل إيمانه قفصاً لمشاعره.

أحياناً يكون أجمل ما تقوله: أنا معك. وأجمل ما تفعله أن تبقى بعد أن ينصرف الجميع.

ومن التعزية الماثورة قوله ﷺ: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى». رواه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣). وفي الاسترجاع الذي علّمنا الله: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. نحن ومن نحب ملك لله، وإليه الرجوع، وعنده نرجو المغفرة والرحمة وحسن اللقاء.

قد لا تستطيع اليوم إلا حفظ لسانك وأداء صلاتك والعناية بحاجاتك القريبة. افعل ما تقدر عليه، واقبل عون من يحسن

إليك. وإذا أخطأت في كلمة أو تصرف، فاستغفر وأصلح، ولا تجعل العثرة سبباً لليأس.

اللهم ارحم ارحم ضعفنا، واجبر مصابنا، واحفظنا من السخط والقنوط. اغفر لموتانا المسلمين وارحمهم، وأعنا على الصبر وحسن العمل، ولا تحرمنا شكر ما أبقيت لنا من نعمك.

الفصل السادس والعشرون

الساعة الأولى

قد يبلغك خبر لا تتوقعه، فتحتاج إلى وقت لتفهم ما جرى. وفي أول المصيبة يكون الصبر شاقاً، ويعظم الاحتياج إلى تثبيت الله وإلى رحمة من حولك.

مر رسول الله ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري». فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصیبتی، ولم تعرفه. فلما علمت أنه رسول الله ﷺ أثته وقالت: لم أعرفك. فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

يبين الحديث فضل المبادرة إلى الصبر حين تقع المصيبة. وليس الصبر إنكاراً للدمع أو الدهشة، وإنما تجاهد نفسك في ترك التسخط والقول والفعل المحرمين. وإذا رأيت مصاباً، فاذكر شدة حاجته إلى الرفق، وأعنه بكلمة واضحة وخدمة يحتاج إليها.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

[البقرة: ١٥٦]

في الاسترجاع إقرار بأننا ملك لله، وأن مصيرنا إليه. قلّه وأنت ترجو ما وعد به الصابرين، ولو بقي دمك وحزنك. لا يلزم أن تزول آثار الخبر فوراً حتى تصدق كلمتك.

وعند شدة الخبر، استعن بمن تثق به في الشؤون التي تعجز عنها أو يشق عليك تكرارها. قد يحمل عنك الاتصالات، أو يرافقتك، أو يوضح لك ما تحتاج إلى فعله. وأجل ما يحتمل التأجيل من القرارات حتى تثبت أمره.

وإذا كنت قريباً من المصاب، فاسمع له، وبين الحق برفق، ولا تكثر عليه من التفاصيل أو الكلام. انظر في حاجته الفعلية: من يبقى معه، ومن يعتني بأطفاله، ومن يقضي ما لا يطيق قضاءه الآن. المواسة الصادقة قول طيب وعمل نافع.

ومن أكثر ما يؤذي المصاب أن يسمع تفسيراً قاطعاً لما وقع: «حدث هذا لأن الله يريد منك كذا»، أو «لو كنت فعلت كذا لما وقع»، أو «أكيد سيعوضك الله قريباً بعين ما فقدت». ربما قلت الجمل بحسن نية، لكنها تحمل علماً لا نملكه. نحن نعرف قواعد عامة: أن الله حكيم، وأنه لا يظلم، وأن المؤمن يؤجر على صبره، وأن عليه أن يأخذ بالأسباب. أما سر حادثة بعينها، وموعد التعويض، وصورته، فلا نعلمها.

قل للمصاب ما تقدر على الوفاء به: أبقى معك، أو أقضي لك هذه الحاجة، أو أستمع إليك. وادع له بالصبر والأجر، من غير وعد بموعد أو عوض لم يثبت لك.

وإن فاتك كمال الصبر أول المصيبة، فلا تتركه فيما بقي. تب مما صدر من خطأ، واعتذر إن آذيت أحداً، وابدأ من ساعتك. يدل الحديث على فضل الصبر عند الصدمة الأولى، ولا يسوغ أن نجعله سبباً لليأس ممن تعثر ثم رجع.

وقد تتابع الأخبار الصعبة، فتحتاج في كل مرحلة إلى تجديد الصبر والدعاء والأخذ بالأسباب. احفظ فرائضك بحسب استطاعتك، واسأل عما يشكل من أحكام حالك، واقل المساعدة فيما يعجزك.

وإذا كنت تواسي غيرك، فلا تحصر عونك في يوم الخبر. قد يكون أحوج إليك بعد انصراف الناس. اسأله برفق عما يحتاج إليه، واحترم حاجته إلى الهدوء، وأعنه على الوصول إلى المختص إذا احتاج إلى عون يتجاوز استطاعتك.

تذكر في ساعتك الصعبة: أنت لله، وإليه ترجع، وهو يعلم ضعفك. قل: إنا لله وإنا إليه راجعون، واسأله الأجر والخلف الحسن. ثم قم بما تستطيع من واجب قريب.

اللهم أجرني في مصيبي، واخلف لي خيراً منها. اللهم اربط على قلبي، وأعني على الصبر، واغفر لي ما بدر مني، ولا تكلني إلى نفسي. أرجو رحمتك وأنا ضعيف، وأستعين بك وأنا محتاج.

الفصل السابع والعشرون

الحزن الذي يطول

بعد أول الخبر يبقى على الإنسان أن يعيش أيامه مع الغياب. قد يتذكر من فقدته عند وجبة أو موعد أو خبر كان يحب أن يقصه عليه. وتعود الذكري بعد هدوء، فيظن أنه لم يتقدم، مع أنه يحاول ويؤدي ما يستطيع.

لا تقس قدر محبتك بمقدار حزنك الظاهر، ولا تجعل طول الحزن حكماً على إيمانك. في خبر يعقوب عليه السلام ما يبين اجتماع الحزن والصبر والرجاء.

لما جاءه أبنؤه بنجر يوسف الكاذب، قال: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. ومضت أحداث كثيرة في حياة يوسف عليه السلام، ويعقوب لا يزال يرجو لقاءه.

ثم جاءه فقد جديد حين احتبس أخو يوسف في مصر. قال مرة أخرى: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]. لم تكن الذكري القديمة قد بردت، فجاءها وجع جديد. تولى عنهم وقال: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

أخبر القرآن عن حزنه، وأخبر عن صبره ورجائه. فلا تجعل الشوق أو الدمع وحدهما نقيضاً للصبر؛ وإنما انظر إلى ما تقوله وتفعله، وإلى استعانتك بالله واجتنابك ما نهى عنه.

قال أبناء يعقوب: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]. رأوا أن ذكره يستهلكه، فأجابهم: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ذكر يعقوب حزنه وشكواه إلى الله. فابث إلى ربك ما يشق عليك، واسأله العون، ولا تحمل نفسك على كتمان يضر بك. وأخبر الأئمين من أهلك أو أصحابك بما يستطيع أن يعينك فيه، واستشر المختص فيما يحتاج إلى اختصاص.

الصبر الجميل لا يناقض بيان الحاجة لمن يعالجها، ولا يمنع اتخاذ السبب. احفظ قلبك من السخط، ولسانك وجوارحك من الحرام، واستعن بالله ثم بمن يسر لك عونه.

ثم إن يعقوب، وهو في هذا الحزن الطويل، لم يجلس مستسلماً لليأس. قال لأبنائه:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

[يوسف: ٨٧]

مع حزنه أمر أبناءه بالبحث، ونهاهم عن اليأس. وهذه عبودية نحتاج إليها: رجاء لا يلغي العمل، وحزن لا يمنع بذل السبب.

رد الله إلى يعقوب بصره وجمعه بيوسف، كما جاء في السورة. ونرجو من فضل الله ما نحب، من غير أن نعد كل فاقد بعودة غائبه في الدنيا. نؤمن بالخبر كما وقع، ونتعلم منه الصبر والرجاء، ونكل علم العاقبة إلى الله.

وإذا فقدت إنساناً بالموت، فليس الرجاء أن يعود إلى هذه الدار. الرجاء أن يكون ما عند الله خيراً له، وأن يغفر الله له ويرحمه، وأن يجمع أهل الإيمان في دار لا موت فيها. الآخرة ليست عبارة نقولها لنختصر الحزن؛ هي حقيقة كبرى تغير معنى الفراق. لولاها لكان الغياب جداراً مصمتاً، وبها يصير باباً مؤلماً إلى موعد يرجوه المؤمن.

لا يعني ذلك أن تستعجل نفسك إلى السكينة. ربما تعرف كل هذه المعاني ويبقى الليل ثقیلاً. العلم لا يمنع الدمعة دائماً، لكنه يحرسها من السقوط في العدم. تعرف أن أمر من تحب صار إلى الله، وأن الدعاء للميت المسلم باق، وأن الله قادر أن يجمع أهل

الإيمان في جنته. وهذه معرفة لا تلغي الشوق، لكنها تمنعه من أن يكون بلا قبلة.

ومن الوفاء للغائب ألا تجعل غيابه يبتلع من بقي.

قد يكون إلى جوارك طفل يراقب حزنك ولا يعرف كيف يقترب، أو زوج فقد معك لكنه يحزن بطريقة أخرى، أو أم تخشى عليك فوق حزنها. لا يطلب منك أحد أن تعود كما كنت فوراً، لكن افتح نافذة صغيرة لمن بقي. قل لهم إنك تحبهم وإن صمتك ليس ابتعاداً عنهم. اسمح لهم أن يصنعوا لك شيئاً. واسمح لنفسك أن تضحك إذا جاء موقف يضحكك، من غير شعور أنك خنت الراحل.

الابتسام بعد الفقد ليس نسياناً. والأكل ليس قسوة. والنوم ليس خيانة. والعودة إلى العمل ليست إعلاناً أن الذي غاب كان قليل الأثر. أنت حي، وجسدك له حق، ومن بقي له حق. والدعاء والصدقة نفع مشروع للميت المسلم، ورعايتك لجسدك ولمن بقي لا تخون وفاءك له.

ومن الوفاء للميت المسلم أن تدعو له وتصدق عنه، وتصل رحمه وتحفظ ما تعلمته منه من خير. افعل ذلك رجاء ثواب الله ونفع من فقدت، ولا تحمل نفسك مآلاً أو عملاً يعجزك.

واحذر أن تجعل الذاكرة محكمة لا تتوقف: لو قلت، لو بقيت، لو انتبهت، لو تأخرت خمس دقائق. بعض الندم يقود إلى حق يجب أدائه أو خطأ ينبغي التوبة منه، وهذا نافع. لكن الدوران في احتمالات لا تملكها ينهك القلب ولا يعيد الزمن. إن كان عليك حق فاقضه. وإن أخطأت فاستغفر وأصلح ما تستطيع. ثم سلم ما لا تستطيع إلى الله. لم تكن تملك الأعمار، ولا تكتب الآجال.

وقد نثير بعض المناسبات والمواضع ذكريات قوية. لا تلم نفسك على ما يعرض، واستعن بصحبة صالحة وعمل تستطيع أدائه. وإذا اشتد الحزن وأعاق حياتك، فاطلب عوناً متخصصاً؛ فطلب العون لا ينقص الوفاء لمن فقدت.

أخبر القرآن عن يعقوب عبداً يرجو ويستعين ويأخذ بالأسباب، مع ما أصابه من الحزن. فاذا كر هذه المعاني إذا عاد شوقك، وأد ما تستطيع من حق لله وحق لمن بقي معك.

اللهم اغفر لمن فقدنا من المسلمين وارحمهم، وأعنا على الصبر والاحتساب، واحفظ لنا ديننا، ولا تحجبنا مصيبتنا عن شكر نعمك وأداء حقوق عبادك.

الفصل الثامن والعشرون

لا تدفن الباقي مع المفقود

قد يبدأ يوم المريض الطويل بالتفكير في ألمه وموعد علاجه، وتشغله أعمال كان يؤديها من غير مشقة. يحتاج إلى من يصدقه ويرفق به، وإلى ما يعينه على حفظ دينه وبدنه ومعاشه.

إذا كنت مريضاً، فنسأل الله أن يشفيك ويخفف عنك. مرضك لا يختصر حقيقتك؛ أنت عبد لله، لك عبادات وحقوق وعلاقات، وقد تبقى لك وجوه من القدرة تنتفع بها على قدر حالك. والله يعلم ما يصيبك وما تبذله من جهد، وإن خفي على الناس.

وفي دعاء أيوب عليه السلام ما يعين المريض على مناجاة ربه: بيان للضر، وثناء على الله برحمته.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٣]

جمع دعاء أيوب بيان حاجته والثناء على ربه. فإذا اشتد عليك المرض، فادع بهذا الدعاء، واسأل الشفاء والعافية. لا تحتاج إلى تكلف عبارة أو نبرة، وإنما إلى صدق الافتقار وحسن الظن بالله.

وقد استجاب الله لأيوب: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكْشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. وفي سورة ص قيل له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. جاء الكشف بأمر الله، وجاء معه فعل أمر به أيوب.

أخبرنا الله باستجابته لأيوب، ونقرأ خبره فنؤمن بقدرة الله ونتعلم الصبر والدعاء. اسأل ربك الشفاء وألح، وخذ بأسبابه، ولا تجعل ثقتك به معلقة بموعد لم يعدك به. نرجو العافية في الدنيا، ونرجو للمؤمن ثواب الصبر ورحمة الله في الآخرة.

واستشر الطبيب المؤهل، وافهم ما يلزمك من علاج، ولا تتبع وعداً مجهول المصدر. إذا لم يحقق العلاج ما رجوت، فراجع الأمر مع المختص، وواصل الدعاء والأخذ بالأسباب. المرض ونتائج العلاج لا تبيح لنا الحكم على منزلة المريض عند الله.

وقد نتغير قدرتك على العبادة والعمل، فاعمل بقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. تعلم أحكام الطهارة والصلاة والصيام بحسب حالك، وخذ بالرخصة في موضعها، ولا تزدر عملاً تؤديه بصدق على قدر استطاعتك.

وجسدك أمانة، فأعطه ما يحتاج إليه من رعاية بحسب إرشاد المختص. لا تطالب نفسك بكل ما كنت تفعله في العافية، وتعرف

إلى ما تستطيع أدائه بأمان. وقد يكون من حسن تدبيرك أن تقسم المهمة، أو تطلب مساعدة، أو ترتاح لتستعين على ما يلزمك.

وقد يؤذيك كلام الآخرين أكثر من صمتهم. يقول أحدهم: مظهرك جيد، كأنه ينفي ألماً لا يظهر. ويقص آخر قصة شخص سُفي بعلاج واحد، كأن الأجساد نسخ متطابقة. وربما يلح أحدهم أن المرض بسبب ضعف إيمان أو ذنب معين. لا تقبل هذا الحكم. قد يكون بعض البلاء بسبب تقصير معلوم يحتاج إلى توبة أو تصحيح، لكن لا يملك أحد أن يعين سبب مرضك الغيبي بلا دليل. الأنبياء مرضوا، وخيار الناس ابتلوا، والعافية والمرض كلاهما امتحان.

وإذا كنت قريباً من مريض مزمن، فلا تسأله كل مرة: ألم تتحسن بعد؟ اسأله: كيف أستطيع أن أخفف عنك اليوم؟ صدق وصفه ولو لم تر علامته. لا تقدم وصفة لم يطلبها، ولا تجعل زيارته ميداناً لعرض تجارب الناس. ساعده في موعد، أو احمل عنه مهمة، أو اجلس معه في حديث لا يكون المرض موضوعه الوحيد. المريض يحتاج من يذكره بأنه إنسان كامل، لا حالة تُناقش.

قال النبي ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها». رواه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) بنحوه.

في هذا الخبر رجاء للمريض، مع بقاء مشقة المرض. نسأل العافية ولا نتمنى البلاء، فإذا نزل بنا صبرنا وأخذنا بما يخففه، ورجونا فضل الله الذي أخبر به رسوله ﷺ.

والشكر في المرض لا يعني أن تحب المرض لذاته. قد تحمد الله على طبيب رحيم، وعلى دواء متاح، وعلى عين تقرأ، وعلى شخص بقي معك، وعلى ساعة خف فيها الألم، وعلى إيمان لم يسلبه المرض. وقد تمر أيام لا ترى فيها إلا الوجع؛ لا تجبر نفسك على قائمة. يكفي أن تقول: يا رب، أنت أرحم الراحمين.

قد تجد نعمة قريبة تعينك في يومك: شخصاً يرافقك، أو دواء تيسر، أو وقتاً خف فيه الألم، أو فهماً لرخصة كنت تجهلها. اشكر الله عليها، من غير أن تتكلف إنكار ما بقي من التعب.

اللهم اشف مرضانا، وخفف آلامهم، وارزقهم العافية والأجر، وأعن من يقوم بخدمتهم. اللهم احفظ قلوبنا من اليأس، ووفقنا للسبب النافع، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك في العافية والمرض.

الفصل التاسع والعشرون

ثقب أنقذ السفينة

قد ترى أمراً يضرك، ثم يتبين لك بعد حين وجه خير لم تعرفه يوم وقع. وقد يستمر خفاء الحكمة، فلا تجد جواباً مفصلاً. في الحالين تحتاج إلى الصدق: تعرف حدود علمك، وتؤمن بحكمة الله، وتعمل بما أمرك به.

حين تخاف على من تحب

في قصة أم موسى عليها السلام خوف علي ولد، ووجي من الله وأمر ووعد. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلَيْهِ فِي يَمِينٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

هذا أمر خاص أوحاه الله إليها، فلا يُتخذ حجة لمخاطرة بطفل اعتماداً على خاطر أو توقع. نتعلم من الخبر قدرة الله وصدق وعده، ونلتزم نحن الأسباب المشروعة التي تحفظ من استرعانا الله عليهم.

وقال سبحانه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]. ثم

أمرت أخته أن تتبعه، فبصرت به عن بُعد وهم لا يشعرون.
فاجتمع إيمانها بالوعد مع بذل السبب الذي تستطيع.

حُرِّمَتْ عَلَى مُوسَى الْمَرَاضِعُ، وَدَلَّتْ أُخْتُهُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ.
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]. هذه
غاية أخبر بها النص، فثبتهَا، وَلَا نَزِيدُ عَلَيْهَا وَعْدًا لِكُلِّ أُمٍّ أَنْ يَعُودَ
وَلَدُهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا عَادَ مُوسَى.

وَإِذَا خَفَتْ عَلَى مَنْ تَحِبُّ، فَاسْأَلِ اللَّهَ حِفْظَهُ، وَأَحْسِنْ رِعَايَتَهُ،
وَتَعْرِفِ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ. أَفْعَلْ مَا تَسْتَطِيعُ، وَلَا تَحْمِلْ نَفْسَكَ
ضِمَانًا مَا لَا تَمْلِكُهُ مِنْ نَتِيجَةِ عِلَاجٍ أَوْ قَرَارِ شَخْصٍ آخَرَ. وَوُجُودُهُ
بَيْنَ يَدَيْكَ الْيَوْمَ نِعْمَةٌ: أَحْسِنْ صَحْبَتَهُ، وَقُلْ لَهُ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ، وَلَا
تَجْعَلْ تَوَقُّعَ الْغِيَابِ يَحْجِبُكَ عَنْ حَقِّ الْحُضُورِ.

حِينَ تَخْفَى الْحِكْمَةُ

وَأَمَّا قِصَّةُ السَّفِينَةِ، فَتَعْلَمُنَا أَنَّ ظَاهِرًا نَرَاهُ قَدْ يَغِيبُ عَنَّا بَعْضُ مَا
يَتَعَلَّقُ بِهِ. صَاحِبُ مُوسَى فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ هُوَ الْخَضِرُ، كَمَا ثَبَتَ فِي
السَّنَةِ، وَقَدْ عَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْمًا لَمْ يَكُنْ مُوسَى يَعْلَمُهُ.

خَرَجَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ، حَتَّى بَلَغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، ثُمَّ
عَادَ فِي أَثَرِهِ فَوَجَدَ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً

مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلَمًا ﴿[الكهف: ٦٥]﴾. طلب موسى أَنْ يَتَّبِعَهُ لِيَتَعَلَّمَ مِمَّا عِلَّمُ رَشْدًا، فَقَالَ لَهُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ مِنْذُ الْبَدَايَةِ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ۖ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿[الكهف: ٦٧-٦٨]﴾.

كان الخضر يعلم بأمر الله ما لم يُطلع عليه موسى في هذه الوقائع. وبهذا نفهم إنكار موسى لما رأى، ثم البيان الذي جاء عند الفراق.

ركبا في السفينة، فخرقها العبد الصالح. لم يكن اعتراض موسى عبثًا؛ الذي رآه في الظاهر إفسادًا لمركب يحمل الناس فوق الماء، فقال: ﴿أُخْرِقَهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ﴿[الكهف: ٧١]﴾. لم يكن موسى قد علم بعد ما وراء الثقب.

ثم لقيًا غلامًا فقتله العبد الصالح، فاشتد إنكار موسى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ﴿[الكهف: ٧٤]﴾. ثم أتيا أهل قرية، فطلبا منهم الطعام فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه العبد الصالح بلا أجر. قال موسى: ﴿لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿[الكهف: ٧٧]﴾.

عند الفراق بين الخضر ما علمه الله: كانت السفينة لمساكين يعملون في البحر، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا، فأراد أن يعيها. وكان أبوا الغلام مؤمنين، وجاء في بيان أمره: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ۖ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ

زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿[الكهف: ٨٠-٨١]﴾. وأما الجدار فكان لغلامين
يتيمين، وتحتة كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد الله أن يبلغا
أشدهما ويستخرجا كنزهما.

وختم الخضر بيانه بقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾
[الكهف: ٨٢]. فهذه وقائع أطلعها الله على أمرها، وليست اجتهداً
يحق لغيره أن يقلده فيه.

قد نتذكر أمراً فاتك ثم ظهر لك خير بعد فواته، فتحمد الله على
الخير الذي عرفته. وقد لا يظهر لك شيء من ذلك، فتبقى مؤمناً
بأن الله حكيم عدل، وأن علمك محدود.

لا تملأ المجهول بقصة من عندك. لا تقل للمريض إن مرضه وقع
حتماً من أجل منفعة تحددها، ولا للمفجوع إن عوضاً بعينه
ينتظره في موعد قريب. سل له العافية والأجر، وأعنه، وقل في علم
الله وحكمته ما دل عليه الدليل.

وهنا يلزم حد واضح حتى لا تتحول القصة العظيمة إلى أداة تؤذي
الناس. العبد الصالح لم يخرق السفينة بهوى، ولم يقتل الغلام
باجتهاد بشري يزعم أنه يرى المستقبل. قال صريحاً: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]. كان ذلك وحياً خاصاً، وليس لأحد
بعده أن يعتدي على مال أو نفس ثم يقول: وراء فعلي حكمة لا
تدركونها.

لا يحق لظالم أن يستشهد بالخضر كي يطلب منك السكوت. ولا لمعتد أن يسمي جرحه لك تربية. ولا لمربّ أو زوج أو مسؤول أن يخرق حدود الله ثم يحتج بأنك ستري الخير لاحقاً. نحن محكومون بالشرع والعدل والظاهر الذي كلفنا الله به، ولسنا مأمورين باتباع دعاوى الغيب.

إذا خُرت سفينتك بيد إنسان، فمن حقك أن تسأله، وأن تمنع الضرر، وأن تطلب الإصلاح والتعويض، وأن تلجأ إلى من يرد الحق. حسن الظن بالله لا يساوي حسن الظن بكل من آذاك. والرضا بقدر الله لا يعني الرضا بالظلم من جهة الشرع. قد تؤمن أن الحادثة لم تخرج عن تقدير الله، وفي الوقت نفسه تقول للظالم: هذا حرام، وتتخذ السبب المشروع لإيقافه.

كما لا ينبغي أن تستخدم القصة لإسكات السؤال العلي. إذا أخطأ طبيب فابحث عن حقيقة الخطأ. إذا انهار مشروع فراجع القرار. إذا تعثر ولدك فاسأل عما يحتاجه. قولك إن الله حكمة لا يعفيك من التعلم، بل يحركك من وهم أنك إذا لم تعرف كل شيء فلا تستطيع أن تفعل شيئاً.

يمكنك أن تبحث عن السبب القريب لما وقع: خلل تصلحه، أو حق تطلبه، أو قرار تراجع. أما الحكمة الغيبية التفصيلية، فلا تعرف

بغير دليل. فلا تجعل إيمانك بحكمة الله مانعاً من التعلم، ولا تجعل عدم معرفتك بكل الحكمة سبباً لسوء الظن به.

إذا اختلط الأمر، فميز ما تعلمه مما تتوقعه. ما الواقعة الثابتة؟ وما واجبك الآن؟ ومن تسأله فيما تجهله؟ ثم أبق ما لم تعلمه في موضعه، من غير جزم ولا حكاية تسندها إلى الله.

وفي أثناء الإصلاح، انظر إلى نعم حقيقية بقيت لك: علم تنتفع به، أو من يعينك، أو قدرة على طلب حقك، أو عمل صالح تستطيعه. قد تبقى المصيبة مؤلمة، وتبقى معها هذه النعم مستحقة للشكر.

ومن خبر الجدار نتعلم أيضاً رعاية حق الضعيف؛ فابذل ما تستطيع لحفظ مال يتيم أو إعانة محتاج، ولو لم تر الثمرة كاملة. أدِّ الأمانة التي بين يديك، وارح ثواب الله.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وأعنا على إصلاح ما نستطيع، وارزقنا التسليم لك فيما خفي علينا. احفظنا من سوء الظن بك، ومن قبول ظلم الناس باسم الصبر، واهدنا إلى قول الحق والعمل به.

سنوات خلف الباب

في أول الانتظار ترى ما ترجوه واضحاً: ولداً، أو عملاً، أو شفاء، أو صلاح حال من تحب. ثم تمر الأيام، وقد يتعب القلب من السؤال المتكرر. وربما جاءتك نعمة أخرى فلم تنتبه إليها لانشغالك بالأمنية التي لم تتحقق.

لا تستح من حاجتك، ولا تجعل شدة الحاجة سبباً لتحديد موعد تلزم به نفسك. الله يعلم حالك ويسمع دعائك، وأنت تسأله ما تحب وترجو الخير الذي يعلمه لك.

دعا زكريا عليه السلام وقد وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً، وقال: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]. وفي دعائه: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۚ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦]. لم تمنعه حاله من السؤال، وسأل مع العطاء صلاح من يعطاه.

فاسأل أنت الخير وصلاح العطية: رزقاً حلالاً يعينك على الطاعة، وذرية صالحة، وعافية تنتفع بها في الخير. قد نحب شيئاً ولا نعلم جميع عواقبه، ولذلك نحتاج إلى هداية الله وحسن اختياره لنا.

ولا تجعل الدعاء تجربة لأعداد أو مدد لم يشرعها الله. اتبع الأذكار المقيدة كما ثبتت، وادع في حاجتك المباحة من غير أن تعد نفسك بنتيجة مضمونة بعد عدد من الكلمات. العبادة حق لله، وهو سبحانه الحكيم في قضائه، ونحن عباده نسأله ونرجوه.

قال النبي ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي». رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥). وفي رواية مسلم بيان الاستحسار وترك الدعاء. فإذا وجدت تعباً، فاستعن بالله ولا تستسلم لليأس، وواصل دعائك وأداء فرائضك.

واجعل في دعائك ما هو أوسع من حاجتك الواحدة: المغفرة، والهدى، والعافية، وصلاح القلب والأهل، وحسن الخاتمة. لا تنس هذه المطالب وأنت تنتظر رزقاً أو شفاء، فحاجتك إليها باقية مع كل عطاء.

وفي مدة الانتظار تبقى حقوق وأعمال ممكنة. احفظ المودة في بيتك، واستعن بما تستطيع من تعلم أو عمل أو صحة، ولا تؤجل كل خير إلى يوم تحقق الأمنية. قد تعمل وقلبك يشاق إلى ما فقد، فيجتمع رجائك وأداؤك لما عليك.

قد يحتاج المنتظر إلى مراجعة أسبابه. الدعاء لا يمنع فحصاً طيباً، ولا استشارة مالية، ولا تغيير خطة بحث عن عمل، ولا تدخلاً أسرياً ناضجاً. وربما يكون تكرار الطريقة نفسها هو الذي أنهكك،

بينما توجد وسائل أخرى مشروعة. اسأل أهل الخبرة. ضع موعداً للمراجعة. ميز بين الصبر على الهدف والإصرار على وسيلة ثبت ضررها.

وفي المقابل، لا تسمح للناس أن يحولوك إلى مشروع نصائح. الذي تأخر عنه الولد يسمع وصفات لا تنتهي، والذي لم يتزوج يسأل في كل لقاء، والمريض يرسل إليه كل علاج منتشر. من حَقك أن تضع حدوداً. قل: أشكرك، أتابع مع مختص، ولا أريد الحديث في هذا الآن. حفظ قلبك من الاستنزاف جزء من حسن إدارة الابتلاء.

وقد يكون المطلوب متعلقاً بقلب إنسان آخر: هداية ابن، أو رجوع زوج، أو محبة شخص، أو موافقة جهة. هنا يظهر حد القدرة بوضوح. تستطيع أن تنصح وتعتذر وتصلح وتعرض، لكنك لا تملك قلباً. ادع، واعمل بعدل، ولا تتجاوز حدود الله بحجة أنك تريد نتيجة طيبة. لا تجسس، ولا تذلل نفسك لمن يؤذيك، ولا تترك واجباً، ولا تستعمل الحرام لتصل إلى مطلوب دعوت الله به.

الغاية الصالحة لا تجعل الطريق الفاسد صالحاً.

وأحياناً يتعب الإنسان من رؤية إجابات غيره. تلد صديقة، ويتوظف زميل، ويشفى مريض، وتبقى أنت تنتظر. لا تكره نعمة

الله عليهم. وإن وجدت في قلبك ألماً، فلا تفزع من نفسك؛ ادع لهم بالبركة، ثم عد بحزنك إلى الله. يمكنك أن تكون سعيداً لهم وموجوداً لنفسك. قاوم الحسد، ولا تطلب من قلبك ألا يشعر بخوزة المقارنة. أغلق ما يزيدك تعباً بعض الوقت، لا عقوبة لهم، بل رعاية لقلبك حتى يقوى.

وليس حصول مطلوب دنيوي سريعاً حكماً على منزلة صاحبه عند الله، كما أن تأخره لا يكشف لنا سر القدر. تب من ذنب تعرفه، وأصلح سبباً تبين لك خلله، من غير أن تجزم بأن هذا التأخر عقوبة لذلك الذنب.

إذا أعطاك الله ما سألت، فاحمده واشكره بالعمل، وتذكر احتياجك إليه قبل العطاء وبعده. وإن طال الانتظار، فلا تجعل أيام العبادة كأنها لم تكن؛ صلاتك ودعاؤك وصبرك وتركك للحرام أعمال ترجو ثوابها عند الله.

اللهم هذه حاجتنا وأنت أعلم بها، وهذه قلوبنا وأنت أعلم بضعفها. ارزقنا من فضلك ما يكون خيراً لنا، وأعنا على الدعاء والعمل، ولا تجعل طول الانتظار يوقعنا في السخط أو ينسينا شكر ما أعطيت.

الفصل الحادي والثلاثون

حين تغلق الجهات

قد تنظر في شأن يؤمك فلا تجد خياراً سهلاً: دين تضيق عن قضائه، أو مرض يشق علاجه، أو خلاف لم تفلح في إصلاحه. تحتاج حينها إلى من يسمعك ويفهم الواقع، وإلى رجاء لا ينقطع لمجرد أنك لم تعرف الخطوة التالية.

أوحى الله إلى موسى أن يسري ببني إسرائيل، فاتبعهم فرعون وجنده. قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿[الشعراء: ٦١-٦٢].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ونجى الله موسى ومن معه، وأغرق الآخرين.

هذه آية لنبي كريم، فيها قدرة الله وصدق نصره، وفيها طاعة موسى لما أمر به. تؤمن بها كما وقعت، ولا نتخذها وعداً بخارق يقع لنا كلما اشتدت حاجة، ولا حجة لدخول خطر أو ترك سبب مشروع.

إذا لم تعرف المخرج، فاعترف بحد علمك واسأل الله الهداية، ثم استعن بمن يعرف الباب الذي أشكل عليك. قد يتبين سبب لم تعرفه، أو تتهياً مساعدة، أو تحتاج إلى تغيير خطة. نرجو فضل الله، من غير أن نعين صورة لا نعلمها.

راجع الوقائع بهدوء ما استطعت. ما الذي حدث فعلاً؟ وما الذي تخشاه فقط؟ وما الواجب القريب؟ ومن أهل الاختصاص الذين يمكن أن تستشيرهم؟ ثم ابدأ بما ظهر لك نفعه ومشروعيته، ولو كان اتصالاً أو موعداً أو اعتذاراً أو طلب مساعدة.

والتوكل اعتماد على الله مع فعل السبب المشروع. لا تجعل رجاءك متعلقاً بشخص واحد، ولا تؤجل واجباً واضحاً باسم انتظار الفرج. خذ بما تستطيع، واجتنب الحرام، واسأل ربك العون وحسن العاقبة.

وقد يقع أنك فعلت كل ما تعرفه ولم يفتح الطريق بعد. هنا يصير الانتظار نفسه عملاً صعباً. لا تخترع سبباً مؤذياً لمجرد أنك لا تحتمل الوقوف. بعض الناس ينتقل من علاج موثوق إلى مدع يستنزفه، أو من طلب رزق حلال إلى باب مشتبه، أو من علاقة متعبة إلى قرار أشد خطراً؛ لا لأنه اقتنع، بل لأنه يريد أي حركة تشعره أنه لا يقف.

أحياناً تكون العبادة ألا تتحرك حركة خاطئة.

أن تبقى على الحد المشروع، وتواصل السؤال، وتحفظ الحد الأدنى من حياتك، وتقول: يا رب، اهديني. هذا ليس عجزاً مذموماً إذا لم يكن في يدك سبب آخر. والمذموم أن تترك واجباً أو سبباً لازماً ظاهر النفع وأنت قادر عليه؛ أما المباحات والمصالح المتزاحمة فتقدر بحسب الوسع والمشورة، والاعتراف بانتهاء قدرتك بعد بذلها افتقار.

وقد لا يتحقق ما تريده بالطريقة التي رسمتها. راجع أسبابك مع أهل الخبرة، واستمر فيما ينفع، واترك ما ثبت ضرره. لا نعرف لك النتيجة، لكننا نعرف حاجتك إلى هداية الله في القرار الذي تتخذه.

وفي قول موسى: ﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢] معية خاصة بالنصر والتأييد. نؤمن بمعية الله كما جاءت، على ما يليق بجلاله، مع إثبات علوه على خلقه واستوائه على عرشه. ونسأله أن ينصرنا ويهدينا، من غير ادعاء وعد خاص بنتيجة لم يخبرنا بها.

إذا كنت مع أسرة أو جماعة في أزمة، فتحدث بما تعلم، ولا تقدم الظنون كأنها حقائق. تعاونوا على ما يلزمكم، واقل أن يحمل غيرك بعض العمل إذا عجزت. نعمة الصحبة تظهر حين يعين القوي المتعب، ثم يتبادلون العون إذا تغيرت الأحوال.

ومن دعاء الكرب دعاء يونس عليه السلام، كما أخبر الله عنه:

قال الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]. ومعنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] هنا: لن نضيق عليه أو نقضي عليه بالعقوبة، لا نفي قدرة الله؛ فني الله لا يشك في قدرة ربه.

جمع هذا الدعاء التوحيد والتنزيه والاعتراف بالذنب: لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين. فالله وحده المستحق للعبادة، وهو المنزه عن الظلم والنقص، والعبد محتاج إلى مغفرته ورحمته. لا تجعل خطأك حجة لترك الدعاء؛ تب إلى الله وأصلح ما تستطيع.

أحياناً تغلق الجهات بسبب أمر لم تختره: مرض، أو فقد، أو ظلم وقع عليك. فلا تفتش قسراً عن ذنب خاص وتتهم نفسك بلا بينة. وأحياناً يكون في الأزمة أثر قرار خاطئ تعرفه، أو حق قصرت فيه، أو كلمة ينبغي أن تعتذر عنها. هنا لا يفيد أن تسمي كل شيء قدراً وتسكت. اعترف بما تعرف، ورد الحق، وتب، ثم لا تجعل الشيطان يحول التوبة إلى يأس دائم.

قال سبحانه: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. تؤمن بهذا الوعد ونرجو فضل الله، وندعوه بما علمنا، ولا نضع من عندنا موعداً أو كيفية معينة للفرج.

إن كان عليك خطأ فتداركه، وإن كان لك سبب مشروع نخذه، واجمع الدعاء والعمل. وقد يكون مما يلزمك أن تكف عن خطوة محرمة يعرضها عليك الاستعجال، وأن تصبر حتى يتبين سبيل صحيح.

إذا تيسر لك أمر عسير، فاحمد الله واذكر من أعانك، واستعمل العطاء في طاعته. وإن بقي بعض الضيق، فلا تقطع الرجاء، ولا تترك ما تعرفه من واجب. الآخرة حق، وعند الله الجزاء التام والعدل الذي لا يظلم معه أحد.

اللهم اهدنا في حيرتنا، وأعنا في عجزنا، وارزقنا السبب النافع والرزق الحلال، واحفظنا من طريق يغضبك. نسألك الفرج والعافية، ونسألك أن تثبت قلوبنا على دينك في كل حال.

الفصل الثاني والثلاثون

شوكة لا تضيع

قد يعرف الناس المصيبة الكبيرة، وتخفى عليهم آلام صغيرة تتكرر في يومك: تعب لا يراه أحد، أو هم يشغلك، أو أذى بقي أثره بعد أن نسيه صاحبه. لا يخفى شيء من ذلك على الله.

قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها». رواه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) بخوه.

حتى الشوكة ذكرها الحديث. نرجو هذا الفضل، ونسأل العافية وتداوى وندفع الظلم. لا يطلب منا الخبر أن نبث عن الألم أو نبقيه مع القدرة على دفعه؛ بل يطمئن المؤمن إلى فضل ربه فيما يصيبه.

وقد يتعب الإنسان من مقارنة ألمه بآلام غيره، فيزدري نفسه لأنه حزن على ما يراه الناس يسيراً. اشكر الله على ما عفاك منه، واطلب العون فيما نزل بك. تفاوت المصائب لا يبيح لنا القسوة على أحد.

ذكر الحديث المهم والحزن والغم مع المرض والأذى. فإذا كنت تحملهما لا يظهر للناس، فابته إلى ربك، واستعن بأمين يسمعك، وبمختص حين تحتاج. تستطيع أن تأخذ بالأسباب وتدعو الله في الوقت نفسه.

ومع ذلك، لا تجعل التكفير معادلة تحاول أن تحسبها: هذه الليلة محت كم خطيئة؟ وهذا المرض رفع كم درجة؟ الغيب ليس جدولاً بين أيدينا. النص يكفي ليطمئنك أن الألم لا يذهب هدرًا، لا يعطيك أرقامًا تتعامل بها مع الله.

كذلك لا يحق لنا أن نجزم لشخص بعينه أن مرضه عقوبة أو علامة محبة خاصة. قد يكون البلاء تكفيراً ورفعاً وامتحاناً، وقد تقع المصائب بأسباب بشرية أو سنن كونية، وقد يجتمع أكثر من معنى، ولا نحيط بمراد الله الخاص بكل إنسان. نقول ما قاله الوحي على العموم، ونسكت حيث سكت.

يعلم الله ما تصبر عليه وما تبذله من خير. فارج فضله، ولا تصنع مشقة زائدة لمجرد أن تثبت لنفسك أنك أقوى أو أوفى. أعط جسدك حقه، واقبل مساعدة غيرك، ووزع الأعباء إذا احتجت. لا يناقض ذلك الصبر ولا الإحسان إلى من ترعاهم.

ومن الدعاء الذي علمنا رسول الله ﷺ عند المصيبة ما روته أم سلمة رضي الله عنها: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في

مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها». وسمعتة يقول إن المسلم الذي يقول ذلك يخلف الله له خيراً منها. فلما مات أبو سلمة قالت ما أمرها به رسول الله ﷺ، فأخلف الله لها رسول الله ﷺ زوجاً. رواه مسلم (٩١٨).

سألت الأجر والخلف الحسن، وقد كانت تعرف فضل زوجها وتقول: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ نتعلم من خبرها أن ندعو ونرجو، وإن لم نر كيف يأتي الخير.

يثبت الحديث وعد الخلف، ولا يعين لكل مصاب جنسه ولا مواعده. فلا نعد كل أرملة بزواج، ولا كل مريض بعافية كاملة في مدة نحددها. نسأل الله ما وعد، ونحسن الظن به، ونعلم أنه أعلم بما يكون خيراً لعبده.

والخير الذي يأتي بعد الفقد لا يحو الوفاء للمفقود. ادع لمن مات من المسلمين، واحفظ حق من بقي، وانتفع بما يسره الله لك من رزق وعافية وصحة.

إذا جاءك خير بعد المصيبة، فاقبله واشكر الله عليه، ولا تجعل الفرح المباح ذنباً تعاقب به نفسك. وقد يكون الخير عوناً صغيراً في يوم صعب؛ أعرف قدره، وأحسن إلى من أحسن إليك، واسأل الله تمام نعمته.

قال النبي ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». رواه مسلم (٢٩٩٩).

بقيت الضراء ضراء، وكان الخير للمؤمن في صبره، كما يكون الخير في شكره عند السراء. تستطيع أن تتألم وتساءل زوال الألم، وأن ترجو التكفير والأجر، وأن تحمد الله على ما بقي من نعمه. لا يتنافى هذا كله.

وإذا صحبت متألماً، فلا تقلل من ألمه. اسأله ما ينفعه، واعمل بما تستطيع، ثم ذكره بالفضل في الوقت الذي يحتمل فيه التذكير. قد يكون أحوج إلى ماء أو راحة أو إنصات من حديث طويل.

اللهم أجرننا في مصائبنا، واخلف لنا خيراً منها. اغفر لنا تقصيرنا، وأعنا على الصبر، وارزقنا العافية والشكر، واجعلنا رحماء بعبادك، نواسيهم بقول صادق وعمل نافع.

الفصل الثالث والثلاثون

ورحمة للمكسورين

قد يبقى الوجع بعد أن تسمع المواساة وتقرأ الآيات. لا يزال المرض، أو يظل الغائب بعيداً، أو يتأخر رد حقك. وفي هذه الحال تحتاج إلى رجاء ثابت، وإلى عون صادق، وإلى من يحترم ما تمر به.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ذكرت الآيات المصيبة، ثم بشرت الصابرين. فليس وقوع البلاء دليلاً على غياب الرحمة؛ فقد اجتمعا في هذا الخبر الصادق. والصابر يحفظ نفسه عن التسخط، ويقر بأنه لله وإليه راجع، ويرجو صلوات من ربه ورحمة وهداية.

نؤمن بهذه البشارة، ولا نضيقها في صورة واحدة من صور العطاء الدنيوي. قد ترجو الشفاء ورد الغائب وإصلاح الحال، فاسأل

ذلك بصدق، وأبق رجاءك في الله أوسع من معرفتك بما يأتي غداً. عنده علم العاقبة، وعنده الجزاء التام.

الاسترجاع الذي يصحبك

حين تقول: إنا لله، نتذكر أنك ومن تحب ملك لله، وأن ما صحبتك من النعم فضل منه. وحين تقول: وإنا إليه راجعون، نتذكر البعث والحساب والدار الآخرة. لا تسقط الحقوق التي عجز الناس عن إنصاف أصحابها، ولا يخفى على الله عمل صالح، ولا يظلم ربك أحداً.

قد تحتاج إلى تجديد هذه المعرفة كلما عاد الحزن. تقول الاسترجاع، وتدعو بالأجر والخلف الحسن، وتقوم بما تستطيع. وقد تنطق بالكلمة وقلبك مثقل، فلا تترك الذكر لأنك لم تجد أثره كاملاً في لحظته. اجتهد في فهمه والعمل به، واسأل الله أن يطمئن قلبك.

والصبر يحتاج إلى عون في الأيام التي تلي الخبر أيضاً: حين يعود البيت إلى هدوئه، أو يبدأ علاج جديد، أو يطول السعي في رد الحق. لا تحمل كل ذلك وحدك إن وجدت من يعينك. قد يكون قبول المساعدة مما يقويك على أداء واجبك.

رحمة نعمل بها

إذا جلست إلى جوار مبتلى، فلا تبدأ بتفسير قدره. اسمعه، وادع له، واسأله عما ينفعه، واحفظ سره. قد تستطيع قضاء حاجة أو مرافقة أو توفير وقت يرتاح فيه. العمل الصغير الصادق خير من وعد كبير لا تنفي به.

ولا تجعل المواساة أمرًا له بالصمت عن ظلم، أو بالبقاء في أذى يستطيع دفعه. من الرحمة أن يعان على طلب حقه بالعدل، وعلى حماية من تحت مسؤوليته. العفو فضيلة في موضعه، ولا يصح أن يستعمله أحد لإدامة اعتداء أو إخفاء حق.

وإذا كان الألم من ذنب فعله صاحبه، فأعنه على توبة صحيحة: إقلاع وندم وعزم وإصلاح للحقوق. لا تبرر الذنب لتريجه، ولا تبتئسه من رحمة الله. يحتاج إلى من يبين له الطريق ويعينه على السير فيه.

وإن كنت أنت المحتاج إلى العون، فلا تجعل حاجتك نقصًا في قدرك. اشكر من أحسن إليك، وبيّن ما تستطيع وما يشق عليك، واحتفظ بحقك في الخصوصية والراحة. اليوم يعينك أحد، وقد تستطيع أنت غدًا أن تعين غيرك.

أن ترى النعمة برفق

لا أحد يعرف من بعيد كل ما أصابك أو كل ما بقي لك. انظر بنفسك، حين تقدر، إلى نعمة حقيقية تستعين بها: علم نافع، أو صاحب صادق، أو رخصة في العبادة، أو قوة على بعض العمل. لا تطلب منها أن تحو ألم المفقود؛ أعطها حقها من الشكر والانتفاع.

من بقي من أهلك له حق، وإن اشتقت إلى من مات. وما بقي من القدرة يستحق الحفظ، وإن حزنت على قدرة فقدتها. وصاحبك الذي وفي لك يستحق الإحسان، وإن جرحك آخر. حين تنظر إلى كل ذلك بعدل، تتسع رؤيتك للحياة، ويبقى لحزنك موضعه دون أن يأخذ حقوق ما سواه.

والحمد عبادة تؤديها في السعة والشدة. تحمد الله لكمالهِ ونعمه، وتسأله ما ينقصك، وتعترف بضعفك وتقصيرك، وترجو رحمته. فلا تتكلف كلاماً لا تصدقه، وابدأ بقول تعرف معناه: الحمد لله رب العالمين، اللهم أعني ولا تكلفني إلى نفسي.

ويبقى رجاء الآخرة

هذه الدنيا تتغير، ونعيم الجنة باق. تؤمن بما أخبر الله به، ونسأله الجنة وما قرب إليها من قول وعمل. لا يمنعنا هذا الرجاء من

علاج المرض أو طلب الحق أو عمارة الحياة بالخير؛ بل يعيننا على العمل حين لا نرى الجزاء كاملاً هنا.

اللهم ارحم المبطلين، واشف المرضي، واجبر مصاب المفجوعين، واقض الدين عن المدينين، وانصر المظلومين. اللهم ارزقنا صبراً يحفظ ديننا، وشكراً تؤدي به حق نعمك، ورجاء يعيننا على طاعتك. اغفر لموتانا المسلمين، وارحمهم، واجمعنا بهم في جنات النعيم بفضلك ورحمتك.

الباب السادس حين يصير الحمد عملاً

نعرف النعمة فنحمد الله عليها، ثم يبقى أن نشكره بالعمل. للمال حق، وللعلم أمانة، وللقوة استعمال نافع، وللناس الذين أحسنوا إلينا شكر ووفاء.

وقد نغفل مع الاعتياد، فنحتاج إلى تذكير يعيدنا إلى واجب قريب. نسأل الله أن يعيننا على شكره بالقلب واللسان والجوارح، وأن يجعل ما رزقنا عوناً على طاعته ونفع عباده.

الفصل الرابع والثلاثون

أن تعرفها بقلبك

من حقك أن تعرف جهدك وتفرح بنتيجة عملك. وقد درست وسعيت وصبرت، لكنك محتاج إلى تذكر ما سبق هذا الجهد وصحبه من فضل الله: عقل نتعلم به، وصحة تعمل بها، ومن علمك وأعانك، وفرصة تهيأت لك.

ويبين ابن القيم أن شكر النعمة يظهر في الشناء والاعتراف بها، وفي محبة القلب، وفي طاعة الجوارح وانقيادها؛ مدارج السالكين، دار الكتاب العربي (٢/٢٣٤). فكلمة الحمد بداية طيبة، ويصدقها ما تصنعه بما أعطاك الله: علم تنفع به، وقوة تعين بها، ورزق تؤدي حقه.

ردّ الفضل إلى الله لا يلغي فعلك واختيارك؛ أنت تعمل وتُسأل عن عملك، والله خلقك ووهبك القدرة ويسر لك الأسباب. فإذا نجحت، فاحمده على التوفيق، واشكر من أعانك، واستعمل النتيجة في الخير.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. هذه معرفة يحتاج إليها القلب في ساعة النجاح، حين يسهل أن ينشغل بذكائه وقدرته وينسى افتقاره. فليكن اعترافك بالنعمة حاضراً في

قولك وعملك، ولينعك من احتقار من لم يتيسر له مثل ما تيسر لك.

لست مذنباً لأنك تحب العافية، ولا لأنك تتألم إذا فقدت شيئاً منها. ومن حَقك على الناس حقوق قررهما الشرع والعدل: لك ألا تُظلم، ولك أجرُك إذا عملت، ولك أن تطالب بحَقك. لكن الفرق كبير بين حق لك عند الخلق، وبين إحساس باطن أن لك على الله عطاءً رسمت مقداره وموعده وصورته، ثم إذا لم يأت قلت في نفسك: لم لم أحصل على ما أستحق؟

أصل وجودك ليس أجراً على عمل سبق منك. والنفس الذي أخذته قبل أن تقرأ هذه الجملة لم تشتريه بطاعة. وحتى طاعتك، حين أطعت، احتاجت إلى قلب حي وعقل يدرك ووقت يتسع وهداية تدل وإرادة يقويها الله. لذلك كلما اتسعت معرفة العبد بنعم الله قلَّ فيه التبجح، لا لأنه يكره نفسه، بل لأنه عرف مقدار ما حمل.

قارون والاعترار بالمال

خرج قارون على قومه في زينته. كان المشهد لأمعاً حتى إن الذين يريدون الحياة الدنيا تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي. وقبل ذلك، حين ذُكرَ بالألا ينبغي، وأن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة، وأن

يحسن كما أحسن الله إليه، أجب: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾
[القصص: ٧٨]•

اغتر قارون بما عنده، وجاء خبره في القرآن تحذيراً من البغي والكفر بالنعمة. لا نسائي كل تقصير بقصته في الحكم، لكننا نتعظ ونحذر العجب واحتقار الناس. أعرف ما تحسن، وافرح بتوفيق الله، ولا تجعل موهبتك أو مالك سبباً للتعالي.

ثم خسف الله بقارون وبداره الأرض. والذين تمنوا مكانه بالأمس استيقظوا على معنى لم يروه تحت لمعان الزينة: ﴿وَيَكَاَنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]. تغيرت أعينهم قبل أن تتغير أموالهم. وهذه واحدة من أعظم صور النجاة: أن ينقذك الله من ميزان كاذب قبل أن تبني عمرك عليه.

سليمان وشكر الفضل

ولما رأى سليمان عليه السلام عرش ملكة سبأ مستقراً عنده قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]•

نسب الفضل إلى ربه، وذكر الابتلاء بالشكر. نتعلم من قوله أن العطاء يحتاج إلى عمل، وأن نفع الشكر يعود إلى العبد، والله غني كريم.

هذه الجملة تصلح أن تقف بها أمام كل خبر جميل. حين تنجح صفقة، أو يأتي قبول، أو يمدح الناس عملك، أو تسترد عافيتك، قل في سرّك قبل أن تتسابق كلمات الإعجاب إلى قلبك: هذا من فضل ربي. لا تقلها لتلغي تعبك؛ قلها كيلا يسرق التعب منك رؤية الفضل. ثم أكل: ليلوني. فما حق هذه النعمة الآن؟

إن كان الذي جاء مألأ، فله أبواب حلال وحقوق. وإن كان علماً، فحقه الصدق والنفع والتواضع. وإن كان قبولاً في قلوب الناس، فحقه ألا تستعمله لتزييف الباطل. وإن كانت صحة، فحقها أن تصونها وأن تعين بها. وإن كان منصباً، فحقه أن يصير الضعيف بقربك أكثر أمناً، لا أكثر خوفاً.

صاحب الجنتين: حين صار العطاء مرآة للنفس

يضرب القرآن مشهداً آخر لرجلين، جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب، وحفهما بنخل، وجعل بينهما زرعاً، وفجر خلاهما نهراً. صورة مكتملة للعطاء: ثمر، وماء، وأرض، واستمرار في الإنتاج. ثم دخل الرجل جنته وهو ظالم لنفسه، وقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥].

لم يعد يرى الجنة هبة قابلة لأن تُصان بالشكر؛ صارت في شعوره امتداداً مضموناً لذاته. حتى حين تخيل القيامة ظن أن له عند الله

خيراً منها منقلباً. اجتمع في القلب إعجاب بالحاضر، وأمان من
تغيره، ودعوى استحقاق للمستقبل.

قال له صاحبه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا
قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. لم يطلب منه أن يخرج من جنته، ولا
أن يذم ثمرها، ولا أن يتصنع الفقر. أرشده إلى كلمة تعيد ترتيب
المشهد: ما شاء الله؛ وجودها وبقاؤها تحت مشيئته. لا قوة إلا
بالله؛ قدرتك على عمارتها وحفظها والانتفاع بها ليست مستقلة.

ثم أحيط بثمره، وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها. القصة
ليست دعوة إلى الارتياح في كل فرح، ولا إلى أن نتوقع الخراب
كلما رأيت جمالاً. إنها دعوة إلى ألا تجعل دوام العطية حقاً
لازماً، وألا تحتاج إلى زوالها كي تعرف أنها كانت نعمة.

كم من أشياء دخلناها ولم نقل بقلوبنا: ما شاء الله. دخلنا بيتاً
تمنيناه، ثم لم نر فيه إلا العيب الصغير. حملنا طفلاً طال الدعاء به،
ثم أكل التعب ذاكرة الأمنية. وصلنا إلى عمل سعيينا إليه، ثم صار
بعد أشهر أمراً لا يستحق الالتفات. ليست المشكلة أننا تعبنا أو
أردنا الإصلاح؛ المشكلة أن العطاء صار خلفنا، وأن العين لم تعد
تراه إلا إذا هدد.

الاستحقاق يبذل نبرة القلب

للاستحقاق علامات دقيقة. من علاماته أن تشعر أن كل تأخير إهانة لك، وأن كل نجاح لغيرك انتقاص من حصتك، وأن شكر الناس أمر زائد لأنهم - في تصورك - لم يفعلوا إلا واجبهم تجاهك. ومن علاماته أن ترى أخطاءك ظروفًا، وأخطاء الآخرين أخلاقًا ثابتة؛ وأن تعد صبر من حولك عليك أمرًا طبيعيًا، ثم ترى زلتهم الواحدة خيانة لصورة رسمتها لهم.

عالج العجب بمعرفة الحق: لك حقوق تطلبها بعدل، وعليك واجبات تؤديها، وما عندك من نعمة فمن الله. اسع في النجاح، واشكر عليه، ولا تقس منزلة نفسك أو غيرك عند الله بمجرد العطاء الدنيوي.

وتأمل نعمة قريبة تعرف أسبابها. من علمك القراءة؟ ومن أعانك في أول عمل؟ وما الذي احتجت إليه ولم تصنعه بنفسك؟ مثل هذا التأمل يردك إلى التواضع، وإلى شكر الله ثم شكر الناس.

العجب الذي يتسلل إلى الطاعة

ليس المال وحده موضع العجب. قد يعجب الإنسان بصلاته، أو علمه، أو صدقته، أو قدرته على ترك ذنب يعجز عنه غيره. يرى الطاعة، ثم ينسى نعمة الهداية والتثبيت والستر، ويبدأ يقيس الناس

من علو. وربما كانت المعصية التي سلم منها باب تواضعه لو عرف
كم من حفظ الله أحاط به.

افرح بالطاعة التي وفقك الله إليها، واسأله القبول والثبات، ولا
تجعل فرحك حِكْمًا على سرائر الناس. تعرف من تقصير نفسك ما
يلزمك إصلاحه، وتجهل كثيرًا من أحوال غيرك، فكن ناصحًا
متواضعًا.

ومن دواء العجب أن تذكّر التقصير بلا قنوط، وأن تخفي من
العمل ما تستطيع، وأن تدعو لمن رأيت عليه ضعفًا بدل أن تبني
من ضعفه سلماً لنفسك. فإذا فتح الله لك باب طاعة، فقل كما
تقول عند سائر النعم: هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر.

انظر في نعمة كدت تنسبها إلى نفسك وحدها، وتذكر فضل الله
ومن أعانك، ثم أدِّ حقًا يتعلق بها. اللهم لا تجعل عطاءك سببًا
لعجبنا، وأعنا أن نفرح بلا بطر، ونعمل بإخلاص، ونعرف نعمك
فنحمدك عليها ونستعملها في طاعتك.

الفصل الخامس والثلاثون

سمّها بلسانك

قد تُسأل عن حالك فتذكر ما أتعبك، وتنسى ما أعانك. لا يلزمك إخفاء الألم؛ فقد تحتاج إلى بيانه لمن يساعدك. لكن حاول أن تنصف يومك، فتعرف ما فيه من فضل كما تعرف ما فيه من مشقة.

قد تقول: تعبت هذا الأسبوع، والحمد لله أن وجدت من يعينني. أو: لا يزال الأمر يشق علي، وقد يسر الله لي خطوة نافعة. في هذا صدق مع الواقع واعتراف بالنعمة، من غير تكلف لشعور لم تجده.

قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ذكر الله نبيه ﷺ بما أنعم به عليه من الإيواء والهداية والإغناء، ثم أمره بالتحديث بنعمته. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨]. والمراد بالضلال هنا عدم العلم بالوحي وتفصيل الشرع قبل أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فتحدث بنعمة الله على وجه الشكر، وانسب الفضل إليه، واحذر أن يتحول الحديث إلى تفاخر أو أذى لمن يسمعك.

بين التحديث والفخر

ليس كل حديث عن النعمة شكراً. قد يصف المرء بيته أو ماله أو أبناءه ليوقظ الحسرة في قلب من يسمعه. وقد يذكر نجاحه بطريقة تحو جهود الآخرين، أو يكرر أرقامه لأنه يحتاج أن يرى الدهشة في الوجوه. وقد يلبس الفخر ثوب العبارة الإيمانية، فيكثر من قول «بفضل الله» بينما ترتيب الكلام كله يقول: انظروا إليّ.

وفي المقابل، ليس كل صمت تواضعاً. قد ينكر الإنسان نعمة الله إذا سئل عنها، ويذم ما عنده دائماً حتى لا يتهم بالعجب، أو لأن ثقافة المجلس لا تسمح لأحد أن يقول: أنا بخير. وربما خاف العين فصار حديثه كله شكوى، كأن حفظ النعمة لا يكون إلا بجحودها في الكلام. والتحصن المشروع بالأذكار لا يحتاج إلى كذب على فضل الله، ولا إلى تحويل الحياة إلى مرثية دائمة.

الميزان أدق من الأمرين.

حدث بالنعمة حين يكون في تحديثك حمد، أو رجاء لمحتاج، أو تعليم نافع، أو شكر لمن أحسن، أو إدخال سرور على محب صادق. واسكت حين يكون الكلام استعراضاً، أو كسراً لقلب، أو كشفاً

لخصوصية، أو تعريضاً للنعمة بما يضرها. ليس كل ما أُعطيت مأموراً أن تعرضه، وليس كل ما سترته تكون قد بجدته.

قد تقول لصديقك الذي رافق قلقك: الحمد لله، جاءت النتيجة مطمئنة. هذا تحديث بالنعمة ووفاء للصحة. وقد تروي لولدك كيف فتح الله لك باباً بعد تعثر، ليعرف أن التعثر لا يسقط مشروعية السعي والدعاء، من غير أن تعدّه أن كل باب سيفتح في الوقت والصورة التي يريدّها. وقد تذكر تجربة علاج نفحك لتدل مريضاً على سبب مشروع، مع التصريح أن النتائج تختلف وأن الشفاء بيد الله.

وقد يكون الشكر أن تقول ببساطة: اليوم نمت جيداً. مرّ أسبوع وأنا أطلب هذه الليلة، وقد وهبني الله إياها. لا تحتاج النعمة دائماً إلى منبر.

الحمد عند النعم القريبة

قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها». رواه مسلم (٢٧٣٤). ما أعظم أن يذكر هذا الفضل في شربة وأكلة تتكرران في يومنا.

ونقول الحمد لله عند الاستيقاظ، وبعد الطعام، وعند العطاس، اتباعاً لما ثبت في السنة. نعترف بالفضل في موطنه، ونسأل الله حضور القلب وحسن العمل. وقد تكون العبارة مألوفاً، لكن معناها عظيم؛ فتعلمها وافهمها ولا تحقرها لقصرها.

لا تجعل الحمد منافساً للشكوى الصادقة

وإذا احتجت إلى شرح ألمك لطبيب، أو بيان حقك، أو إصلاح شأن في بيتك، فتكلم بصدق. لا يناقض ذلك الحمد. احفظ لسانك من السخط والظلم، واطلب ما ينفعك، واذكر ما تعرفه من فضل الله دون أن تخفي حاجتك.

حين يسرق اللسان جهود الناس

ومن شكر النعمة شكر من أحسن إليك. لا تنسب نجاح العمل إلى نفسك وتنس من شاركك، ولا تجعل أداء الناس لواجباتهم سبباً للاستغناء عن الكلمة الطيبة.

قل لمعلمك إنك انتفعت بعلمه، ولزميلك إن عونته خفف عنك، ولأهل بيتك إنك ترى تعجبهم وتقدره. وسمّ الإحسان الذي عرفته؛ فالكلمة الصادقة تحفظ المودة وتعين صاحب الخير على الاستقرار.

لغة البيت التي تصنع الشعور

للبيوت قاموس يتكون من الكلمات المتكررة. في بيت لا يُذكر إلا ما تعطل: لماذا تأخرت؟ من ترك هذا هنا؟ لماذا لم تفعل؟ وقد تكون الأسئلة لازمة أحياناً، لكن إذا صارت هي اللغة الوحيدة شعر كل فرد أنه لا يرى إلا عند خطئه. وفي بيت آخر لا تنفى الأخطاء، لكن يسمع أهله أيضاً: سلمت يدك، فرحت بعودتك، رأيت تعبك، شكراً لأنك تذكرت.

لا تحتاج الأسرة إلى خطاب وعظي عن الامتنان. تحتاج إلى عين تلاحظ ولسان يسمي. حين يدخل أحدهم بحاجات البيت، لا تمر الأكياس وحدها، وراءها وقت وزحام ومال وتفكير. وحين يجلس آخر مع طفل في واجبه، فهناك صبر لم ير. وحين يخرج الأب أو الأم إلى عمل شاق، وحين يبقى أحدهما يدير تفاصيل المنزل، فلكل تعب اسم وحق.

والشكر لا يعني أن تسكت عن الخلل خشية أن تفسد الجو. تستطيع أن تطلب التغيير من غير أن تحو الخير كله. قل: أنا أقدر ما تفعله، وهذه النقطة تؤلمني ونحتاج أن نصلحها. الاعتراف بالنعمة لا يلغي الحدود، والعتاب لا يحتاج أن يتحول إلى إنكار لتاريخ كامل من الإحسان.

كثير من الخصومات تكبر لأن الإنسان يطالب أن يُرى، ولا يعرف كيف يرى. يبدأ كل طرف يجمع سجل ما قدمه، وينسى ما قدم له. وقد لا تحل كلمة شكر مشكلة عميقة، لكنها تفتح في الجدار نافذة يدخل منها العدل. أما الظلم والعنف فلا يعالجان بعبارات امتنان تجبر المتضرر على البقاء؛ له أن يطلب الأمان والحق، والشكر لا يستعمل قيداً عليه.

نعمة لا تريد إعلاناً

بعض العطايا تفسدها كثرة العرض. سر بينك وبين الله، أو صلح حديث لم يستقر، أو طفل لا يملك أن يختار ظهور تفاصيله، أو رزق قد يجر إعلاناً أذى واقعياً. التحديث بالنعمة لا يعارض الحكمة والستر.

احفظ خصوصية نفسك وأهلك ومن شاركوك الخبر. قد يكفي أن تحمد الله وتخبر من يحسن إخباره، ولا يلزم أن تعرض تفاصيل النعمة للناس جميعاً. يعلم الله شكرك، فاجعل عنايتك بإخلاصه والعمل به.

من الاعتراف إلى الدعاء

حين تسمي النعمة، ستعرف ما تخاف عليها، وما تسأل لها. ترى ولدك نعمة فتدعو بصلاحه ولا تجعله مشروع تفاخر. ترى مالك

نعمة فتسأل البركة، لا مجرد الكثرة. ترى علمك نعمة فتسأل أن يكون حجة لك لا عليك. ترى محبة الناس نعمة فتسأل الصدق والإخلاص، لأن القبول قد يختبر صاحبه كما يسره.

واللسان الذي اعتاد الحمد يجد في وقت الضيق ذاكرة أخرى. لا يعني ذلك أنه لن يضطرب، لكن فيه كلمات سبقت الأزمة واستقرت: الله ربّي، وما عندي فنه، وما أرجوه فعنده. هذه الكلمات لا تمنع الدمع؛ تمنع الوحدة المطلقة.

سمّ نعمتك، لا لتربطها بنفسك، بل لتربط نفسك بربها.

احمد الله على نعمة عرفت قدرها، واشكر من أحسن إليك بكلمة واضحة أو عمل تستطيع أدائه. اللهم ارزقنا لساناً صادقاً، وقلباً شاكراً، وعملاً صالحاً، ولا تجعل حديثنا بنعمك نفراً على عبادك أو جحوداً لحقوقهم.

الفصل السادس والثلاثون

اعملوا شكراً

قد نحمد الله على المال ثم نؤخر حقاً فيه، ونحمده على العلم ثم نقصر في أمانته، ونحمده على البيان ثم نؤذي بكلمة. لذلك يحتاج الشكر إلى أثر في العمل، مع اعتراف القلب وثناء اللسان.

قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. فاستعمل ما رزقك الله في طاعته، وابدأ بواجب قريب تعرفه، واسأله العون؛ فإن التوفيق للشكر نعمة تحتاج إلى شكر.

شكر الجوارح

عينك تجيب عن نعمتها بما تنظر إليه. ليست مخلوقة لتتبع عورات الناس، ولا لتقيم في صور تحرك الشهوة أو الحسد، ولا لتفتش عن كل ما يثبت أنك أقل من غيرك. شكرها أن تقرأ، وتأمل، وترى حاجة أهلك، وتغض حين يكون الغض طاعة، وتمنح وجه من يكلمك حضوراً لا شاشة تنافسه.

وأذنك تجيب بما تسمع. شكرها ألا تجعلها بيتاً دائماً للضحج والوقعة، وأن تمنحها قرأناً وعلماً وكلاماً طيباً، وأن تصغي لمن له

حق عليك. كم من إنسان قريب لا يطلب منك حلاً؛ يطلب أن تنزل هاتفك، وأن يسمع من صمتك أنك معه.

ولسانك يجب: يصدق، ويذكر، ويعتذر، ويدافع عن غائب، ويقول «لا أعلم» حين لا يعلم. وليس شكر البيان أن تتكلم كثيراً، بل أن تضع الكلمة حيث تصلح. ربما كان شكر اللسان في مجلس أن تسكت عن سر، وفي آخر أن تقول حقاً يخاف الجميع قوله.

وقدماك تجيبان: إلى أي مكان تحملانك؟ ويدك: ماذا توقع، وماذا تدفع، ومن ترفع؟ وعقلك: في أي حيلة تتفق ذكاءه؟ فالذكاء نفسه قد يصير نعمة باهرة إذا حل مشكلة للناس، وقد يصير أداة ظلم إذا استعمل ليستر الاحتيال أو يزين الباطل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ليست الجوارح أملاً كاملاً منفصلة نفعل بها ما نشاء ثم نضيف الحمد في آخر اليوم. هي أمانات؛ وكرامتها أن تستعمل فيما يليق بمن وهبها.

حين نستعين بالعطية على معصية معطيها

من أشد صور الغفلة أن يأتي الذنب محمولاً على نعمة. مال يسر الله جمعه فينفق في حرام. نفوذ فتح الله بابه فيضغط به على ضعيف.

خصوصية أتمنك عليها شخص فتصير مادة مجلس. شاشة قربت لك العلم والرحم، فتجعلها نافذة لا تنام على ما يؤذي قلبك.

لكن لا تقرأ هذا فتكره نعمك أو تيأس من نفسك. إذا أخطأت بعطية، فالعطية نفسها تستطيع أن تحملك في طريق العودة. العين التي نظرت إلى ما لا يحل تستطيع أن تغض، وأن تقرأ آية، وأن ترى محتاجاً. اللسان الذي آذى يستطيع أن يعتذر ويصحح ويستغفر. المال الذي دخل فيه تقصير يستطيع صاحبه أن يرد الحقوق ويظهر الكسب. والمنصة التي نشرت عليها باطلاً تستطيع أن تنشر فيها التصحيح، بقدر ما تستطيع أن تزيل الأثر.

التوبة ليست فقط حزناً داخل الصدر؛ هي إعادة توجيه النعمة. وإذا تعلق الذنب بحق إنسان، لم يكف أن تقول في خلوتك أستغفر الله وأنت قادر على رد حقه. من أخذ رد، ومن اقترى برّاً، ومن أفسد أصلح بحسب استطاعته، مع فقه ما قد يترتب على الاعتذار أو الكشف والاستعانة بأهل العلم عند التباس الحقوق.

ليس المقصود أن تراقب كل حركة حتى تعيش مذعوراً. المقصود أن تسأل من حين إلى حين: هل الطريق الذي تمضي فيه نعمتي يرضي من أعطاني إياها؟

أصحاب الجنة: حين ضاق الرزق عن المسكين

حكى الله عن أصحاب جنة أقسموا ليصرمنها مصبحين. أرادوا أن يخرجوا في أول النهار، وتناجوا: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٤].

قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [القلم: ١٩-٢٠]. فلما رأوها قالوا إنهم ضالون، ثم عرفوا ما أصابهم فقالوا: بل نحن محرومون. وقال أوسطهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]. فأقروا بظلمهم، وتلاوموا، ورجوا أن يبدلهم ربهم خيراً منها.

نتعظ بخبرهم فنحذر منع الحق والبغي، وتندارك التقصير إذا ظهر لنا. لا تجعل الخوف على مالك يمنعك زكاة واجبة أو نفقة لازمة، ولا تجعل خطأ مضى مانعاً من التوبة والبذل.

ليس كل احتفاظ بالمال بخلاً. من الشكر أن تنفق على نفسك وأهلك باعتدال، وأن تدخر لحاجة متوقعة، وأن تحمي من تعول من سؤال الناس، وأن تخطط كيلا يتحول كرم لحظة إلى دين طويل. البخل هو أن يمنع الإنسان ما وجب، أو تضيق نفسه بالخير الممكن حتى يستعبد المال قلبه. والكرم ليس فوضى، كما أن الاقتصاد ليس قسوة.

الخوف الذي يغلق اليد

وقد يخاف الإنسان من الحاجة فيشقى عليه البذل، فيحتاج إلى حسن تدبير وعلم بما يجب عليه وثقة برزق الله. المال سبب نافع، لكنه لا يمنح صاحبه ضماناً من المرض والفقد. احفظه من التبذير، وأدِّ حقوقه، واستعن به على الخير.

ابداً بحق معلوم: زكاة إن وجبت، ونفقة من تلزمك نفقته، ودين جاء أجله، وأجرة عامل لم تجف حاجته إليها. ثم اجعل لك باب صدقة مستمراً ولو كان صغيراً. الانتظام يربي اليد؛ فلا تبقى رهينة موجة عاطفة تأتي بعد مشهد مؤلم ثم تنقطع.

واحفظ كرامة المحتاج: لا تمن عليه، ولا تؤذه، ولا تنشر خصوصيته. أعنه وأنت ترجو رضا الله، وتشكر نعمة القدرة على نفعه.

بیرحاء: حين صار المحبوب طريقاً

كان أحب أموال أبي طلحة رضي الله عنه بستان بیرحاء، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من مائها الطيب. فلما نزل قول الله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] جعلها صدقة لله يرجو برها وذخرها عنده. فأرشده النبي ﷺ إلى أن يجعلها في الأقربين. رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

بادر أبو طلحة إلى العمل بالآية، وبذل من مال يحبه. فتعلم من مبادرته، وأدّ ما يجب عليك، وتصدق بما تستطيع من غير تضييع لمن تعول. وقد يجتمع في عطائك نفع المحتاج وصلة الرحم.

قد يكون وقتاً لا مالاً. ساعة تحب هدوءها فتعطي جزءاً منها لوالد يحتاج الحديث، أو طالب يحتاج شرحاً. وقد يكون علماً تعبت في جمعه فتقدمه بأمانة بدل أن تحتكره. وقد يكون جاهاً تستعمله لتوصل صاحب حق. وقد يكون بيتاً تفتح بابَه لضيف بلا تكلف يفسد عليك وعليه الزيارة.

شكر كل نعمة من جنسها

لا يكفي أن تحول كل معنى إلى صدقة مالية. للنعمة لغة تناسبها. شكر العلم تعليم وصدق وتواضع. شكر الجمال صيانة عن الحرام وترك التكبر. شكر المنصب عدل وتيسير ومحاسبة للنفس. شكر الأسرة حضور ووفاء ونفقة ومودة. شكر الوقت ترتيب يمنع العاجل من ابتلاع المهم. شكر الصحة حفظ لها واستعمال في نفع، لا إنهاك متعمد ولا عبادة للجسد.

وشكر التقية أن تستخدمها فيما قربت لأجله من خير، وأن تضع لها حدوداً حين تسرقك من عين طفل أو حق نوم أو صلاة. وشكر السيارة ألا تجعل سرعتها أذى. وشكر البيت ألا يتحول بابَه إلى حاجز عن رحم أو محتاج، مع حفظ خصوصيته وأمن أهله.

وشكر الخبرة ألا تسخر من مبتدئ لأنه لم يعيش السنوات التي عشتها.

قد يكون الشكر أحياناً أن تثقف. أن تمنع يدك من توقيع ظلم، ولسانك من جواب جارح، وعينك من فضول محرم. الترك عمل أيضاً، حين يكون وراءه تعظيم لله.

إذا لم يكن عندك مال تبذله

قد يقرأ محدود الرزق حديث البذل فيشعر أن باب الشكر صُمم للأغنياء. وهو شعور غير صحيح. المال باب من الأبواب، وليس البيت كله. قد لا تملك صدقة كبيرة، لكنك تملك أن تحفظ مال غيرك، وأن تؤدي عملك بإتقان، وأن تدل على خير، وأن تحمل حاجة، وأن تدعو، وأن تترك أذى.

بل قد يكون من شكر القليل أن تحسن تديره. ألا تشتري لإرضاء عين الناس ثم تمد يدك لحاجة أهلك. ألا تجعل المقارنة تدفعك إلى دين لا تحتمله. أن تصلح ما يمكن إصلاحه بدل أن تستبدله لمجرد تغيير الموضة. الاقتصاد هنا ليس خوفاً مذموماً؛ هو أمانة ورحمة بمن تعول.

ولا تحتقر الكلمة والخبرة. ربما اختصرت على إنسان أياً ما بمعلومة، أو حفظته من قرار مؤذٍ بتحذير صادق، أو فتحت له باب عمل

بإحالة. لكن احفظ الفرق بين النصيحة والتسلط؛ شكر علمك ألا نتكلم فيما لا تعلم، وألا تجعل المحتاج إلى رأيك تابعاً لك.

قال النبي ﷺ: «كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس»، وذكر من الصدقات العدل بين اثنين، وإعانة الرجل في دابته، والكلمة الطيبة، والخطوة إلى الصلاة، وإمالة الأذى عن الطريق. رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩). فاختر من أبواب الخير ما تستطيعه، ولا تحصر النفع في المال.

حقوق لا تعوضها الصدقات

قد يتصدق الإنسان بعيداً، وفي ذمته أجرة يؤخرها، أو نفقة يضيق بها على من تلزمه، أو دين قادر على أدائه. يفعل العمل الذي يمنحه شعور الكرم، ويترك الحق الذي لا تصاحبه صورة جميلة. لكن النافلة لا تحو الواجب.

ابدأ من الدائرة الأقرب: مال حرام يجب رده، وحق ثابت، وعقد يجب الوفاء به، وأهل لهم كفاية بالمعروف. ثم اتسع إلى التطوع. ليس هذا تقليلاً من الصدقة؛ هو حفظ لترتيب الشريعة حتى لا نستعمل خيراً محبوباً ستاراً على تقصير مؤلم.

وكذلك في الوقت. لا يصح أن تمنح الغرباء أفضل لطفك، ثم تدخل بيتك ببقايا الصبر دائماً. خدمة الناس نعمة، لكن لأهلك

حقاً. والتوازن لا يأتي في كل يوم على صورة متساوية؛ قد تضطرك مواسم العمل أو حاجة عامة إلى ضغط مؤقت، لكن لا تجعل المؤقت أسلوب حياة لا يُراجع.

اسأل: من صاحب الحق الذي لا يصفق لي إذا أديته؟ هناك غالباً يبدأ أصدق الشكر.

لا تنتظر قلباً مثالياً

ربما تعلم أن لك حقاً يجب أدائه، ولا تجد في نفسك سخاء. أدّه. لا تنتظر أن تتحول إلى شخص آخر أولاً. الجوارح تربي القلب كما يربّيها القلب. تصدق سراً، ولو شعرت في البداية بثقل. اشكر من أحسن، ولو قاومت نفسك الاعتراف. أغلق باب الذنب، ولو بقيت الرغبة تطرق. كل مرة تختار فيها وجهة النعمة الصحيحة، تضعف الطريق القديمة قليلاً.

وإذا أخطأت، فتب وأصلح ما تستطيع. وقد أوصى النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه بهذا الدعاء: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني.

اللهم ما رزقنا من سمع وبصر وقوة ومال ووقت، فأعنا أن نستعمله في طاعتك. احفظ ألسنتنا من أذى الناس، وأيدينا من الظلم، وقلوبنا من العجب، واجعلنا من الشاكرين.

الفصل السابع والثلاثون

العين التي خرجت من بيتها

قد ترى في هاتفك بيتاً أوسع من بيتك، أو نجاحاً تمنيته، ثم تعود إلى ما عندك فتجده أقل في عينك. لم تتغير النعمة في تلك الدقائق، لكن المقارنة حجب بعض قدرها.

أنت ترى من حياة غيرك ما ظهر لك، وتعرف من حياتك تفاصيل كثيرة. فلا تجعل هذه المعرفة الناقصة ميزاناً للرضا بما أعطاك الله، ولا تحمل نفسك أن تشبه كل من رأيت.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

نهى الله نبيه ﷺ أن يمد عينيه إلى ما متع به أقواماً من زهرة الحياة الدنيا، وبين أنه ابتلاء لهم، وأن رزق ربه خير وأبقى. فنتعظ بهذا النبي، ونعرف أن جمال المتاع لا يجعله غاية العمر ولا دليل النجاة.

لا تطلب منك الآية أن تقول عن الجميل قبيحاً. قد يكون البيت جميلاً فعلاً، والنجاح حقيقياً، وصاحب النعمة شاكراً سعيداً.

ليس علاج المقارنة أن نتهم كل مبتسم بأنه يبكي في الخفاء، أو تخيل وراء كل مال مأساة. هذا ظلم للناس وادعاء لما لا نعلم.

العلاج أن تقول: ما رأيته جزء من حياة لا أعرفها، وما عنده قسمة تخص اختباره، وما عندي قسمة تخص عبوديتي. أستطيع أن أتعلم من نجاحه، وأن أدعو له بالبركة، وأن أسعى إلى ما ينفعني، من غير أن أجعل نعمته حكماً بنقصي.

حين تتحول النافذة إلى ميزان

كثرة الصور المعروضة قد تزيد انشغالك بما عند الآخرين. راقب ما تتابعه: هل نتعلم منه ما ينفعك، أم ينتهي بك إلى ازدراء حياتك وتبعب عيوب الناس؟ خفف ما يضرّك، واحفظ وقتك لما يلزمك وما ينفعك.

ليس المقصود أن تتهم كل صاحب نعمة أو تخيل وراء فرحه حزناً خفياً. ادع له بالبركة، وتعلم من الخير الذي عنده، واسع فيما يحل لك على قدر استطاعتك.

الميزان الذي يصحح الرغبة

لما تمنى قوم مثل مال قارون، قال الذين أوتوا العلم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠]. صححوا الغاية التي ينبغي أن يتعلق بها القلب. المال ينفع إذا كان حلالاً واستعمل

في الخير، وثواب الله هو الباقي. فلا تتم زوال نعمة أحد، ولا تنس آخرتك وأنت تطلب الدنيا.

ما الفرق بين الغبطة والحسد؟

قد ترى إنساناً يحفظ القرآن فتمنى أن يفتح الله عليك مثله. أو ترى مشروعاً نافعاً فتقول: أريد أن أتعلم كيف صنعه. أو ترى خلقاً جميلاً فتسعى إلى اكتسابه. هذه رغبة يمكن أن تكون باب خير ما دمت لا تتمنى زوال النعمة عن صاحبها، ولا تتحول الرغبة إلى اعتراض على قسم الله أو انتقاص للآخر.

أما الحسد فيؤلم صاحبه بنعمة غيره. يتمنى زوالها، أو يضيق ببقائها، وربما بحث عن عيب يفسد به فرحة صاحبها. وقد يبدأ خاطراً غير مختار. لا تحاكم نفسك على كل خاطر طرق الباب؛ المسؤولية فيما تستقبله به. إذا كرهت الخاطر، واستعذت بالله، ودعوت للإنسان بالبركة، وكففت لسانك، فأنت تجاهد مرضاً ولم تتحول إليه.

لا تقل: أنا حسود لا أمل فيّ. سمّها لحظة تحتاج علاجاً. أغلق المادة التي تغذيها، واذكر نعمة عندك، وادع للآخر، ثم خذ بسبب واقعي إن كان ما رأيته هدفاً مشروعاً. الحسد يشل؛ والغبطة الصالحة تتحول إلى تعلم وعمل.

وقد يكون في نفسك حزن على حاجة لم تتحقق، فتؤلمك رؤية من نالها. اعترف بحاجتك وادع الله، واحذر أن يقودك الحزن إلى الحسد أو أذى صاحب النعمة. ومن يواسيك يحتاج إلى فهم هذا الألم والرفق بك، مع إعانتك على حفظ قلبك ولسانك.

النظر إلى من دونك: رحمة لا منصة تفوق

قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم». رواه مسلم (٢٩٦٣).

هذا توجيه في أمر الدنيا يعين على معرفة النعمة وترك ازدراءها. فإذا عرفت أن غيرك حرم عافية أو قوتاً أو مأوى تيسر لك، فاحمد الله، وارحم أخاك، وأعنه إن قدرت. لا يدل تفاوت الأرزاق على أن الغني أفضل عند الله، ولا يجعل ألم المحتاج مباحاً للسخرة أو العرض.

حين تحول المقارنة إلى شراء

لا تبقى العين فكرة في الرأس دائماً؛ قد تمتد إلى البطاقة والراتب والدين. يرى الإنسان ما عند غيره، فيشتري شيئاً لا يحتاجه كي يلحق بصورة لا تخصه. تمر لذة الوصول سريعاً، ويبقى القسط، وربما بقي معه خوف أن يظهر بعد أيام ما هو أحدث.

ليست كل رغبة إسرافاً، ولا الجمال عدواً للشكر. من حَقَّك أن تحسن بيتك ولباسك، وأن تشتري ما ينفع ويسر ضمن الحلال والقدرة. لكن اسأل قبل القرار: هل أريد الشيء، أم أريد الشعور الذي أتخيل أن الناس سيعطونني إياه حين يرونه؟ هل يناسب دخلي وحاجتي، أم يناسب صورة شخص آخر؟ وما الذي سأؤجله أو أثقل به لأحصل عليه؟

قد تكون القناعة أن تؤجل الشراء يومين حتى تهدأ العين. أن تكتب الحاجة الحقيقية. أن تقارن السعر لا المكانة. أن تصلح الموجود. وأن تتفق الأسرة على أولوياتها بعيداً عن ضغط العرض المستمر. المال الذي لا تنفقه لإرضاء المقارنة ليس حرماناً؛ قد يكون أماناً اشتريته لبيتك.

والشركات تعرف كيف توقظ إحساس النقص: إصدار جديد، ووقت محدود، وحياة أجمل تنتظرك بعد الدفع. تعامل مع الإعلان بوصفه خطاباً يريد قرارك، لا حكماً على حياتك. قد يكون المنتج جيداً، لكن جودة المنتج لا تعني أن حاجتك إليه حقيقية.

المقارنة في أبواب الدين

حتى الطاعة قد تدخلها المقارنة. يرى إنسان من يختم القرآن في مدة قصيرة، أو يقوم طويلاً، أو يحفظ كثيراً، فيحتقر عبادته ثم

يترك ما يستطيع. ويرى آخر عمله فيعجب به ويظن أن من لم يفعل مثله أقل صدقاً.

التنافس في الخير محمود حين يدفعك إلى الله، لا حين يجعلك مشغولاً بموقعك بين الناس. القدرات والأحوال تتفاوت. لأم ترعى صغيراً عبادة في صبرها وحفظها، ولمريض عبادة في صلاته على قدر طاقته، ولعامل يسعى في الحلال باب لا يظهر في المقاطع. لا تملك ملفات الناس كاملة، فلا ترتب قلوبهم.

خذ من الصالحين الدلالة لا النسخة المطابقة. إن ألهمك قارئ، فزد وردك بقدر يستمر. إن رأيت متصداً، فافتح باباً يناسب مالك. وإن رأيت عالماً، فتعلم أول مسألة تحتاجها. القليل الدائم الذي يصلح قلبك خير من اندفاعه بتبنيها المقارنة ثم تهدمها المشقة.

وإذا فُتح لك في عبادة، فلا تعرضها لتثبت أنك سبقت. احمد الله، واسأله القبول، وتذكر أن العبرة بالخواتيم وبصدق القلوب الذي لا يعلمه إلا هو.

المقارنة بنفسك القديمة

هناك عين لا تخرج إلى بيت غيرك، لكنها تعود دائماً إلى بيتك القديم. تقارن جسدك اليوم بجسدك قبل المرض، وتركيزك بعد

الإيهالك بما كنت عليه، وقدرتك في سنك الحاضرة بسنوات مضت. قد تكون هذه المقارنة أشد وجعاً لأن الصورتين لك.

من حَقَّك أن تحزن على قدرة نقصت، وأن تعمل لاسترداد ما يمكن استرداده. لكن لا تجعل صورتك القديمة سيفاً على رقبتك. أنت مسؤول عن عبودية اليوم بوسع اليوم. وقد تكون ركعتان الآن كبيرتين في مجاهدتك بالنظر إلى وسعك الحاضر، والله أعلم بصدق القلوب والقبول. وقد يكون إنجاز صغير في زمن المرض كبيراً بالنظر إلى قدرتك.

لا تسأل دائماً: لماذا لست كما كنت؟ اسأل أحياناً: ما أحسن ما أستطيع أن أكونه بما عندي الآن؟ هذا السؤال لا يستسلم للنقص، لكنه يتوقف عن إهانة الحاضر.

وحتى في العمل والتعلم، قارن لتفهم لا لتجلد. ما الذي تحسن منذ عام؟ ما الخطوة التالية الممكنة؟ أين قصرت فعلاً؟ وأين تغير ظرفك فلا يصح القياس؟ العدل مع النفس جزء من الشكر؛ لأنك إذا حملتها ما لا تطيق كرهت الطريق والنعمة معاً.

أعد العين إلى بيتها

ليس معنى ذلك أن تغلقها عن العالم. أعدّها إلى موضع المسؤولية. انظر إلى غرفتك: ماذا فيها مما كان يوماً طلباً؟ انظر إلى الأشخاص

لا الأشياء فقط. من الذي يأمنك؟ من الذي يسندك؟ ما المهارة التي صارت عادية لأنها لازمتك؟ ما الخطأ الذي أعانك الله على تداركه، أو سترك بعد وقوعه من غير أن تأمن تبعته؟ ما الدعاء الذي استجيب ثم نسيته؟

اكتب نعمك بصيغة محددة. لا تكتب «الأسرة» فقط؛ اكتب موقفاً: اتصل بي أخي يوم كذا وبقي معي. لا تكتب «الصحة» فقط؛ اكتب: استطعت أن أمشي إلى المسجد أو أن أحمل طفلي أو أن أعد طعامي. التفصيل يعيد اللون إلى ما بهت.

ثم اخرج من البيت بعين ممتلئة، لا بعين مغلقة. افرح لنعمة غيرك، وتعلم، واسع. رزق الآخر لا يكتب نقصانك، وتأخر طريقك لا يجعل وصوله خطأ.

خفف متابعة ما يورثك السخط، ثم استعمل ما عندك في خير تقدر عليه. اللهم بارك للناس فيما أعطيتهم، وبارك لنا في رزقنا، وطهر قلوبنا من الحسد، وأعنا على القناعة والسعي الحلال والإحسان إلى عبادك.

الفصل الثامن والثلاثون

الرضا الذي يحرك

قد تظن أن الرضا سيمنعك من السعي، أو أن القناعة تلزمك البقاء في وضع تستطيع إصلاحه. والرضا بالله لا يمنع العلاج وطلب الرزق ودفع الظلم. تؤمن بقدره، وتحفظ قلبك من الاعتراض عليه، ثم تعمل بما أمرك.

إذا أخطأت فتب وأصلح، وإذا مرضت فتداو، وإذا احتجت فاسع في الحلال. تستطيع أن تحمد الله على ما عندك، وتسأله خيراً وزيادة، من غير أن تجعل رضاك به مشروطاً بتحقيق كل ما تريد.

مريم تهز الجذع

أخبر القرآن عن شدة ما لقيته مريم عليها السلام، وعن الأمر الذي جاءها: ﴿وَهَزِيْٓ اِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلِيْ وَاَشْرِيْ وَقِرِيْ عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥-٢٦]. في القصة رزق ورحمة، وفعل أمرت به.

نتعلم أن نأخذ بالسبب المشروع على قدر الاستطاعة. ولا نستخرج من خبر معين ضماناً لنتيجة محددة لكل من فعل سبباً؛ فالنتائج إلى الله. أسأله العون، وافعل ما ينفعك، ولو كان يسيراً في نظر الناس.

الرضا ليس إعفاءً من المسؤولية

قد يقول إنسان: هذا قدر الله، بعد أن يخطئ، ليغلق باب المراجعة. أهمل ثم قال: لو شاء الله لنجح الأمر. آذى شخصاً ثم طالبه بالرضا. بدد المال ثم سعى النتيجة قسمة. هذا ليس تسليماً؛ إنه استعمال للقدر في غير موضعه.

نؤمن أن ما وقع لم يخرج عن قدر الله، ونؤمن في الوقت نفسه أن الله أمر ونهى، وجعل لنا إرادة وقدرة نحاسب على ما فعلنا بهما. إذا أخطأت، فمن الشكر أن تعترف وتتعلم وتصلح. وإذا نجحت، فمن الشكر أن تنسب الفضل إلى الله ولا تحو جهدك ولا جهود الناس. القدر يمنح القلب سكينة بعد وقوع ما لا يستطيع رده، ولا يمنح اليد رخصة أن تترك ما أمرت به.

قال رسول الله ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»، وقال في الحديث نفسه: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان». رواه مسلم (٢٦٦٤).

في الحديث حرص على النافع واستعانة بالله، ثم تسليم بعد وقوع المقدور. راجع السبب لتتعلم وتصلح، واجتنب «لو» التي تحمل التسلخ وتعلق القلب باحتمال لا يرد الماضي.

عمر يرجع من الوباء

بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سرغ في طريقه إلى الشام، فبلغه وقوع الوباء هناك. استشار ثم عزم على الرجوع. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: «نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله». ثم جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بخبر النبي ﷺ: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». رواه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

تشاور عمر وأخذ بالسبب، وجاءت السنة مؤيدة لما عزم عليه. حفظ النفس بالأسباب المشروعة لا يناقض الإيمان بالقدر.

حين تربط حزام الأمان لا تعترض على القدر. وحين تجري فحصاً، أو تحفظ مالك بعقد واضح، أو تضع نظام سلامة، أو تستشير قبل قرار، فأنت تأخذ بسبب مأذون، وقد يصير ذلك عبادة بالنية الصالحة. التوكل ليس أن تترك الباب مفتوحاً ثم تطلب الحفظ، ولا أن تهمل الجسد ثم تسمي المرض اختباراً فقط.

وفي الجهة الأخرى، لا تجعل الأخذ بالأسباب وعداً قاطعاً بالنتائج. قد يحتاط الإنسان ويصيبه ما يكره. وقد يتداوى ولا يشفى. وقد يخطط ويتعثر. لا يعني ذلك أن السبب كان عبثاً، ولا

أن إيمانه ناقص. أخذ بسبب معتبر، والنتيجة ليست في ملكه. هنا يعود الرضا ليحفظه من الانهيار، ثم ينظر: هل هناك سبب آخر مشروع؟ هل يحتاج أن يغير الخطة؟ أم أن عبودية اللحظة صبر وانتظار؟

حين تفعل ما تستطيع ولا تأتي النتيجة

من أصعب مواضع الرضا أن تبذل جهدك، ثم لا ترى الثمرة. درست ولم تُقبل. طرقت أبواب العمل ولم يُفتح واحد منها بعد. التزمت العلاج ولم تتغير الأرقام كما رجوت. أصلحت ما استطعت في علاقة، وبقي الطرف الآخر على موقفه.

هنا ثألم مرتين: مرة للنتيجة، ومرة لأنك تشعر أن جهدك ذهب. لكن قيمة العمل ليست كلها في الثمرة التي تراها. المتاح لك أن تصدق في السبب الذي تملكه، لا أن تخلق النتيجة. وقد نتعلم من التعثر خلاً يجب إصلاحه؛ فراجع نفسك بصدق، واستشر، ولا تجعل الرضا عذراً لتكرار الخطة نفسها. وقد لا تجد خلاً ظاهراً، وتبقى النتيجة مؤجلة أو مصروفة. عندها لا تتهم إيمانك ولا تجعل تأخرها حكماً على قيمتك.

ليست كل الأبواب تفتح بالمحاولة العاشرة، ولا نملك وعداً دنيوياً أن المثابر سيحصل حتماً على الصورة التي رسمها. لكن السعي الحلال قد يبني خبرة وخلقاً وإن لم يأت بالثمره التي أردت، وما

اقترن منه بنية صالحة ووجه مشروع يُرجى أجره عند الله. ثم أنت بعد ذلك حر في أن تغير الوجهة؛ فالثبات على المقصد لا يعني التعلق بوسيلة واحدة.

اسأل أهل الخبرة عن نفع الوسيلة ومشروعية ما يحتاج إلى بيان شرعي، ثم استخر الله فيما تقبل عليه. قد تستمر، وقد تغير طريقك إذا ظهر لك ما يقتضي ذلك. القناعة لا تمنع مراجعة القرار، والتوكل لا يوجب التعلق بوسيلة واحدة.

القناعة ليست كراهية الزيادة

يجوز أن تطلب سعة الرزق، ومسكناً أصلح، وعملاً أنسب، وعافية أتم. الأنبياء دعوا وسألوا. القناعة لا تعني أن تخفض جودة عملك، أو ترفض فرصة حلاًلاً، أو تترك حق أهلك بحجة الزهد.

القناعة أن تكون الزيادة في يدك طلباً، لا في قلبك شرطاً للسكينة. تسعى إليها، فإن جاءت شكرت، وإن تأخرت لم تقل إن حياتك لا تبدأ قبلها. تعرف أن قيمتك ليست الرقم الذي تنتظره، وأن يومك الحاضر ليس غرفة انتظار مهملة قبل الحياة الحقيقية.

يمكن أن تحب بيتك وتسعى إلى توسيعه. وتشكر عملك وتبحث عن عمل أفضل. وترضى عن جسدك بوصفه أمانة، ثم تعالجه وتدرجه

وتغير ما يضره. التناقض ينشأ فقط حين تفهم الرضا جموداً أو تفهم الطموح كراهية دائمة للحاضر.

العبد الشاكر يقول: يا رب، لك الحمد على ما عندي، وأسألك من فضلك، وأعمل بما أقدر، ولا أجعل تأخر ما طلبت حجاباً عن عطائك القائم.

الرضا يحتاج أحياناً إلى جماعة

ومن النعم أن تجد من يعينك على فهم حالك: عالماً ثقة، أو طبيباً، أو صاحب خبرة، أو قريباً أميناً. ضع كل سؤال عند أهله، ولا تتعلق بمن يعدك بنتيجة مضمونة بغير علم.

واشكر من بذل لك علماً أو وقتاً أو مالاً، واقل المعروف بما يحفظ كرامتك وحقوقك. كلنا محتاج إلى الله، وقد يسخر بعضنا لبعض في وقت القوة والضعف.

الرضا الذي يقاوم الظلم

الرضا بقدر الله لا يعني الرضا بالمعصية من جهة الشرع. يطلب المظلوم رفع الظلم بالوسائل المشروعة، ويستعين بمن يحميه وينصفه، ولا يحتج عليه أحد بالصبر لإدامة الأذى. كما أن المريض يسأل العافية ويتعالج، ويرجو من الله الأجر فيما يصيبه.

خطوة تستطيعها

إذا ضاق عليك أمر، فميز ما تستطيع فعله مما لا تملكه. قد لا تملك تغيير ما مضى، لكنك تستطيع اعتذاراً أو رد حق أو استشارة. وقد لا تملك نتيجة العلاج، لكنك تستطيع مراجعته مع المختص والدعاء بالعافية.

ابدأ بما تعرفه من واجب أو سبب نافع، من غير وعد لنفسك بأن كل شيء سيحل سريعاً. ما تفعله من خير له قيمته، وما تعجز عنه تسأل الله العون فيه.

اللهم لك الحمد على ما أعطيت، وأعنا على ما كلفتنا، وارزقنا الرضا بك رباً، وحسن العمل بطاعتك. اجعلنا إذا وسع علينا شاكرين، وإذا ابتلينا صابرين، وإذا أخطأنا تائبين، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

الباب السابع حياة تقول الحمد لله

في الاستيقاظ والطعام والعمل والرجوع إلى البيت نعم نكرر. وقد يصحبك ذكر الله فيها، ثم يظهر شكرك في كلمة طيبة وأمانة تؤديها وحق تحفظه.

لا تحتاج إلى يوم خالٍ من المشقة حتى تشكر. تحتاج إلى قلب يعرف المنعم، ولسانٍ يحمده، وعمل يوافق رضاه. وكلها غفلت عدت، وكلها عجزت استعنت به.

الفصل التاسع والثلاثون

حين تعود إليك روحك

قد تمتد يدك إلى الهاتف فور استيقاظك، فتسبق الرسائل والأخبار إلى ذهنك قبل أن نتذكر نعمة هذه المهلة الجديدة. نمت ثم استيقظت، وبقي لك من العمر ما تستدرك فيه تقصيراً وتعمل فيه خيراً.

كان النبي ﷺ إذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أمتنا وإليه النشور». رواه البخاري (٦٣١٢). يذكرك هذا الحمد بالنعمة وبالرجوع إلى الله، فيبدأ يومك بمعنى يحتاج إليه قلبك.

وقد تستيقظ على ألم لم يزل، أو هم لم ينته. قل الذكر وافهمه، واسأل الله العافية والعون. لا يناقض الحمد أن تكون متعباً، تحمد الله على الحياة وما بقي فيها من خير، وتدعوه فيما يشق عليك.

الدقائق التي تسبق العالم

امنح الذكر الثابت مكانه في أول يقظتك، وحافظ على صلاتك في وقتها. وخفف ما لا تحتاج إليه من المشتتات حتى تقبل على واجبك في سكون ما استطعت.

ثم انظر إلى خير تقدر عليه: أداء حق، أو تعلم نافع، أو زيارة، أو إصلاح تقصير. مهلة اليوم نعمة، وشكرها أن تستعملها فيما ينفعك في دينك ودنياك.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

يذهب أحدهما ويأتي الآخر. ما فات في ليل قد تستدركه في نهار، وما أعياك في نهار قد تضعه بين يدي الله في ليل. ليست الأيام نسخاً متشابهة؛ إنها فرص تتعاقب: تذكّر وشكر، ثم تذكّر وشكر.

لا تجعل القائمة تبتلع العطية

وقد يبدأ يومك بواجبات كثيرة: عمل وأطفال ورعاية مريض وشؤون بيت. اطلب ما يعينك على تنظيمها، ولا تجعل التعب يحو ما يصحب بعضها من نعم. الولد نعمة وأمانة، والعمل الحلال رزق ومسؤولية، ورعاية الوالدين باب بر، وإن احتجت معها إلى راحة ومساعدة.

أعط كل أمر حقه: اعترف بالتعب لتعالجه، واعرف النعمة لتشكرها. لا يلزم أن يكون العمل سهلاً حتى يكون نافعاً، ولا يلزم أن تحمله وحدك حتى تكون محسناً.

صباح من لا يستطيع

وقد لا تستطيع بدء يوم هادئ كما تتمنى: مريض يشق عليه القيام، أو أم سهرت على طفلها، أو عامل أنهى مناوبته. اعمل بما تستطيع، وتعلم أحكام عبادتك في حالك، واقبل عون من يعينك.

قدرتك اليوم هي التي تراعيها في أداء ما عليك، فلا تقارن نفسك بمن لا تعرف تفاصيل حاله. حافظ على الواجب بحسب استطاعتك، واسأل الله أن يعينك ويتقبل منك، ولا تحقر إحساناً يسيراً تقدر عليه.

نية تحمل العادي إلى الله

قد يكون ترتيب البيت وإعداد الطعام والكسب والراحة مباحاً تؤجر عليه بالنية الصالحة. تنوي بالكسب كفاية نفسك وأهلك، وبالراحة الاستعانة على واجبك، وبإتقان العمل أداء الأمانة.

لا تشكل التلفظ بالنية أو فحصها عند كل حركة. اقصد الخير واعمل على وجه مشروع، واسأل الله الإخلاص والقبول. النية الحسنة لا تبيح محرماً، لكنها تجعل للعادات المباحة مقصداً صالحاً.

قبل أن تقوم

إذا استيقظت، فاحمد الله بما علمك رسوله ﷺ، وأقبل على ما يلزمك. اللهم لك الحمد أن أحييتنا بعد نومنا، فبارك لنا في أعمارنا، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واغفر لنا تقصيرنا، واجعل يومنا زيادة في الخير.

الفصل الأربعون

بين لقمة وخطوة

تبدأ طعامك بالتسمية، وتأكل بيمينك، وتحمد الله بعده. قال النبي ﷺ لعمر بن أبي سلمة رضي الله عنه: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

وقال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها». رواه مسلم (٢٧٣٤). هكذا يدخل الذكر في يومك، فتنتفع بالرزق وتعرف المنعم وتشكره.

الأشياء الصغيرة ليست صغيرة

نحب الأخبار الكبيرة: شفاء بعد مرض، بيت جديد، نجاح طال انتظاره. وحين تأتي نشعر أن للحمد مناسبة واضحة. أما الأشياء المتكررة — ماء الصنبور، ضوء الغرفة، طريق معروف، ملابس تستر، متجر قريب — فتكاد لا تجد في ذاكرتنا صفحة. لكن أكثر حياتك مصنوع من هذه الأشياء.

إذا غفلت عن فضل الله في الأشياء المعتادة، فقد لا تنتبه إلا عند حدث كبير. تأمل ما ييسره لك من ماء وطعام ولباس ومأوى، واحفظه من الإسراف، واستعمله في الخير.

ومن دعاء سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩]. نسأل الله أن يلهمنا الشكر ويوفقنا للعمل الذي يرضاه.

في الطريق نعم تمشي معك

تخرج من بيتك فتبدأ الشكوى من الزحام. وقد يكون الزحام متعباً حقاً، وقد يحتاج تنظيمًا وحلولاً وصبراً. لكن انظر إلى طبقات العطاء التي تسير داخل المشهد: وسيلة تتملك، وطريق يمهّد، وعلامات تهدي، وقدرة على معرفة الاتجاه، وأمن يسمح لك أن تغادر وتعود.

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

أمر الله بالسعي، وذكر الرزق والنشور. فامض فيما ينفعك، واعرف فضل من رزقك القدرة ويسر لك الطريق. وإذا وصلت، فاجعل وجودك نافعاً: ألق السلام، وأدِّ الأمانة، وكف الأذى.

العمل: نعمة لا تكتمل إلا بالأمانة

قد يكون عملك أحب الأشياء إليك، وقد يكون باباً تضطر إليه ولا تجد فيه ذاتك. في الحالتين توجد نعم وحقوق.

في القدرة على الكسب كفاية. وفي المهارة علم تراكم. وفي الراتب ستر، ولو لم يحقق كل ما تريد. وفي زملاء العمل فرصة للأخلاق التي لا تظهر في العزلة: صبر، وعدل، ووفاء، وكف للأذى.

وشكر العمل ليس أن تمدح ظروفًا ظلمة أو تسكت عن حق مشروع. لك أن تطلب العدل، وأن تبحث عن موضع أصلح، وأن ترفض الحرام والأذى. الشكر لا يربي إنساناً مستسلماً للناس؛ يربي عبداً لا ينسى فضل الله وهو يأخذ بحقه.

ومن شكر الوظيفة ألا تتحول ساعاتها إلى خيانة. ومن شكر السلطة ألا تذل من تحت يدك. ومن شكر العلم ألا تحتكر ما يحتاج الناس إليه. ومن شكر الحرفة أن تسلم ما صنعت كما تحب أن تستلمه.

وإتقان العمل من شكر القدرة والمهارة التي رزقك الله.

وإذا لم تجد عملاً، فلا تجعل الحديث عن نعمة العمل لوماً لك. البطالة ألم واقعي، والبحث يستهلك القلب. خذ بالأسباب، واطلب من أهل الخبرة، واقبل من المباح ما يكون جسراً، ولا تجعل تأخر الباب حكماً على قيمتك عند الله. ما زالت فيك نعم يمكن أن

تتحول إلى أسباب: وقت، أو مهارة نتعلّمها، أو شبكة من أهل الثقة، أو قدرة على البدء صغيراً. وقد تضيق الخيارات فعلاً؛ وحينها يكون الصبر مع السعي عبادة لا يراها من يكتفي بالنصيحة.

وجوه لا يصل إليها الشكر

خلف يومك أناس لا تلتقيهم.

عامل نظافة مر قبل أن تستيقظ. مزارع لن تعرف اسمه. سائق حمل ما اشترت. ممرض ربّ الدواء. موظف أصلح خلافاً قبل أن تشعر به. نحن نستعمل آثار أيديهم، ثم ننسب سهولة الحياة إلى نفسها كأن الأشياء وصلت وحدها.

قال النبي ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»؛ رواه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

نحمد الله واهب النعم ومسخّر الأسباب، ونشكر من أحسن إلينا. ومن شكر الناس دفع أجورهم في وقتها، ونسب الفكرة إلى صاحبها، وحفظ كرامة من يقدم خدمة.

ولا تنس أهل بيتك مع تكرر إحسانهم. اذكر ما عرفته من فضلهم، وأعنهم، وناقش الخطأ بعدل من غير أن تحو الخير كله. الاعتراف بالإحسان لا يمنع طلب الإصلاح، كما أن وجود تقصير لا يلغي حق الشكر.

جسدك ليس أداة للاستنزاف

للجسد حق في الرعاية والراحة. استعمل قوتك في الخير، واحفظها من إهمال أو استنزاف، واستعن بالمختص فيما تحتاج إليه من علاج. وقد يكون من حسن العمل أن ترتاح لتقدر على أداء واجبك.

اختر من يومك عملاً بسيطاً يصدق شكرك: لا تهدر طعاماً، أو أتقن مهمة، أو أعن أهل بيتك، أو احفظ وقتاً ضائعاً في غير فائدة. لا يلزم أن تبدل كل عاداتك دفعة واحدة؛ ابدأ بما تعرفه وتستطيعه، وداوم واستعن بالله.

الفصل الحادي والأربعون

إذا جاء ما تحب وما تكره

يأتيك خبر تحبه فتفرح وتحمد الله، ويأتيك ما تكره فتحزن وتستعين به. تتغير الأحوال، وتبقى عبوديتك لله في جميعها. تحتاج في الفرح إلى شكر يحفظك من البطر، وفي المصيبة إلى صبر يحفظك من السخط.

حين يأتي ما تحب

افرح بنعمة الله من غير بطر، واعرف أن أعظم الفرح ما كان بفضلِهِ ورحمته وهدايته. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. جاءت الآية بعد ذكر الموعظة والشفاء والهدى والرحمة في القرآن، فليكن لهذا الفضل أوفر نصيب من فرحك.

أول الميزان أن تعرف المصدر: «هذا من فضل ربي». لا تنكر تعبك ولا أسبابك، لكنك تعرف أن تعباً كثيراً لم يبلغ أصحابه، وأن أسباباً كثيرة تعطلت، وأن العقل والقوة والفرصة كلها عطايا.

وثانيه ألا يتحول الفضل إلى منصة تؤذي المحروم. ليس كل عطاء مناسباً للعرض، وليس كل صمت بجوداً. قد يكون من الرحمة أن تشارك البشري مع من يحبك، وأن تحفظ تفاصيلها عن قلب تعرف أنه في ساعة كسر.

وثالثه أن تسأل عن حق النعمة. النجاح أمانة علم. والمال باب زكاة وصدقة وكفاية. والولد تربية. والعافية عمل. ليست الفكرة أن تفسد فرحتك بقائمة واجبات، بل أن تحميها من الفراغ. النعمة التي لا تجد طريقاً إلى الخير قد تصبح حجة ثقيلة.

ومن شكر تجدد النعمة سجود الشكر. وقد ثبت في خبر كعب بن مالك رضي الله عنه أنه لما سمع البشري بتوبة الله عليه خر ساجداً. رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩). تعلم أحكامه وصفته ممن يوثق بعلمه، ولا تخصص له دعاء لا دليل على تخصيصه.

وحيث يأتي ما تكره

إذا نزلت بك مصيبة، فاجتهد في الصبر وطلب العون، وقل الاسترجاع، واسأل الله الأجر والخلف الحسن. لا يبيح الألم ظمأً، ولا يمنعك الإيمان بالقدر من علاج أو طلب حق.

قال الله في أهل المصيبة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿[البقرة: ١٥٦-١٥٧].

«إنا لله» ليست كلمة فقد فقط؛ هي حقيقة العمر كله. نحن له قبل العطاء وبعده. و«إنا إليه راجعون» لا تحو الدمع، لكنها تمنع المصيبة من أن تكون نهاية القصة.

ومن دعاء المصيبة الذي علمه رسول الله ﷺ: «اللهم أجري في مصيبتى، وأخلف لي خيراً منها». رواه مسلم (٩١٨). اسأل الله ما وعد، وأبق علم الوقت والكيفية إليه، وأصلح من حالك ما تستطيع.

بين الصبر والشكر

قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». رواه مسلم (٢٩٩٩).

وقد تجتمع سراء وضراء في يوم واحد: تعب ومعه عون، وفقد ومعه أهل يواسون، وحاجة ومعه سبب تسعى فيه. اصبر على ما يشق، واشكر ما تيسر، وارفق بغيرك كما تحب أن يرفق بك.

حق الساعة

في وقت العطاء، تذكر المنعم واسأل عن حق النعمة: ما الواجب فيها؟ ومن ينتفع بها؟ وفي وقت المصيبة، اسأل عن سبب تستطيع فعله، وعمن يعينك، واحفظ نفسك من السخط.

قد لا تجد جواب كل سؤال الآن، لكنك تستطيع عبادة الله بما تعلمه من واجب ودعاء وصبر وشكر. اللهم اجعلنا شاكرين في السراء، صابرين في الضراء، مقبلين عليك في كل حال.

رفيق ثلاثين يوماً: من الملاحظة إلى الحياة

هذه أعمال مقترحة لتنظيم الانتباه إلى النعم وخدمتها، وليس لهذه الأيام ترتيب تعبدي أو فضل خاص. اختر ما يناسب استطاعتك، وحافظ على الفرائض والأذكار الثابتة. وإن فاتك يوم فتابع حين تستطيع.

الأسبوع الأول: افتح عينيك

اليوم الأول — الحياة التي عادت. قل ذكر الاستيقاظ بتمهل، ثم اكتب أمراً خيراً تستطيع فعله لأن الله مد في عمرك هذا اليوم.

اليوم الثاني — نفس بلا أمر. توقف لحظات من غير تكلف تمرين خاص، ولاحظ أنك تتنفس. احمده على ما يعمل في جسدك بصمت.

اليوم الثالث — نعمة البصر. تأمل ما انتفعت ببصرك في معرفته، واحفظه عن النظر المحرم. وإن عجزت عنه، فتأمل ما يسره الله لك من وسائل التعلم والإدراك.

اليوم الرابع — نافذة السمع. أنصت إلى شيء من القرآن أو علم نافع، ثم اخرج من غيبة أو أوقف مادة تفسد سمعك.

اليوم الخامس — حركة. استعمل قدرتك في حاجة خير: صلاة، أو خدمة أهل، أو مشي نافع. وإن كنت عاجزاً، فاشكر ما بقي واستعمله بقدر وسعك.

اليوم السادس — من القطرة إلى المائدة. تتبع في ذهنك طريق كأس ماء أو لقمة، واحمد الله بعد الطعام، ولا تهدر صالحاً.

اليوم السابع — صورة الأسبوع. اجمع ما رأيت تحت خمسة أبواب: دين، بدن، أهل، أمن، رزق. اختر نعمة واحدة تحتاج إلى حق عملي.

الأسبوع الثاني: اعرف فضل الله

اليوم الثامن — من الله أولاً. اختر نجاحاً تعتز به. اكتب ما سخره الله له: قدرة، ووقتاً، وإنساناً، وفرصة. لا تنكر جهدك، بل ضعه في مكانه الصحيح.

اليوم التاسع — اشكر سبباً. أرسل إلى شخص أحسن إليك كلمة محددة: ماذا فعل، وكيف خفف أو علم أو حمل.

اليوم العاشر — نعمة الهداية. تعلم معنى آية من الفاتحة من تفسير موثوق، وفكر في أثرها في عبادتك، واحمد الله على الإسلام والقرآن.

اليوم الحادي عشر - ستر. تب من ذنب ستره الله، ولا تقصه على الناس. أغلق باباً واقعياً يعيدك إليه.

اليوم الثاني عشر - رجوع يصلح. إن تعلق تقصيرك بحق آدمي، فابدأ برده أو اطلب مسامحة بالطريقة التي لا تنشئ ضرراً أكبر، واستفت عند الالتباس.

اليوم الثالث عشر - نعمة الدعاء. ادع الله بحاجتك، واسأله الهدى والعافية وصلاح القلب، وتعلم دعاء ثابتاً تفهم معناه.

اليوم الرابع عشر - ذاكرة الفضل. اكتب جملة تبدأ بـ «كنت... فمن الله علي». استعد نعمة قديمة أكلتها العادة.

الأسبوع الثالث: لا تدع الألم يملأ الصورة

اليوم الخامس عشر - سمّ الوجع. اكتب ما يؤلمك من غير تهويل ولا إنكار. ليست الشكوى إلى الله اعتراضاً عليه.

اليوم السادس عشر - ما بقي. تذكر نعمة حقيقية بقيت لك، من غير إنكار لما يؤلمك، واسأل الله أن يعينك على شكرها.

اليوم السابع عشر - خطوة سبب. اجز موعداً، اطلب استشارة، ضع خطة دين، أو افتح حوار إصلاح. الرضا لا يعني ترك السبب.

اليوم الثامن عشر — دائرتان. اقسم ورقة إلى: «ما أملكه» و«ما لا أملكه». اعمل في الأولى، وادع وفوض الثانية.

اليوم التاسع عشر — إنسان أمين. تواصل مع من يحسن الاستماع والنصح. وإن كنت أنت القوي اليوم، فكن حضوراً رحيماً لمبتلى آخر.

اليوم العشرون — لا تدع الغيب. راجع تفسيراً جازماً قلته عن بلاء: «حدث حتماً لأجل كذا». استبدله بالتواضع: الله أعلم، وهو الحكيم الرحيم.

اليوم الحادي والعشرون — راحة بلا محاكمة. اسأل: هل جمعت هذا الأسبوع بين الدعاء والعمل والصبر؟ لا تقس إيمانك بغياب الدمع، ولا تهمل علاجاً تحتاجه.

الأسبوع الرابع: دع النعمة تعمل

اليوم الثاني والعشرون — اللسان. قل كلمة تجبر، أو اعتذر، أو اكف غيبة. اجعل الحمد ظاهراً في الطريقة التي تتكلم بها عن الناس.

اليوم الثالث والعشرون — اليد. أتعن عملاً، أو أصلح شيئاً، أو أعن محتاجاً، على قدر استطاعتك.

اليوم الرابع والعشرون — المال. أد واجباً حل، أو قدّم صدقة ولو قليلة لمصرف مشروع. ليس مقدارها وحده هو المعنى؛ المعنى أن يعبر الخير من يدك.

اليوم الخامس والعشرون — الوقت. خفف مشتتاً، واستعمل ما تيسر من وقتك في علم نافع أو خدمة أهل أو عمل لازم.

اليوم السادس والعشرون — البيت. قدّم خدمة بلا منّ، واذكر فضلاً محدداً لشخص يعيش قريباً منك.

اليوم السابع والعشرون — من يخدم يومك. أد أجراً في وقته، أو اشكر عاملاً باحترام، أو ادع لمن أحسن. لا تجعل الناس أجزاء صامته من راحتك.

اليوم الثامن والعشرون — مجلس صغير. اجلس مع أهل أو صديق. ليذكر كل واحد نعمة وحقاً عملياً لها، من غير مفاخرة ولا إلزام.

يومان للبقاء

اليوم التاسع والعشرون — أثر النعمة. تذكر نعمة تجددت لك، وأصلح شيئاً قصرت في حقه منها: أمانة، أو زكاة واجبة، أو شكر إنسان أحسن إليك.

اليوم الثلاثون — ما تستطيع المداومة عليه. راجع ما نفعتك، واستمر على عمل يسير تطيقه: خدمة تتكرر، أو علم نافع، أو صدقة مستطاعة، مع المحافظة على فرائضك وأذكارك المأثورة.

اللهم أعنا أن نرى نعمك، ونسألك حاجتنا، ونستعمل ما أعطيتنا في طاعتك، ولا تجعل اعتيادنا للفضل ينسينا شكرك.

الفصل الثاني والأربعون

وآخر دعواهم

أخبرنا الله عن حمد أهل الجنة، فقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] . وقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] .

وقال سبحانه: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] .

نتلو هذه الآيات فنؤمن بخبر الله، ونسأله أن يجعلنا من أهل جنته، وأن يوفقنا لما يقرب إليها. هناك يذهب الحزن، ويتم النعيم الذي وعد الله به عباده المؤمنين. وهذا الرجاء يعيننا على طاعته في دنيا تتغير أحوالها.

الحمد الذي يرافق الأسئلة

في الدنيا نعلم أشياء وتخفى علينا أشياء، ونرجو ونعمل ونتألم ونفرح. نحتاج إلى حمد لا ينتظر الإحاطة بكل حكمة، وإلى يقين بأن الله لا يظلم أحداً، وأن علمه تام وحكمته بالغة.

نبحث عن السبب النافع، ونتعلم مما وقع، ونؤدي ما نعرفه من حق. وفيما غاب عنا نقف عند حدود علمنا، ونؤمن بما أخبر الله به ورسوله ﷺ، ونسأل ربنا الثبات والعافية وحسن الخاتمة.

نعم تصحب بقية يومك

قد يبقى شأنك الذي بدأت وأنت منشغل به، وتبقى إلى جواره نعم حقيقية تحتاج إلى معرفتها وشكرها. لا تطلب من نفسك شعوراً واحداً في جميع أحوالك، ولكن عدّ كلما غفلت إلى ما تعلمه من فضل الله.

قد تعرف النعمة في صوت من تحب، أو في ماء تشربه، أو في مأوى ترجع إليه، أو في علم يصحح عملك. وأعظم ذلك نعمة الإسلام، وهداية القرآن والسنة، وتوفيق الله لك أن تتوب وتدعوه وتستعين به.

أعط النعمة الباقية حقها، ولو بقي ألم المفقود. واسأل الله ما ينقصك، واعمل بما تستطيع، وكن رحيماً بمن يحتاج إلى مواساتك.

وما الحمد إلا نعمة

كلما تأملت النعم ظهر لك عجزك عن إحصائها. وحتى معرفتك بالنعمة وقدرتك على شكرها من فضل الله، فلا يستغني العبد عن عونه طرفة عين.

وقد علم رسول الله ﷺ معاذًا رضي الله عنه أن يقول: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني. فاسأل الله هذا العون، واعمل، واستغفر من تقصيرك، وارج القبول من الكريم.

اللهم لك الحمد

اللهم لك الحمد على ما علمنا من نعمك وما لم نعلم. لك الحمد على الإسلام والقرآن، وعلى ما رزقنا من عافية وأمن وقوت ومأوى، وعلى من أحسن إلينا وعلمنا وأعاننا. وما بنا من نعمة فمك، فلك الحمد والشكر.

اللهم اجعل نعمك عونًا لنا على طاعتك. أصلح قلوبنا وألسنتنا وأعمالنا، وأعنا على أداء حقوق عبادك. اغفر لنا الغفلة والتقصير، وارزقنا إخلاصًا لا نطلب به إلا وجهك، واتباعًا لسنة نبيك محمد ﷺ.

اللهم اشف مرضانا، وارحم موتانا المسلمين، واجبر مصابنا،
واقض ديوننا، وأصلح بيوتنا وذرياتنا. أعن المبتلين على الصبر،
وارزقهم العافية والأجر، ووفقنا لإعانتهم بما نستطيع.

اللهم ارزقنا شكراً في السعة، وصبراً في الشدة، وتوبة من كل
ذنب، وحسن ظن بك مع حسن العمل. ثبتنا على الإسلام حتى
نلقاك، واجعل خير أعمالنا خواتيمها، وأدخلنا الجنة بفضلك
ورحمتك.

سبحانك اللهم ومحمدك، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على
نفسك. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

مراجع الأدعية والنصوص

أدعية المقدمة

[١د] من دعاء النبي ﷺ في قيام الليل؛ صحيح البخاري، كتاب التهجد، حديث (١١٢٠).

[٢د] من دعائه ﷺ بعد الرفع من الركوع؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث (٤٧٧).

[٣د] من وصيته ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه؛ سنن أبي داود، كتاب الصلاة، حديث (١٥٢٢)، وصححه الألباني. وفي سنن النسائي (١٣٠٣) رواية بلفظ: «رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

[٤د] قوله ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، حديث (٤٨٦).

المصادر

- القرآن الكريم. تُذكر أسماء السور وأرقام الآيات مع النصوص في مواضعها.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ).
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ).
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ).
- الجامع، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ).
- السنن الصغرى، أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ).
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، الجزء الثاني، منزلة الشكر.
- التفسير الميسر، إعداد نخبة من العلماء، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، للاستعانة ببيان معاني الآيات.

اللهم لك الحمد

قد يثقل عليك ما فقدت، حتى يغيب عنك ما بقي. وقد يمضي يومك في نعم ألفتها، فلا تستوقفك قطرة الماء، ولا لقمة الطعام، ولا يد أعانتك، ولا باب التوبة المفتوح أمامك.

نتذكر هنا ما أنعم الله به علينا، ونتأمل آياته، ونصحب أخباراً من السنة تعين القلب على الحمد. نرجو عافية المبتلى، ونرفق بحزنه، ونتعلم كيف يصحب الشكر أعمالنا: كلمة طيبة، وحقاً نؤديه، ومعروفاً نبذله.

اللهم أعنا على أن نعرف نعمك، ونشكرك عليها، ونستعملها في طاعتك.

جهدٌ مشتركٌ، نسأل الله فيه الإخلاص والقبولَ

== مدارج

هذا الكتاب وقف لله تعالى